

وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

القانون

رواية

تأليف: روجيه فايان
ترجمة: عبود كاسوحت

أوليات مختارة ٢
علي مولا

القانون

تصميم الغلاف
خالد يزيك

القانون

رواية

تأليف : روجيه فايان

ترجمة: عبود كاسوحة

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١١

LA LOI

Roger Vailland

القانون : رواية / تأليف روجيه فايان ؛ ترجمة عبود كاسوحة . - دمشق :
الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٠ . - ٣٤٤ ص؛ ٢٤ سم.
(روايات مختارة؛ ٢)

١- ٨٤٣ ف ف ا ي ق ٢- العنوان ٣- فايان
٤- كاسوحة ٥- السلسلة

مكتبة الأسد

روايات مختارة

« ٢ »

عن الرواية والروائي

حين تعود من سفر طويل إلى أحد بلاد الغربية، يُقبلون عليك قائلين:

- حدثنا عن تلك البلاد.

وتملكك الحيرة: من أين تبدأ؟

لستَ حيال واقعة واضحة المعالم ضمن حدود الزمان والمكان، بل أنت أمام مجتمع بحاله، أنت في مدينة يعمرها أناس من كافة المنازع والمشارب، من فائقي الثراء إلى أفقر الفقراء، وهم يعيشون ويحبون ويتألمون أيضاً. أناس تخفق قلوبهم وتنفض عروقهم دماً وحرارة وحركة، كما لا يحدث إلا على شواطئ البحر المتوسط، وهم في حالة تزامن دائم ساعين وراء الخبز والحب في آن معاً.

ينتابك مثل هذا الإحساس، وأنت تأتي على السطر الأخير من الصفحة الأخيرة. فالروائي الكبير روجيه فايان لم يقدم لك عملاً روائياً رائعاً ومتكاملاً فقط، نال عليه بجدارة جائزة غونكور لعام ١٩٥٧، بل اصطحبك في رحلة حقيقية إلى مدينة ساحلية في جنوب إيطاليا، تتدرج صعداً من مياه المرفأ القديم حتى قمة الجبل، التي يترفع فوقها دير القديسة أورسولا، بنت حاضرة أوربا (Uria) القديمة. وعرفك على مجتمع يبدأ بصيادي الأسماك في الأرض السبخة المستنقعية، ويرتقي حتى الأعيان وكبار ملاكي الأراضي وبساتين الزيتون والبرتقال والليمون. راصداً مباهجه كلها وكافة سفالاته أيضاً.

يعتبر روجيه فايان، الذي ولد في باريس عام ١٩٠٧، وتألّق روائياً بدءاً من ١٩٤٤ فنال جائزة الحلفاء على روايته «لعبة غريبة»، ظاهرة متميّزة في تاريخ الأدب الفرنسي المعاصر. ومن أشهر أعماله: الطنقات الخائبة، ثياب وحده، قناع جميل، ٣٢٥ ألف فرنك، القانون. ولئن كان قد اتهم زوراً بنظرية «الخلاعة»، فهو بحكم طبيعته العميقة، فيلسوف الاعتناق. وتميّز هذه السمة رواياته كلّها فتطبعها بطابعها.

لو كانت مارييت خليعة - مارييت الفتاة الفقيرة، ابنة السابعة عشرة، التي تنتقل حافية، لا يستر جسدها الفتى سوى قميص واحد - لفقدت في نظرك كل احترام. لكنّها وهي تتجّر ذكاء وشباباً وحيوية في انطلاقتهما العفوية، تحظى بعطفك واحترامك وتحوز على إعجابك، حتى تهتف من الأعماق، مثلما فعل دون سيزار، السيد الكبير المبجل قائلاً:

- مارييت، أريدك لك الخير كله.

ولئن ظلّ روائي من هذه الطينة، مجهولاً في بلادنا حتى اليوم، وهو المتوفى عام ١٩٦٥، فإنّ نقل هذه الرواية الآن إلى العربية يتوافق والمثل القائل:

«فضل متأخر، خير من العدم».

عبود كاسوحة.

القصدير، في ٢٥/٣/٢٠٠٩

تقع سراي بورنو مناكوري على زاوية الساحة الكبرى وشارع غاريبالدي، في مواجهة قصر فريدريك الثاني دو سواب. والسراي بناء أجرد من أربعة طوابق. يقع السجن في الطابق الأرضي ومفوضية الشرطة في الطابق الأول والمحكمة في الثاني. وسكن مفوض الشرطة في الطابق الثالث. في حين يحتل القاضي الطابق الرابع.

تبدو المدينة الصغيرة مقفرة ساعة القيلولة، في شهر آب، إلا من العاطلين عن العمل، الذين لا يبرحون أماكنهم، واقفين بمحاذاة الجدران حول الساحة الكبرى، متهدّلي الأذرع، ساكنين صامتين.

يرتفع صوت السجناء من وراء ذوافذ السجن العالية منشدين:

«توري، توري، يا حلوة توري...»

ويُنصت العاطلون عن العمل لغناء السجناء، لكنهم لا يغنون.

استفاقت دونا لوكريزيا من رقادها على غناء السجناء.

إنها لرائعة وهي نصف مستلقية فوق السرير في غرفتها في الطابق الرابع من السراي. تتكبي على مرفقها، ومسحها المفتوح يكشف عن صدرها. أمّا شعرها الأسود فينحدر مبعثراً حتى أسفل ظهرها. لو كانت في فرنسا لرُبما قيل إنها مفرطة طويلاً وقوة. أمّا في هذه المقاطعة من جنوب إيطاليا، حيث تزداد الرغبة في النساء كلما ازددن سمّة، وأصبحن على أبواب الوضع، فينادى بحسنها وجمالها. ولئن لم تكن عيناها واسعتين فإنهما تعبّران تعبيراً قوياً ودائماً عما يعمل داخل نفسها. وغالباً ما ترى فيهما إبان المرحلة الراهنة من حياتها شيئاً من الغضب والكرهية، أو لامبالاة عدائية.

مذ أن قَدِمَت بعد زواجها لتقيم في بورتو مناكوري، قبل عشرة أعوام من الآن، منحها الجميع لقب «دونا»، مع أنها زوجة قاضي من المرتبة الدنيا، وليس من يعرف الكثير عن مرحلة فتوتها في مدينة فوجيا الكبيرة. فهي واحدة من عدة بنات، لرئيس مكتب في قسم الشرطة. ولا يُطلق لقب «دونا» في بورتو مناكوري إلا على ابنة أحد ملاك الأراضي، ذوي المحتد العريق، أو على زوجته. لكن ما من أحد قط ناداها بلقب سينديورا، السيدة، أو «سينديوريا» على نحو ما يقال للأجنبيات. فهي دونا، دومنا، صاحبة السيادة. مثلها في ذلك مثل إمبراطورة الرومان. والأمر واضح وبادٍ للعيان.

دخل زوجها القاضي اليساندرو الغرفة واقترب منها فأبعثته. فقال:

- ما عدت تحبيني.

ولم تجب، بل نهضت واتجهت إلى النافذة لتفتحها قليلا، فغمرت وجهها هبة من الهواء الساخن. وعلا صوت السجناء بأغنية نابوليكانية حازت على الجائزة الأولى في آخر مهرجان إذاعي. انحنى دونا لوكريزيا فوق نظرها على يدين تشبثان بحافة إحدى كوى السجن. ثم ميّزت عينيّن واسعتين تحدّقان فيها من بين عوارض الكوة. ولا بدّ أن يكون الرجل قد أخبر رفاقه، لأنّ عيونا كثيرة صارت تلتصع ثم انقطع الغناء. فارتدت دونا لوكريزيا برأسها إلى الخلف.

أخذت الآن تسرّح النظر إلى أمام دون أن تتحني.

استسلم الموظفون للرقاد فوق مقاعد طويلة على سطح قصر البريد، في ظلّ برج فريديريك الثاني دوسواب. وتسوّقت نباتات المذاد بأزهارها الكبيرة الزرقاء من السطح حتى قمة البرج. إنّ تويجاتها تنفتح مع الفجر وتنغلق في الساعة الخامسة، حين تدركها الشمس. تلك هي الحال في كلّ صيف من يوم أن جاء بها زوجها، وهي عروس فتية، إلى بورتو مناكوري.

يقف العاطلون عن العمل بمحاذاة الجدران المحيطة بالساحة الكبرى ينتظرون مرور مرابع أو وقّاف يلزمه أحد الفعلة. لكن قلّما يحتاج المرابعون

أو الوقّافون لخدمات العاطلين. ذلك أن أفراد أسرة الواحد منهم يؤدّون ما يلزم من عمل في بساتين البردّقال والليمون إلى جانب مطلّبات أنواع هزيلة من الزراعة في أراضي بساتين الزيتون العطشى.

انهمك العمال إلى يمين الساحة الكبرى في تعلّق المصاييح الكهربائيّة على أغصان الصنوبرة العملاقة (التي يقال إنّ مورا، ماريشال فرنسا ومك نابولي، قد غرسها بيده). فالبلدية تقدّم هذا المساء حفلاً ساهراً للمصطافين.

تنتهي الساحة بسطيحة منبسطة تطلّ على المرفأ والبحر. وترنو دوناً لوكريزيا بنظرها الآن إلى البحر. فزرقتها هي هي منذ انتهاء الربيع. إنه هنالك. ومن شهور لم يطرأ على حاله من تغيير.

تقدّم القاضي أليساندرو أكثر فأشدّ يده إلى كفل زوجته.

سألها قائلاً: «بم تفكرين؟»

فاستدارت. إنه أقصر منها قامّة. وقد ازداد في الشهور الأخيرة نحولاً حتى تهذّل بنطاله. لاحظت أنه يرتعد. وتلاّأت على صدغيه حبّات كبيرة من العرق. قالت له: لا شكّ في أنّك نسيت أن تتناول حبّات الكينا. فتوجّه نحو طاولة زينتها ومأ الكأس من الإبريق وابتلع حبّتين وريّتين. إنه مصاب بالملاّريا مثل غالبيّة السكان في المنطقة.

عندئذ قالت: أنا لا أفكر أبداً.

انتقل القاضي أليساندرو إلى مكتبه، وفتح مؤلفاً وصله حديثاً من صاحب مكتبة في فوجيا، عثر عليه مؤخراً من أجله فأرسل إليه، وعنوانه: «تشریحات الإمبراطور فريدريك الثاني»، طبعة تورينو ١٨٧٤. إنّ فريدريك الثاني دوسواب، إمبراطور الروم ومك نابولي وصقليّة في القرن الثالث عشر، هو البطل الأثير لديه. إلا أنّ الحمى ارتفعت حتى لم يعد بوسعه متابعة النص. فآثر أن يستلقي فوق الأريكة الضيقة، حيث بات يمضي لياليه، مذ أن طالبتّه دوناً لوكريزيا بغرفة نوم مستقلة.

الأطفال يتنازعون في الغرفة المجاورة. فالخادمة لها أن تنام في مكان بارد، مثل حجرة الدرج أو غرفة قلم السجن. إذ ينتابها بعد ظهر أيام الصيف ضيق صدر في غرفتها تحت السقيفة. لذا توجهت دونا لوكريزيا إلى هناك لتؤدي ما ينبغي أدائه، بكل صمت.

تحوّل السجناء الآن إلى أغنية للمطرب شارل ترينيه. فاتخذت في أفواههم كلماتها التي لا يفهمون معانيها، نغمة شكوى. ويدوّي أحد مكبرات الصوت، في أماسي الصيف تغطية الساحة الكبرى بفقرات البرنامج الثاني للإذاعة الإيطالية، فقائمة الأغاني التي سيسمعها السجناء لا نهاية لها.

* * *

قال طونيو :

- دعيني أمدّ يدي.

وقرب يده من النهد المتكور تحت القميص الرقيق.

فضربتة مارييت على يده بقسوة.

فقال :

- أتوسّل إليك.

قالت :

- لا أريد.

لقد اختلى بها في زاوية معتمة تحت الدرج الخارجي للدار ذات الأعمدة. فيما شمس آب، شمس برج الأسد، «سوليوني»، تلمب الأرض السبخة المحيطة كلها. أمّا داخل الدار فالجميع يغطّ في نوم القيلولة الثقيل.

قبض طونيو على معصم الفتاة ودفع بها نحو الحائط والتصق بها. قالت :

- دعني أو أستغيث...

ثم جهت للتملّص منه إلا أنّه بقي ملاصقاً لها. قال هامساً :

- مارييت، أحبك. مارييت، أحبك كثيراً... دعيني فقط أمس...

- خذ دناءاتك هذه، دناءات الكلاب، وامض بها إلى أختي!

- وافقي فقط... أتخلّ من أجلك عن كل شيء... عن أولادي وعن زوجتي وعن دون سيزار... آخذك ودمضي إلى الشمال...

ظهرت في تلك اللحظة، عند أعلى الدرج، ماريّا، زوجة طونيو، وشقيقة مارييت الكبرى. لقد تمكّن طونيو من أن يستولدها خمسة أطفال في ستة أعوام. فتهلّل بطنها حتى فخذها وتهلّل ثديها حتى بطنها. صاحت به:

- ها أنت تسعى وراءها مرة أخرى.

فقال طونيو:

- إياك أن توقظي دون سيزار.

ثم انتهرت أختها قائلة:

- وأنت، لم تلاحقيه؟

فكانت مارييت:

- أنا لا ألاحقه، إنّما هو الذي يحوم حولي طول الوقت.

قال طونيو حانقاً:

- سوف دوّظان دون سيزار.

هنا ظهرت جوليا، والدّة ماريّا ومارييت، وقدّمت بدورها حتى أعلى الدرج.

ما زالت جوليا دون الخمسين. لكنّها مشوّهة ودميمة وممسوخة مثل جذور الصبّار التي يقذف بها البحر على الشاطئ. وهي هزيلة ناحلة، مصفرة البشرة ومحمرة العينين بسبب الملاريا.

صاحت مارييت بشقيقتها قائلة:

- لست رغبة في زوجك. إنما هو الذي يلاحقني على الدوام.

وجاء دور جوليا في شن الهجوم على مارييت، فصرخت بها قائلة:

- إن كان هذا المكان لا يروقك، فما عليك سوى الانصراف من هنا.

رفعت مارييت رأسها نحو أمها وأختها لترد قائلة:

- صيحووا واصرخوا ما طاب لكم الصراخ فلست بذاهبة إلى بيت اللومباردي.

فرعقت العجوز جوليا:

- إنك تفضلين خطف أزواج الأخريات.

هنا انفتح مصراع أحد الأبواب، بين صف الأعمدة في الطابق الأول. وتقدم دون سيزار فوق الشرفة. فساد الصمت فوراً.

دون سيزار في الثانية والسبعين من العمر. وإذا ما استثنينا شيئاً من البدانة، فهو لما يتغير مذ أن كان نقيباً في سلاح الفرسان الملكي (عند انتهاء الحرب العالمية الأولى). فوقفته المنتصبه لما تتغير. وما يزال أفضل قاص في المنطقة.

ارتسم طيف إلفيرا من وراء دون سيزار خلف باب الغرفة المعتمة.

إلفيرا بنت العجوز جوليا أيضاً. فماريا في الثامنة والعشرين وإلفيرا في الرابعة والعشرين، أما مارييت ففي السابعة عشرة. لقد كانت كل من جوليا فماريا، على التوالي، عشيقه لدون سيزار. وإلفيرا هي التي تشاطره سريرته الآن. أما مارييت فلما تزل بنتاً.

قال دون سيزار:

- أصغ إلي يا طونيو.

فأجاب طونيو:

- أنا مصغ إليك يا دون سيزار.

واقترَب من أسفل الشرفة ببساطه المرقع، حافي القدمين وبلا قميص.
غير أن سترته البيضاء كانت منشأة حديثاً. فدون سيزار فرض على أعوانه
المقربين ارتداء سترات بيضاء نظيفة بشكل دائم. وأصبح طونيو، منذ أن
تزوج من مازيا، رجل دون سيزار المقرب.

يشاهد دون سيزار من على شرفته الأرض السبخة كلها. ومن
ورائها البحيرة التي يشق حوضها لنفسه درياً، ليصب في البحر بين أعواد
القصب والخيزران. وتصل مياهها إلى حافة السهلة الترابية أمام درج
الدار ذات الأعمدة.

أمّا في البعيد فيرى شاطئ البرزخ بأدراجة الرملية ومن بعده خليج
بورتو مناكوري كله. ويحدّق دون سيزار في بحر ظلّ بلا حراك منذ شهور.
وكرّر طونيو القول:

- أنا مصبغ إليك يا دون سيزار.

عادت كل من جوليا وماريا إلى داخل الدار. ومضت مارييت رشيقة
الخطى لتتوارى وراء عیدان الخيزران، قاصدة أحد أكواخ القصب التي تؤوي
أسر صيادي دون سيزار.

قال دون سيزار لطنوئو:

- إسمع، سوف تتوجّه إلى بورتو مناكوري.

أجاب طونيو:

- سوف أتوجّه إلى بورتو مناكوري.

- تذهب أولاً إلى مركز البريد... ثم إلى بيت دون أوتافيو... ثم إلى
دكان الموالح والتبوغ...

كرّر طونيو ذكر الأماكن واحداً فواحداً ليبين أنه أحسن الفهم. وسأله
دون سيزار:

- ألن تنسى شيئاً؟

فكرّر طونيو من جديد كلّ ما عليه القيام به.

ثمّ سأل:

- لكن كيف أذهب إلى بورتو مناكوري؟

فقال دون سيزار:

- وكيف تنوي أنت أن تذهب إلى هناك؟

قال طونيو:

- قد يكون بوسعي ركوب اللامبريتا.

فقال دون سيزار:

- إذا كان يروقك كثيراً أن تأخذ اللامبريتا، فخذ اللامبريتا.

- شكراً، يا دون سيزار.

- والآن لديّ عمل. أذكركم بعدم إحداث أيّ صخب.

قال طونيو:

- لسوف يخرسن. أعدك بذلك.

انتهت ساعة القيلولة. ورأى دون سيزار صياديه يخرجون من أكواخ القصب المبعثرة هنا وهناك في الأرض السبخة ويقبلون نحو السهلة الترابية حيث يجفّفون شباكهم. فدخل إلى غرفته ثمّ انتقل منها إلى قاعة العانيات.

التحق طونيو بالنساء في القاعة السفلية الكبرى وقال:

- ماريّا، أحضري لي حذاءي.

- حذاءك؟ ولمّ ترينني أن أحضر لك حذاءك؟

- لقد سمح لي دون سيزار بأن أركب اللامبريتا.

- ولمّ يسمح لك دون سيزار بأن تركب اللامبريتا؟

- كلّفتني بالذهاب إلى بورتو مناكوري.

- ألا تستطيع الذهاب إلى بورتو مناكوري ماشياً؟

- قال لي أن آخذ اللامبريتا.

فقلت ماريا:

- إن ضجيج المحرك يعكر عليه صفو عمله.

وعقبت العجوز جوليا قائلة:

- إنه لم يرتح للمحركات يوماً. ولولا غضب الحكومة، لما سمح دون سيزار للطريق بأن تمتد إلى هنا.

وأوضحت إلفيرا الأمر بجلاء قائلة:

- إنه اليوم رائق المزاج. فهذا الصباح جاءه أحد الصيادين بقطعة أثرية.

أهلت مارييت تحمل الأسماك للعشاء، فوضعتها تحت سقف الموقد في زاوية القاعة الكبرى. ثم اتجهت إلى النافذة فأتكأت بمرفقيها على حافتها وأولت الآخرين ظهرها. كانت مارييت عارية تحت قميصها الرقيق الأبيض المنسدل حتى ركبتيها.

مضت ماريا لتحضير حذاء طونيو المعلق على عارضة خشبية بجانب حذاءها وحذاءي إلفيرا ومارييت. إنهن لا ينتعلن الأحذية إلا في أيام الأعياد أو لحضور القداس في بورتو مناكوري.

حدق طونيو بمارييت الواقفة إلى النافذة وظهرها إليه.

وعانت ماريا وهي تحمل الحذاء فسألته:

- بم تحدق؟

قال طونيو:

- ألبسني حذاءي.

جلس طونيو فوق المقعد الخشبي المواجه لطاولة السيد الفخمة، ذات القائم الوحيد والمصنوعة من خشب الزيتون. أمّا الكنبة الوثيرة الكبرى

المصنوعة في نابولي في القرن الثامن عشر، بخشبها المدفور والمذهب على مسندتيها وظهرها، فما من أحدٍ يجلس عليها قط سوى دون سيزار.

قالت ماريا:

- لا شك في أن دون سزار قد أصابه الجنون حتى سمح لك بأخذ اللامبريتا. والله يعلم إلى أين ستمضي بها وفي أية ساعة ستعود. ثم جثت أمامه وألبسته حذاءه.

قال طونيو:

- إذا ما لقيت دون روجيرو، فسأقُبُّ له أن دراجتًا أسرع من دراجته الفيسبا.

هنا سألته مارييت دون أن تستدير نحوه:

- صحيح إذن، أصبح أن دون سيزار قد سمح لك بركوب اللامبريتا؟

- ولم لا يسمح لي بأخذ اللامبريتا؟ أليس رجُلُه المقرب؟

نظر طونيو إلى مارييت مليًا. فأشعة الشمس المائلة نحو المغرب تضيء ظهر الفتاة، وتحيط بالقسم الظليل الذي يرسمه القميص الرقيق بين الفخذين.

ثم تابعت مارييت تقول:

- وأنا أيضًا أجيد قيادة اللامبريتا.

فسألها طونيو:

- ومن علمك؟

فقالت ماريا لطنوئو:

- هل بلغ بك الجنون حد جعلها تقود لامبريتا دون سيزار؟

قال طونيو:

- كفى يا امرأة.

ونهب فدخل إلى الإصطبل وأخرج اللامبريتا فأوقفها على منصبها في السهنة الترابية أمام الدار. وخرجت النساء وراءه. ثم برز الأطفال من كل حدب وصوب فاقتربوا منه.

أما الصيادون الذين يطوون شباكهم فقد تركوها وأقبلوا فتحلقوا حوله.
قال طونيو:

- هاتوا لي ماء.

مضت كل من جوليا وماريا لتغرفا سطلين من الماء من مصرف البحيرة. وأفرغ طونيو الماء نذاً على عجلتي اللامبريتا وعلى الرفرافين. ثم جفف القطرات العالقة بإسفجة. ومسحها بقطعة من جلد الغزال.

قال أحد الصيادين:

- هكذا إذن، لقد سمح لك دون سيزار بركوب اللامبريتا؟

فأجابت ماريا:

- الأمر طبيعي.

ظلت مارييت واقفة على الحياد بجوار الدرج.

بدأ طونيو بفتح صنوبر إيصال البنزين إلى المفحّم. ثم تحقّق من وضع مبدّل السرعة على نقطة الصفر. وجرب حركة مقبض الوقود فأزاحه قليلاً إلى الوراء ثم بعض الشيء إلى الأمام. فعل ذلك كلّ بهيئة من الاستغراق والتفكير العميق.

ازداد الصيادون اقتراباً، والأطفال يتزاحمون بين أرجلهم.

حرّر طونيو دعسة التدوير وضغط بكعب حدائه بقوة. مرة أولى فتأنيّة، ودار المحرك. بدأ يتلاعب بمقبض الوقود فيعلو صوت المحرك ويخفت، ويكبر أزيزه ثم يضعف.

قال أحد الصيادين:

- هذه ماكينة حقيقية.

فقال صياد آخر:

- هذه تدور أسرع من أفيسيا بكثير.

وقال ثالث:

- أمّا أنا فأعتقد أنني أفضل أفيسيا رغم ذلك.

فاستأنف الأول قائلاً:

- إن كان دون سيزار قد اشترى لامبريتا، فذلك يعني أنها أفضل ماكينة.

رفع طونيو المنصب وامتطى السرج وحرك المقبض حتى بلغت سرعة دوران المحرك أقصاها، والدراجة في مكانها.

أهبت مارييت مسرعة وقالت:

- خذني معك.

فصرخت بها ماريا قائلة:

- انظري كيف تسعين أنتِ وراءه.

قالت مارييت:

- أنا لا أكره به. لكنني أرغب فقط في أن يردفني على اللامبريتا.

ثم ضغطت بيديها الاثنتين على المقود وقالت:

- طونيو، اسمح لي بأن أركب وراءك.

وقفت ماريا إلى الجانب الثاني من اللامبريتا وأخذت تحدّق فيهما معاً.

فقال طونيو:

- كان ينبغي استئذان دون سيزار.

فردت مارييت قائلة:

- دون سيزار لا يمانع.

- لا يسعنا أن نجزم في الأمر.

- سأطلب منه بنفسى .

وتدخلت إلفيرا قائلة باستنكار :

- ألا انظروا، إنها تدعى لنفسها الجرأة على إزعاج دون سيزار !
فقال طونيو لمارييت :

- فكرى أولاً . فدون سيزار لا يسمح بأن يزعجه أحد وهو يعمل .
فردت قائلة :

- هل أنت رجله المقرب أم لا ؟ خذنى معك .
فقال طونيو :

- أنا رجله المقرب دون أى شك . إلا أنه كلفنى بمهام ذات ضرورة
قصوى . وهذا ما دعاه للسماح لى بأخذ اللامبريتا . وإنى لأسألك : هل يأخذ
المرء فتاة بصحبته إذا كان مكلفاً بمهمة ضرورية ؟
فما كان من مارييت إلا أن أرخت المقود وتنحّت .

صاحت به :

- يا شبه امرأة .

ثم استدارت فتوجّهت صوب الدرج .

انطلق طونيو ثم أسرع فتوارى عن الأنظار وراء سياج الخيزران فى
طريقه نحو الجسر .

لاحق الصيادون بنظراتهم مارييت وهى ترتقى الدرجات . وتبادلوا
التعليقات الساخرة بصوت عالٍ جداً حتى تسمعهم .

قال الأول :

- هذه يلزمها رجل .

فعقب الآخر :

- أمّا والرجل غير متوفر ، فقد سعت لتمتطي اللامبريتا .

وأضاف الثالث:

- لكنّ ماكنة مثل هذه، شيء قاسٍ...

وأغرق الثلاثة في الضحك، دون أن يتحوّلوا بأنظارهم عن الفتاة التي كانت مشيتها السريعة تجعل قميصها يلتصق بفخذيهما.

ما إن بلغت أعلى الدرج حتى استدارت لتصرخ بهم قائلة:

- الأحرى بكم، أيها الرجال، أن تهرعوا للقاء عنزاتكم!

الواقع أنّ الرجال في الأرض السبخة قد اشتبهوا بتفضيلهم معاشرة الماعز على معاشرة نسائهم.

دخلت مارييت الدار وفي أنفها أزيز اللامبريتا التي تجري الآن، بعد عبور الجسر، على الجانب الآخر من مصرف البحيرة، وراء ستار أعواد الخيزران.

أطال المفوض أتيليو فترة القيلولة بعض الشيء. واستيقظ على صخب أبناء القاضي اليساندرو ودونا لوكريزيا، والفرقة التي كانوا يحدثونها في المسكن العلوي.

اتجه عاري الصدر إلى طاولة الزينة فمسح وجهه بماء الخزامى كما مسح إبطيه. إنه رجل وسيم بهيّ الطنّة في الأربعين من عمره، مشط شعره بعناية فائقة، وهو يحرص على تثبيت تجعيداتّه بمستحضر أميركي جديد غير دهني.

كانت عيناه الواسعتان السوداوان محاطتين بهاليتين اجتاحتا منتصف وجهه. تناول من على الصيوان القميص الأبيض الذي وضعت زوجته آنّا. فهو في الصيف يبدّل قميصين يومياً. ثم اختار ربطة عنق ثلاثم بزّته الكتّانية. وأخذ يندندن أغنية شارل ترينيه التي كان السجناء يغنونها قبل قليل، إلا أنّه يفهم كلماتها. فقد تعلّم الفرنسية في المرحلة الثانوية قبل أن يتخرّج من الجامعة مجازاً في الحقوق.

ارتدى سترته وشد أطرافها ليتأكد من حسن شكلها. ثم وضع في عروة الصدر قرنفة قطفها من الأصبص الموضوع على حافة النافذة.

انتقل إلى الصالة ليجد زوجته أنا ومعها جوزينا، ابنة بائع الخرداوات في شارع غاربالدي، وهما تقومان ببعض أشغال الإبرة وحياسة الصوف.

السيدة أنا امرأة بدينة شقراء متهللة. أبوها رجل قضاء من لوتشيرا عاصمة المقاطعة القضائية قرب فوجيا. وعائلتها موضع تقدير متوارث. فاسمها ورد في سجلات القرن الثالث عشر. ويؤكد القاضي أليساندرو أنها سائلة أحد آل سواب الذين اصطحبهم الامبراطور فريديريك الثاني معه حين جعل من لوتشيرا عاصمة لملكته في جنوب إيطاليا.

أما جوزينا فنحيلة، سوداء الشعر برآقة العينين، مثل كافة المصابين بالملاريا. بيد أن البرداء لما تصبغ بالصفرة خديها كما فعلت بالقاضي وجوليا دون سيزار. قنن بشرتها ما يزال باهتاً كالنفار. ويزعم القاضي أنها من سلالة المغاربة الذين جذهم فريديريك الثاني ضد البابا، حين فقد ثقته بمرتزقته من الجنود الألمان، وكانت فرقة منهم تتخذ من مناكوري موقعا لها.

كانت جوزينا منهمكة بحياسة صدرية. والبذ المنسوج بشكل حلزوني سوف يضاعف حجم النهد ويزيد من بروزه. فقد فرضت كل من جينا لولو بريجيذا وصوفيا نورين، في ذلك العام، مقاييس جسدها على الشواطئ الإيطالية كلها.

قالت جوزينا:

- يا حضرة المفوض، لي مطلب عذوك، فهل يستجاب؟

فأجاب المفوض ضاحكاً:

- وهل سبق أن رفضت لك طلباً؟

- قل إنك قد قبلت؟

قالت أنا:

- إقطع لها عهداً.

أجاب المفوض:

- أرى أنكما متفقتان. هل أرسل فأطلب لكما شيئاً من البوظة؟

فردت جوزيينا ضاحكة:

- لسنا بحاجة لمسعاك كي نأكل البوظة. فهاك ما أريد أن أطلب منك:

إسمح للسيدة أنا بالذهاب معي غداً إلى الشاطئ.

فأضافت أنا:

- ذلك هو الطلب.

قال المفوض:

- لكن أنا ترافقك إلى الشاطئ ومعها الأولاد حينما ترغب في ذلك.

فقالت جوزيينا بالإحاح:

- لكنك تدرك جيداً ما أرمي إليه.

- قولي ما هو.

- أن تسمح لها بالسباحة معي.

- هذا إذن ما اتفقتما على حبكه؟

- هل توافق؟.

فردت بلهجة جافة:

- إنني أرفض.

قالت جوزيينا:

- الفلاحات وحدهن، لا يسبحن.

فاحتجّت أنا قائلة:

- كيف هو مظهري وأنا بثوب على الشاطئ، والنساء الأخريات

كلهنّ بالمايوه؟

فواصلت جوزينا تقول:

- وهذه زوجة المحامي سغادو نفسها قرّرت أن تسبح في الموسم الحالي.
فقلت أنا:

- والمايوه الذي تلبسه مكشوف الظهر حتى صُنّ بها.

قال المفوض:

- لكنّ دونا لوكريزيا لا تسبح. وأنا على ثقة من أنها لا تتطلّمْ.
فهتفت أنا قائلة:

- ألا تعلم أنّ دونا لوكريزيا هذه أكثر زهواً من أن تسبح في
مناكوري؟ لا أدري إن كانت تتنازل فتسبح في ريميّني. فهي لا ترضى بما
هو أدنى من شاطئ البندقية.

هنا سألته جوزينا قائلة:

- هل تخشى أن يرى الناس زوجتك بالمايوه؟

- هذا الأمر يخصّني وحدي.

صوّبت جوزينا عينيها المريضتين نحو عيني المفوض أتيليو فحدّقت
فيهما بإمعان، ثم قالت:

- سوف نناقش المسألة فيما بعد.

فقال:

- آه منك أيتها الشريرة.

قالت أنا:

- ماذا دهاكما أنتما الإثنين؟

فأجابت جوزينا:

- زوجك رجل متخلّف، لا يريدك أن تواكبي عصرك. بوّده فقط لو
يقوى على احتجازك في أحد الأبنية. لقد كنت أسعد حالاً وأنت في لوتشيرا.

قالت أنا:

- هذا صحيح.

فقال المفوض لجوسبينا:

- ستكونين راضية كل الرضى لوأنها عادت إليها.

- سأرافقها بكل طيبة خاطر.

- لست واثقا بذلك تمام الثقة.

قالت أنا:

- حسبكما نزاعاً.

كانت قاعة الاستقبال مفروشة حسب طراز مملكة نابولي في القرن التاسع عشر. فالكنبات والأرائك العالية والضيقة والمنضدة الرخامية من طراز لويس السادس عشر. وتتسدل على النوافذ ستائر من القطيفة الحمراء. كما تغطي سجادة ترتع فيها الأسود والذمور جانباً من الجدار، وتتصب مرآة عالية ذات إطار من الجبس المذهب فوق إناء خزفي صيني، غرست فيه أزهار اصطناعية وكُلّل بقطيفة حمراء. أمّا سراج الزيت القديم تحت تمثال السيدة العذراء فقد استبدل به مصباح كهربائي أحمر مضاء على الدوام. ولقد قامت أسرة أنا من لوتشيرا، فقدّمت لها ذلك كله، بآنفة يوم زفافها.

قال المفوض:

- وهذه المرة أيضاً احترق مصباح السيدة العذراء.

تقدّم حتى التمثال فرسم إشارة الصليب ثم نزع المصباح وتوجّه به إلى النافذة ففتح مصراعها ليتحصّده على الضوء. ودخلت هبة من الهواء الساخن مصحوبة بغناء السجناء.

قال المفوض:

- أجدني للمرة العاشرة ملزماً بتبديل هذا المصباح.

فاصطنعت أنا شكل قرنين بالسبابة والخنصر. وهذه رُقِيَّة تَقْلِيدِيَّة لَتَجَنَّبِ
الأرواح الشريرة. ثم قالت:

- هنالك شيء أجهل ما هو في هذا البيت.

فقالت جوزبينا:

- فيه شيء يحقُّ ربّحاً لبائع الأدوات الكهربائية.

قال المفوض:

- أمّا أنت، فإنّك لا تؤمنين بشيء.

هنا قامت جوزبينا بلفّ الصدرية التي كانت تحبّكها في عدد قديم من
جريدة تيمبو، ثم قالت:

- إنني أؤمن بما ينبغي للمرء أن يؤمن به.

مدّ المفوض يده ولمس عانته، وهذه رُقِيَّة تَقْلِيدِيَّة أخرى.

فسألته جوزبينا:

- هل تخشاني يا حضرة المفوض؟

وأغرقت في الضحك. إنها هدلاء مثل الزنجيات، وأسنانها صفراء.

قال المفوض:

- عليّ أن أنزل إلى مكتبي.

فسألته أنا:

- وهل لديك عمل كثير؟

- هنالك مشكلة المصطاف السويسري...

- ذاك الذي تعرّض لسرقة النصف مليون لير؟

فقال المفوض:

- أجل، في جوار دارة دون سيزار.

فسألته أنا قائلة:

- ومن ذا الذي يترك نصف مليون لير في سيارته؟

فأجاب المفوض ضاحكاً:

- ومن ذا الذي يبيت ليذه في الأرض السبخة؟ لقد عرض نفسه للإصابة بالبرداء.

ونهدت جوزينا قائلة:

- وأنا أيضاً سأنصرف.

فسألتهما أنا :

- أو لم تبكرى بالذهاب؟

- بقي عليّ أن أكوي ثوبي من أجل الحفل هذا المساء.

- فسألها المفوض:

- وتذهبين إلى الحفل مساءً؟

- ليس لي من زوج يحبني في الدار.

فقالت أنا:

- لا تعودا، أنتما الإثنين، لنزاع مجدداً.

وخرج المفوض وجوزينا في آن واحد.

كانت السراي قصراً قديماً بناه الملوك الأنجوفيون بمواجهة قصر فريديريك الثاني دوسواب، وذلك من بعد هزيمة ابنه، الملك مانفريد، على أيدي هؤلاء. وتزخر سطوحات الأدراج بالزوايا المعتمة.

وهكذا فقد دفع المفوض أتيليو بجوزينا إلى زاوية من السور العتيق وأحاطها بذراعيه قائلاً:

- أعطني قبلة.

- كلا.

ووضعت كفيها المبسوطتين على صدر الرجل ومدت ذراعيها فأبعدته عنها. إلا أنَّها وبالحركة نفسها جعلت بطنها يلتصق به. وضحكت.

- قُبلة واحدة فقط.

- كلا.

- البارحة نعم، واليوم كلا... لماذا؟

- هكذا.

كانت على درجة من القوة لم يتمكن المفوض معها من طي ذراعيها الناحلتين اللتين تبعدن كتفيه. وظلت تضحك. لم يكن يرى في تلك الزاوية المعتمة غير عينيها الكبيرتين المحمومتين وشفتيها المكتنزتين المصبوغتين بالأحمر.

قال المفوض:

- أرجوك.

- أطلب بشكل أفضل!

- أتوسل إليك.

- قل لي:

- أتوسل إليك، أيها الحبيبة جوزينا.

- أتوسل إليك، يا جوزينا الحبيبة.

لكنها ظلت متقوسة على الجدار وبطنها إلى الأمام وذراعاها تبعدان كتفي الرجل عنها.

- هل ستسمح لزوجتك بمرافقتي إلى الشاطئ غداً صباحاً؟

- أجل.

- وهي تلبس المايوه؟

- أجل.

- أقسم لي على ذلك.

- إنني أقسم على ذلك.

- أقسم لي بالعذراء على ذلك.
- أقسم لك على ذلك بالعذراء.
أرخت جوزيينا ذراعيها واستسلمت للقلب. إنها تجيد التقبيل. وداعبها
فتركته يفعل.

قال لها:

- سأكون في انتظارك داخل السيارة لدى خروجك من الحفل.
- كلا، فالناس سوف يشاهدونا.
- أنتظرُك إذن عند نهاية الشاطئ الرملي قرب الجسر، ونتوجّه من
هناك إلى غابة الصنوبر.

- أنت تعرف حق المعرفة أنني لن أصير عشيقة لرجل متزوج.
- لن أفعل إلا ما تقبلين به.
- لكنني أخشى أن أصبح أنا غير قادرة على ردّع نفسي.
- لا بأس.

- وهل تعرف ما شروطي؟
فقال معترضاً:

- لكنك تتصرفين كأنك عشيقتي.

استغلت انهماكه في الحديث فتخلّصت منه، وقالت:

- كلا، فليس الأمر بسيّان أبداً. وهذا من حسن طالعي.
توجّهت نزولاً وقد بدأت تذدن المثل الشائع في جنوب إيطاليا:

«باتشي بينزيكي نو ن فانو بوكي»^(١)

ثم دلفت الدرج ركضاً.

(١) القَرَصُ والْقَبْلُ لا تُحدِثُ ثَقُوباً.

وقف المفوض أنيليو عند نافذة مكتبه وأخذ يراقب طونيو وهو يركب
اللامبريتا ويدور بها ببطء حول الساحة الكبرى.

ووقف معاونه ينتظر حاملاً عدداً من التقارير في يده. فسأله المفوض:

- من أين جاء طونيو دون سيزار بالمال ليشتري لامبريتا؟

فأجاب المعاون:

- سبق أن طرحت على نفسي هذا السؤال. ثم أضاف يقول:

- طبعاً استعلمت عن ذلك. ليس لـمال السويسري أي دخل في الأمر.

إنّ دون سيزار هو الذي اشتراها.

فقال المفوض:

- هذا ما كان يدور بخلدني، وطونيو أصغر عقلاً من القيام بضربة

نصف مليون لير.

ثم ابتسم وأضاف:

- دون سيزار يمتطي لامبريتا. كم بودي لو أرى ذلك.

- لم يسبق لأحد أن رأى دون سيزار على اللامبريتا.

- لم اشتراها إذن؟

- لا بد من وجود فتاة ما وراء ذلك.

- فسأله المفوض:

- وراء ماذا؟

وضحك. فضحك المعاون بدوره.

قال المفوض:

- لو كنت غنياً مثل دون سيزار لاشتريت سيارة من نوع «ألفا روميو».

- ومن أي طراز؟

- جولييتا. من الطراز الر ياضي.

فقال المعاون:

- أمّا أنا فأفضّل سيارة من نوع «لانسيا» طراز «أوريلى».

لم يكن المعاون يملك سيارة، أمّا المفوض ف لديه سيارة من نوع «فيات» ألف ومئة، اشتراها بالتقسيط، ويكفّهُ التسديد ثلث مرتبه. أمّا القاضي أليساندرو، وهو رجل علم وثقافة، ف لديه سيارة عتيقة من نوع توبولينو، اشتراها مستعملة.

عاد المفوض ومعاونه لبحث قضية السويسري. فالتحقّق يراوح مكانه.

وقعت السرقة قبل خمسة عشر يوماً.

كان السويسري مخيماً بصحبة زوجته وأولاده الثلاثة، وأعمارهم ثلاثة عشر وخمسة عشر وسبعة عشر عاماً. وهم يتنقلون في سيارة أميركية من نوع قديم صندوقها عالٍ وعجلاتها عريضة، وهذا ما يفسر قدرتهم على السير بها حتى شاطئ البرزخ الرملي الذي يفصل ما بين البحر وبحيرة دون سيزار المالحة.

وصلوا إلى ذلك المكان قبل وقوع السرقة بيومين. نصبوا خيمتين إلى جانب السيارة، واحدة للرجل والمرأة والأخرى للأولاد.

قاموا في اليومين الأولين بشراء بعض حاجاتهم من عند بسائنة دون سيزار وصياديه.

حين وقعت السرقة ظهراً، كان السويسري يسبح مع أولاده الثلاثة جنباً إلى جنب على بعد خمسين متراً عن الشاطئ، وعلى أقل من مئة وخمسين متراً عن موقع التخيم.

أمّا المرأة فكانت داخل الخيمة تقرأ.

كانت سترة الرجل موضوعة على مقعد السيارة الخلفي وفي جيبها الداخلي محفظة فيها خمس مئة ألف لير، أوراقاً نقدية من فئة العشرة آلاف. أبواب السيارة كانت مغلقة أما الدوافذ فمفتوحة.

لم يقع نظر الرجل ولا الأولاد ولا الزوجة، على كائن من كان، بدءاً من الساعة الحادية عشرة وحتى الثانية عشرة والنصف، إن على مقربة من مخيمهم أو على مد النظر فوق الشاطئ كله.

إن البرزخ، بل ذاك الذي يطلقون عليه بالإيطالية اسم «ليدو»، شريط رملي تشكل على مر الزمان، من الطمي الذي تجرفه السيول الجبلية. ويصل امتداده إلى عدة كيلومترات بينما يتراوح عرضه، وفقاً للأماكن، ما بين مئة وخمسين وثلاث مئة متر. يتكوّم الرمل كثباناً بمحاذاة البحيرة وينبسط شاطئاً على البحر. ولا سبيل للوصول إليه إلا عبر مذنفين: الأول جسر فوق مصرف البحيرة عند أسفل الدار ذات الأعمدة، حيث يقيم دون سيزار، ويسلكه القادم من بورتومناكوري، والثاني في الطرف الآخر ويقوم عنده مركز للجمارك.

كانت شهادة رجال دون سيزار قاطعة: مذذ الفجر وحتى الظهر لم يعبر الجسر إلا اثنان من فلاحي كالا لونغا، قاما بقطع شيء من الخيزران في الأرض السبخة ولم يغيبا عن الأعين البتة.

أما رجال الجمارك فلم يتقدم إليهم من أحد طالباً الإنز بالعبور.

لم يصل السارق إذن إلى البرزخ عن طريق بري، إلا إذا كان قد اختبأ بين الكثبان من قبل بزوغ الفجر.

لقد قام المفوض بتفحص الأماكن. فوجد أن من يتخفى بين ثنايا الكثبان أو وراء شجيرات ندى البحر، يتمكن من الاقتراب بأمان ليصبح على بعد خمسين متراً من المخيم. لكن أتى للمرء أن يبلغ الكثبان دون أن يراه رجال دون سيزار؟ ذلك هو السؤال الذي ما انفك رجال الشرطة يتداولونه.

قال معاون المفوض:

- إني لأتساءل، على كل حال، عما كانت تلك السويسرية تقرأ... حتى لم ترَ ولم تسمع شيئاً... كانت تطالع قصصاً داعرة دون شك...
فعقب المفوض قائلاً:

- لكنّ السويسريات باردات.

- لو كنّ باردات حقاً لما قصدن بلاندا بحثاً عن الذكور.

فسأله المفوض باهتمام بالغ:

- وهل قامت هنا بمغامرة ما؟

أجاب المعاون:

- لا، فيما أعلم.

فقال المفوض:

- مثل هذه الأشياء لا تخفى عن أحد. فما إن يتعلّق الأمر بالإناث حتى يعجز رجالنا عن ضبط أسنّتهم...

سُمع طرق خفيف على الباب ودخل القاضي أليساندرو. كان هو الآخر منشغلاً بقضية السويسري. وقد حمل البريد الذي جرى توزيعه بعد الظهر، رسالة من النيابة العامة في لوتشيرا، تطالبه بـ «التعجيل» في استكمال التحقيق في الدعوى التي رفعها المصطاف ضد مجهول. فالقنصلية السويسرية في روما بذلت مساعي لدى وزارة الداخلية. علماً بأنّ السويسري عضو في مجلس إدارة شركة قامت بتوظيف مبالغ كبرى في صناعة الذفط الإيطالية...

أعرب المفوض عن دهشته قائلاً:

- رجلٌ من أصحاب رؤوس الأموال! وبدلاً من الذوم في فندق فخّم، تجده يلهو بالتخديم فوق كتيب مجاور لأرض سبخة موبوءة بالملاريا؟ إنها فكرة سويسرية حقاً...

فردّ القاضي بادي الاستياء:

- لو إنكم ألقيتم القبض على السارق، لما تعرضتُ أنا للوم النيابة العامة.
لقد ارتدى القاضي سترة صوفية قديمة قبل نزوله إلى مكتب المفوض.
كان يذرع المكان جيئة وذهاباً لامع العينين مرتعداً والعرق يتصبّب منه.
قال المفوض:

- على رسلك، يا صديقي العزيز، تفضل بالجلوس، أدوسل إليك.
أراح القاضي جسده فوق كنبة تقابل المكتب.
وانتقل المعاون إلى القاعة المجاورة تاركاً الباب مفتوحاً.
أشعل القاضي سيجارة. لكنّ الحمى تجعل للتبغ طعماً مرّاً. فسحق
السيجارة. قدّم المفوض عرضاً لمراحل التحقيق.
لم يأتِ المخبرون بشيء حتى الآن. ولم يُلاحظ إنفاق مبلغ غير عادي،
إنّ في مناكوري أو في المدن المجاورة. ولا حتى في بورتو ألباريزي أو
فوجيا، كما لم تدم أية شبهة حول دور المتعة أو محلات الصاغة.
- إنّها أول مرّة يصبح فيها نصف مليون لير قيد التداول في مناكوري
دون أن يلحظ أحد ذلك...

هتف القاضي ساخطاً:

- ما من احد يترك ثروة كهذه مرمية بإهمال فوق مقعد سيارة.
فقال المفوض:

- ذلك أدهم في سويسرا لا يسرقون.

فردّ القاضي بعنف ظاهر قائلاً:

- ذلك أنّ السويسريين يأكلون حتى الشبع.

فخفض المفوض صوته قائلاً:

- خذني بحلمك يا صديقي العزيز. فمعاوني يسمعك ولن يتوانى عن
القول إنّك اشتراكي.

فخفف القاضي من حدة صوته وهو يضيف:

- ألا ترى في ذلك استفزازاً؟ أليس استفزازاً إهمالاً نصف مليون لير على ذلك النحو، في بلد يعجّ بالعاطلين ويزخر بأناس يَضُورون جوعاً؟ لَكُمْ كان بودي إلقاء القبض على السويسري نفسه.
فردّ المفوض قائلاً:

- مهمتي أنا، إلقاء القبض على السارق، غير أن صديقك دون سيزار لا يسهل علي المهمة.

وعاد ثانية فعرض رأيه في القضية.

لم يتمكن السارق من أن يقترب من المخيم إلا متخفياً بين ثايا الكتبان. لا بأس، ولكن كيف تمّ وصوله إلي الكتبان؟ إما سيراً على الأقدام أو في مركب. لا بأس. لم يأت السارق سيراً على الأقدام وإلا لكان شوهد. لقد جاء إذن في مركب. إن من يستخدم أحد قوارب الأرض السبخة أو البحيرة يتمكن، إذا ما سلك كافة أشكال الممرات والمعابر بين القصب، من التسلل حتى الكتبان بعيداً عن الأنظار. لا بأس. لكن رجال دون سيزار وحدهم، دون سواهم، يعرفون أماكن المعابر بين القصب ولديهم القسم الأكبر من تلك القوارب. إذن، إما أن يكون السارق من داخل دار دون سيزار، أو أن له فيها أحد المتواطئين.

ذلك هو رأي المفوض في القضية.

والواقع أن دون سيزار لم يقبل إلا أن يحضر بنفسه عملية استجواب رجاله. استغرق ذلك نهراً بطوله، فكنت تراه جالساً بكلّ المهابة، على الكنب الضخمة التي مسندتها وظهرها من الخشب المحفور المذهب، في حين قعد المفوض ورجال الشرطة على أرائك خشبية. وحين يُقدّر دون سيزار أن أياً من رجاله قد أجاب بما فيه الكفاية، كان يقول له: «هيا، انصرف».

ويضجّ رجال الشرطة بالشكوى. إذ لا تزال لديهم أسئلة واستفسارات.

فيجيب دون سيزار باقتضاب:

- إنني أعرفه. لم يعد لديه ما يقول لكم.

ثم يقول للرجل: «انصرف».

كان من المستحيل استجواب النساء، فقد حظر عليهن الإجابة. قال:

- أنا الكفيل الضامن لبراءة النساء والفتيات في داري.

وفي اليوم التالي، حظر دون سيزار على المفوض دخول داره.

حاول رجال الشرطة جاهدتين متابعة التحقيق. فهم يقصدون إلى هذا أو ذاك من الأكواخ المبعثرة فوق الأرض السبخة. إلا أن الأكواخ كانت تخلو من ساكنيها لدى اقترابهم منها. وقد لا يقعون فيها إلا على عجوز شمطاء لم تعد ترى أو تسمع. «ماذا بوسعي أن أقول لكم يا سادة؟» وما كان لرجال الشرطة أن يغامروا بالتجول وسط الأرض السبخة. فكثيرة هي الأكواخ التي لا يمكن بلوغها إلا على ظهر قارب. وقوارب تلك البقاع أخف واسطة إحار. فهي تقوم على جميع ثلاثة دقوف الواحد منها إلى الآخر، وقعرها مسطح. وهي ضيقة وحروفها عالية ورقيقة إلى درجة تبدو معها غير قابلة للتوازن إلا بتأثير دفعها السريع لحظة الانطلاق، والمياه هناك لا عمق لها، فما إن تغمس يدك فيها حتى تلامس الطين، وهو وحل سحيق بلا قرار يلتهم ثم يبتلع ثم يطوي.

تلك البقعة السبخة مقطعة هنا وهناك بمعايير من الردم. ويشاهد فيها دون سيزار مائساً بخطى كبيرة وعلى ذراعه بندقية، يتبعه طونيو حاملاً الجعبة، بحثاً عن «طيور الحديد» التي ورد ذكرها في أسطورة ديوميد. وهي من الطيور الخاصة بالبحيرة والأرض السبخة. إنه يمرّ دون أن يتفوه بكلمة أو يلقي نظرة في اتجاهك. وعليك والحال هذه أن تقف متوازناً على حافة المعبر كي لا يلقي بك أرضاً لحظة مروره. أما طونيو فيسير على خطاه بسترته البيضاء المنشأة، صامتاً مثله أيضاً. إنهما يسيران دونما ضجة

بأحذيتهما المطاطية ويدواريان وراء القصب. ويُسمع فجأة صفقٌ أجنحة يتلوه
طلق ناري، يلي ذلك انزلاق قاربٍ بين القصب.

قال القاضي:

- علينا أن نفهم دون سيزار. لقد نشأ وسط التقاليد الإقطاعية وأصبح
الآن أكبر سناً من أن يتحرر منها.
فهتف المفوض قائلاً:

- تلك هي العادة دائماً، فحين يدور الحديث على هفوات أحد كبار
الملاك، يتطوّر أحد الاشتراكيين للدفاع عنه.
فهتف القاضي بدوره قائلاً:

- فنصايرٌ يمتلكاتهم، فنصايرٌها، على أن لا يكون ذلك لصالح الكهنة...
ثم انخرط الاثنان كعهدهما دائماً في نزاعٍ سياسي ونقاشٍ حاد.
فالمفوض ديمقراطي مسيحي.

دار طونيو على اللامبريتا دورة أخرى حول الساحة، متمهلاً.

تابعه العاطلون بأنظارهم. إن عيونهم في حركتها أشبه ما تكون بقرص
دوار الشمس، فهي عالقة باللامبريتا وتدور معها في الوقت نفسه حول
الساحة. تلك هي طريقتهم في النظر. فالزمن الطويل الذي أمضوه وقوفاً
بمحاذاة الجدران حول الساحة الكبرى أنساهم عادة تحريك رؤوسهم. فهم
يشخصون بأبصارهم، وأحداقهم تتحرك ببطء داخل محاجر الأعين، مثل
الميدوسات التي تبدو ساكنة بين المدّ والجزر في حين أنّها تقطع أشواطاً
بعيدة، ولا يغيب من شيء عن أنظارها.

لقد أنجز طونيو المهام التي كلّف بها دون سيزار كلّها. إنه يحمل في
جيبه مئتي لير، أخذها في غفلة عن عيني زوجته ماريّا. وهو يتساءل عمّ
عساه يفعل بهذا المبلغ. إن مئتي لير تمثل نصف أجر امرأة عاملة في اليوم
أو ثلث أجر الفاعل، أو ثمن نصف كأس من الويسكي في منهل نادي

الرياضة (ما من أحد هنا يشرب الويسكي حسب ما هو معروف، والزجاجة موضوعة هناك بانتظار اليوم الذي يلتهب فيه الحماس على شاطئ مناكوري، كما يقال). وتمثل مثلاً لير أيضاً ثمن مئتي غرام من زيت الزيتون أو ليترين من النبيذ أو دخلة واحدة إلى المبنى. لكن ليس في بورتو مناكوري من مبنى، ولا بد من دفع ست مئة لير أخرى أجرة باص للوصول إلى أقرب واحد في بورتو البانيزي.

ظلّ العاطلون يلاحقون طونيو بعيونهم دون أن يحركوا رؤوسهم. فقد يكون دون سيزار بحاجة لواحد من أجل تعشيب قنوات المياه في بساتين البرتقال والليمون. «إنّ طونيو لا يرمقنا ولو بنظرة واحدة. فهو يريد أن تطول متعته في أن يختار أحفنا، ومتعته مشروعة باعتبارها رجل دون سيزار المقرب. لو تذكر فقط أنّي لئن عمّ زوجه لما اختار سواي. لكن قد يكون دون سيزار بحاجة لمعاون من أجل صياحيه؟ عندها سأذهب واستدعي الولد من البيت». إلا أنّ طونيو تابع دورانه حول الساحة لمجرد الاستمتاع بالظهور على صهوة اللامبريتا. وظلّ يسأل عمّ عساه يفعل بالمئتي لير في جيبه.

أخذت الشمس تتحدر لتتوارى وراء الجزر، وأقبلت بنت موثق العقود وبنت المحامي سلغادو وبنت دون أوتافيو، قادمات من شارع غاريبالدي. وبقدومهن تفتتح هذه النزهة اليومية، الباسيجياتا، وتكتمل بالدوران حول الساحة وفق عقارب الساعة. إنهن يلبسن أثواباً من الشيت، من اللون الزمردي والليموني والوردي.

ينتفخ الثوب بسبب الشلحة التي يلبسها تحته وهي ذات ثلاثة أدوار من الكشاكش.

وحين تجد إحداهن الفرصة ملائمة، تنتهزها لتسبق أترابها ببضع خطى، ثم تستدير فجأة، فيستجيب الثوب لقانون القوة النابذة وينتفخ مثل الكأس، لينكشف من تحته تخريم أدوار الكشاكش الثلاثة البيضاء. لقد اشترين هذه الثياب لدى أشهر خياطة في فوجيا وهي تأتي بأزيائها من روما. إنّ دون أوتافيو هو الذي يملك، بعد دون سيزار، أكبر مساحة من الأراضي في بورتو مناكوري.

ولا يتعذر على ابنة موثق العقود أو ابنة المحامي سلغادو أن تتفقاً على زينتهما وهندامهما ما تتفق ابنة دون أوتافيو، فوالد كل منهما يملك أرضاً. صحيح أنها أصغر مساحة، لكنّ كلاً منهما يستطيع عدد الضرورة أن يعيش من موارد أرضه. ولئن كانا يمارسان مهنة حرّة، فما ذلك إلا بدافع الحيلة والحدّر. فقد تحدّث موسوليني أيام دراستهما الجامعية، عن مسألة تقسيم الأراضي الزراعية، ويضع الديمقراطيون المسيحيون قضية الإصلاح الزراعي ضمن برنامج حزبهم. فتبقى المهنة الحرّة والحالة هذه ضماناً في وجه المضلّين.

أقبلت بنات المصطافين وأبنائهم للانضمام إلى الباسيجياتا. إنّ هؤلاء روماويون⁽¹⁾. وهم من أبناء المناكوريين الذين هاجروا إلى العاصمة وشغلوا فيها وظائف في الإدارات العامة. ترتدي الفتيات البنطال وقميصاً قطنياً فوقه يشبه هندام البحارة، ويعقد الثبان حول أعناقهم مناديل صارخة الألوان، وهذا الزيّ الذي شاهدوه في مجلة «أوجي» هو السائد على شاطئ سان تروبيه.

من ثمّ يأتي دور أبناء المدينة القديمة، فيتدفّق هؤلاء من الأزقة النازلة بانحدار شديد من دير القديسة أورسولا، بنت مدينة أوريا، ومن المعابر والأدراج الصاعدة من المرفأ حتى مداخل قصر فريديريك الثاني دوسواب. ترتدي الفتيات في غالبية العظمى أثواباً من الشيت تولّين خياطتهما بأنفسهنّ في البيوت. ذلك أنّ نماذج التفصيل التي تنشرها مجلات الأزياء الرخيصة أتاحنّ لمهنّ مسائرة الدُرْجة السائدة في هذه السنة. والواقع أنّ شعب مناكوري ذو ذوق رفيع، يسري في دمه حب الأناقة. حسبنا أن نعرف أنّ بورتو مناكوري كانت مدينة في القرن السادس قبل الميلاد.

تمشي بنات المدينة القديمة بصمتٍ وتمهل، مجموعاتٍ من ثلاث أو أربع متشابكات الأذرع. ويمضي الثبان الهويناً أيضاً في مجموعات، فلا يتبادلون الحديث إلا حين يتوقفون، ودون أن يرتفع لهم صوت. أمّا العاطلون

(1) نسبة إلى روما.

فهم بمحاذاة الجدران يتابعون الفتيات بعيونهم من غير أن يحركوا رؤوسهم.
فيما يتفرّد الروماويون بالكلام بأصوات عالية والضحك ضحكاً صاخباً.

أخيراً يأتي المراهقون، ويسمونهم «الواليوني». فهؤلاء الفتيان الذين بلغوا السنّ الحرجة، يحومون بحثاً عن غنيمة ما، سرقة أو تشللاً، بين العمال المنهمكين بتعليق المصابيح الكهربائية، على أغصان صنوبرة الملك موراء، من أجل الحفل الذي سيقام هذا المساء. ويُشاهد زعيمهم بيبو وساعده الأيمن بالبو متكئين على حاجز الرصيف باسترخاء، يضعان خطة تعود عليهما بالفائدة، بسبب المهرج والمرج اللذين سيسودان أثناء الحفل.

واصل طونيو دروانه حول الساحة على اللامبريتا متسائلاً عمّ عساه يفعل بالمتني لير في جيبه. فبعد قليل يجتاح جمهـورُ الباسيجياتا الساحة بأكملها. وعندها يمنع عناصر شرطة البلدية سير الآليات، فيضطر طونيو لإيقاف اللامبريتا. إنّ رؤية ذلك العدد الكبير من الفتيات زاده رغبة في امرأة لا يكون بطنها منتفخاً مثل ماريا. وفكر في ضرورة الاحتفاظ بالمتني لير حتى يتمكن من مضاعفتها، وإذا ما سمح له دون سيزار باستخدام اللامبريتا ثانية، فيسعه الذهاب حينئذ إلى مبعي بورتو البانيزي. وإذا ما أضفنا إلى المتني لير، وهي نصيب المرأة، ثمن البنزين والنفقات الجانبية الصغيرة (لا يسعه أن يتوانى عن تقديم سيجارة للبعي، وهو ملزم أدبياً بإعطاء عشرين ليراً على الأقل للقوادة الجالسة لدى الباب) فإنه بأربع مئة لير سيحقق كل ما يتمنى وأكثر. عقله إذن يأمره ألا يبدّد المتني لير هذا المساء أو يفرط بها. بيد أنه قدّم إلى مناكوري منطياً صهوة اللامبريتا ولا يسعه الرجوع إلى السبخة دون القيام بعمل استثنائي. ينبغي أن ينتهي النهار بشيء من الترف.

وتبقى المشاركة في لعبة «القانون» حلاً موفقاً وسعيداً. صحيح أنّ الوقت مبكر الآن، لكن لا يُستبعد أن يكون أحد الأشخاص قد بدأ في حانة ما من المدينة القديمة، وبوسع أنطونيو، إذا ما حالفه الحظ، أن يشرب ما طاب له من

النبيذ دون أن يتكثف ليراً واحداً. قليل من الحظ فقط ويصبح معلماً أو وكيل معلّم حسب «القانون».

يعتقد طونيو أنّ المشاركة في لعبة «القانون» لا يقلّ متعة عن مضاجعة امرأة ليس لها في ذلك من رغبة، لكن لك حقوق عليها. فيجدر به والحال هذه أن يجازف بالمتني لير.

بعد قليل تشير الساعة إلى السابعة. ويشير ميزان الحرارة على باب الصيدلي في شارع غارibaldi إلى ٣٤ درجة مئوية في الظل. ونسيم البحر لما يأتي. ثم يأتي نسيم البحر هذا العام البتة.

فصل الصيف هذا، هو فصل الرياح الأرضية، رياح اليابسة. فتزار السيروكو يهب من صقلية والليبيشيرو من نابولي. والكل يعرف أنّهما يهبان لكن ما من أحد يُحسّ بهبوبهما، لأنّهما ينفحان، ومن الوراء فقط، تلك القمم الصخرية التي تشرف على بورتو مأكوري وعلى البحيرة والأرض السبخة.

فالسيروكو يتحوّل نحو الشرق والليبيشيرو نحو الغرب، ويقومان بالالتفاف حول الخليج، واحد من الشرق والآخر من الغرب مثل ذراعين وأقنيتين. ومن ثمّ يلتقيان في عرض البحر مثلما تلتقي اليدان في طرف الذراعين بعد تطويق الشيء المراد حمايته. مرّت شهور والسيروكو والليبيشيرو في حالة عراك فوق البحر على مرأى من بورتو مأكوري. ينشأ الليبيشيرو في المغرب ويأتي محملاً بالغيوم لمروره فوق البحر المتوسط. أمّا السيروكو فينشأ في تونس وينتقل منها قفزة واحدة إلى صقلية فيظلّ جافاً. مهمة السيروكو إذن أن يُبقي في عرض البحر كلّ الغيوم التي يدفع بها الليبيشيرو أمامه وهو مقبل. وعندما يتغلب السيروكو على الليبيشيرو، فإنّ حزم الغيوم تتراجع متقهقرة صوب الغرب، أمّا حين يحرز الليبيشيرو الغلبة على السيروكو فإنّ السحب تتقدّم لتغطي الأفق بأكمله. ثم يبدأ الليبيشيرو في هذا العام، من نهاية الربيع وحتى الآن، على درجة من القوة تمكنه من دفع الغيوم حتى بورتو مأكوري. وتابع العاطلون عن العمل يوماً بعد يوم، وهم وقوف

بمحاذاة الجدران حول الساحة الكبرى، ذلك الصراع الدائر في عرض البحر بكل مراحلته. والواقع أنه لم تلامس وجه مناكوري نسمة واحدة، كأن المتصارعين فوق البحر قد امتصا هواء الخليج بأكمله. وكأن المسافة الواقعة بين القمم الصخرية والبحر قد تحولت إلى فراغ جوي أو جيب هوائي، أو كما يحدث في كؤوس الهواء. ولو نظر المرء من أعلى دير القديسة أورسولا بنت أوربا، الواقع على قمة المدينة القديمة، عبر منظر مقرب، لشاهد فوق البحر رؤوس الحراب الكبيرة التي يترشق بها السيروكو والليبيشيرو. لكن البحر في خليج بورتو مناكوري ظل ساكناً دون حراك. فالحراب المضادة تتبذد فوق الرمال، أما جانب البحر المحاذي للنشاط فيظل راکداً كالمستقع، وإذا ما نفذت حربة مضادة، بشكل خارق للعادة وتخطت كل الحواجز فإنها تحدث انتفاخاً بطيئاً تحت سطح الماء، كانتفاخ الرصاص في البوتقة لدى انصهاره، لكنه انتفاخ مثل تورم بسيط ما يلبث أن يأتي ليتلاشى على السطح بهدوء.

أوقف طونيو اللامبريتا إلى جانب السطيحة التي تشرف على المرفأ والخليج، ثم سلك أركة المدينة القديمة بحثاً عن حانة تدور فيها لعبة «القانون». جلست أنا زوجة المفوض قرب النافذة في طابق السراي الثالث وأخذت ترأقب الباسيجياتا، فبنات الأعيان في بورتو مناكوري يشاركن في الباسيجياتا اليومية بينما نساؤهم يلزمن البيوت. أما في المدن الداخلية الصغيرة فيقتصر الأمر على الشبان فقط، وترى السيدة أنا أن بورتو مناكوري أكثر تقدماً من مدن الداخل، إلا أنها أقل تقدماً من لوتشيرا، ولم يسعها الحظ بالزواج إلا من موظف جرى تعيينه في بورتو مناكوري. «هكذا تقتضي سنة الحياة». ذلك ما كان يدور في خلدنا.

نفنت السيدة أنا بنظرها بعيداً، حتى ما واء الساحة الكبرى والمرفأ حيث ترسو بضع زوارق للصيد. فقبل الحرب، كانت لبورتو مناكوري تجارة مع الساحل الألباسي، وكانت المراكب تأتي محملة بالأخشاب، ثم تبحر محملة بالبرنقال والليمون، وبعدها جاءت القطيعة بين الحكومتين الإيطالية

واليوغسلافية، فكفت المراكب عن الرسو في المرفأ، وأخذ الرمل يعلو عاماً بعد عام على طول المكسر.

حدثت أنا في السفينة المبحرة التي توقفت على بضع مئات الأمتار من المرسى، وانفصل عنها زورق يحمل عدداً من الأجانب، قدموا بعد الظهر، وهدفهم الوصول إلى الجُزر لممارسة هواية الصيد تحت الماء. ولسوف تتوقف الباخرة غداً وقت الضحى، وهي في طرق العودة، لتحميلهم نحو مرفأ انطلاقها في بورطو البانيزي. وهذه الأخيرة مدينة تشبه بورطو مناكوري كل الشبه مع فارق وحيد فقط هو وجود مدغى فيها، لا يكف الرجال عن ذكره والإفاضة في التحدث عنه. أما الجزر فهي مرتفعات صخرية ثلاثة يقيم فيها قرابة مئة من الصيادين الذين يؤجرون مساكنهم صيفاً للأجانب القادمين لممارسة الصيد تحت الماء، أما هم فينامون طول هذه الشهور في الإصطبل مع الحمار. ورأت أنا أن السفينة نفسها تتحرك أيضاً على طريق مسدود.

اتخذت دونا نوكريزيا، زوجة القاضي أليساندرو، مجلساً لها وراء نافذتها المشفوفة قليلاً، في الطابق الأخير من السراي، فوق غرفة أنا زوجة المفوض. إن شعرها الغزير مرفوع الآن وملفوف كعتيكة منتظمة فوق رأسها، وهي ترتدي ثوباً عالي الياقة طويل الأكمام كعانتها دائماً، وينتفخ الثوب عند صدرها. إنها جالسة تراقب فرانثيسكو بريغانتني، طالب الحقوق الذي جلس لدوّه على رصيف المقهى التابع لنادي الرياضة المواجه للسراي، تحت سطح البريد. وتردد بصوت خافت وهي تنظر إليه: «أحبه، أحبه».

اختار فرانثيسكو بريغانتني أن يجلس إلى طاولة تمكّنه من النظر إلى مصراعي النافذة المشفوفين في طابق السراي الرابع، دون أن يتمكن باقي الزبائن من تمييز الوجهة التي ينظر إليها، وكان يتمم في قلبه: «أحبها، أحبها».

وطول أصيل ذلك اليوم تغلب السيروكو ببطء على الليبيشيو حتى أن الغيوم وراء الجزر لم تعد إلا هُلباً تلتهب بأشعة الشمس الغاربة.

واصل القاضي أليساندرو والمفوض أنيليو نقاشهما بصوت معتدل في مكتب المفوض.

طرقت أسماعهما، عبر الباب المفتوح، جلبة أناس، نساءً ورجالاً، أموا مكتب معاون في القاعة المجاورة طلباً لوثائق رسمية، إذ لا بد للمرء في سبيل الحصول على جواز سفر من أن يجمع ما بين عشرٍ وخمس عشرة منها.

أدى ذلك إلى ظهور مكاتب اختصاصية، ازدهرت بسرعة في المدن الكبرى، تتولى مهمة استخراج الوثائق المطلوبة كلها. وترى العاطلين حول الساحة الكبرى يتحسسون من وقت لآخر جيوبهم ليطمئنوا إلى أنهم لم يفقدوا وثائقهم: بطاقة هوية، دفتر البطالة، دفتر الخدمة العسكرية، شهادات المخدمين أو أرباب العمل وغيرها وغيرها، وكلها وسخة ودرنة، ممزقة عند ثياياها، مكسرة على زواياها، لكنها ثمينة إلى الحد الأقصى. فالذي يفقد وثائقه يصبح بلا حقوق وبلا وجود شرعي: يصير باطلاً.

بعد أن انخرط المفوض في مجادلات سياسية على غير قناعة حقيقية بها، تحول بالحديث نحو الشغل الشاغل الأكبر له، ولكل موظف إيطالي في الجنوب، ألا وهو الانتقال إلى مدينة في الشمال. إنه ينتظر ذلك دون جدوى. أمّا القاضي أليساندرو، فهو دونما شك، رجل القضاء الوحيد في مقاطعة فوجيا الذي لم يطلب نقله البتة. فالإجلال الذي يُكَنَّى للإمبراطور فريديريك الثانيي دوسواب كان يشده إلى هذه المنطقة بأواصر قوية.

لاحت بارقة أمل جديدة أمام المفوض، إذ تعرّفت زوجته مؤخراً على فتاة روماوية على الشاطئ، هي صديقة حميمة لابنة شقيق أحد الكرادلة.

كان القاضي ما يزال يرتعد في سترته الصوفية، وقد قاطع المفوض قائلاً:

- ليس هذا أيضاً بالسبيل المأمون، فعدد بنات إخوة الكرادلة في إيطاليا كبير جداً ويكاد يضاهي عدد العاطلين...

في تلك اللحظة ظهر المعاون لدى الباب قائلاً:
- إنه البناء ماريو من جديد، ويلج طائلاً مقابلتك.

قال المفوض:

- لا وقت لدي.

فارتفع صوت قوي من القاعة المجاورة صائحاً:

- ها قد مضى عامان وأنا أنتظر، إنني أطالب بجواز سفري، هذا حقي.

فصاح المفوض:

- تعال إلى هنا.

دخل الرجل، طويلاً قوي البنية، بينطال عتيق وحذاء سميك. وبدأ
قميصه مهترئاً عند ياقته وكنيته.

قال المفوض للقاضي:

- أستمحك عذراً يا صديقي العزيز، سأجذب انتباهك نحو هذا الرجل،
فهو صاحب حق، وفي بلد ديمقراطي، صاحب الحق سلطان.

لم يجب القاضي بل أشعل سيجارته وسحب منها نفساً فظهرت على
وجهه علائم التقرُّر فأطفأها.

تقدّم الرجل. كان يحمل قبعته بيده، ثم بقي واقفاً أمام مكتب المفوض.
فسأله المفوض:

- ماذا استجد؟

- بعد أسبوع يكون قد انقضى عامان على طلبي جواز سفر إلى
فرنسا. تقدّمت بالأوراق الثبوتية كلها بما فيها شهادة مخدّمي هنالك.

- وماذا بعد؟

- لم أستلم الجواز حتى الآن.

- وما بوسعي أن أفعل؟

- الدستور الإيطالي يمنح كل مواطن حق السفر إلى الخارج بحرية.
- أنت تعرف الدستور جيداً.
- أجل، سيدي المفوض.
- أنت غير محكوم أبداً؟
- حُكِم عليّ بالسجن خمسة عشر يوماً لمشاركتي في احتلال الأراضي البور لبور لدون أوتافيو في ١٥ آذار ١٩٤٩.
- كنت أنت المحرّض.
- الواقع أنني شجعت العاطلين على الإقامة في الأراضي البور، واعترفت بذلك أمام المحكمة. لكنّ الحكم شمله العفو، وهو غير مدوّن في خلاصة السجل العدلي المرفقة بطلب الجواز. لديّ إذن كلّ الحق في الحصول على جواز سفر.
- لا ريب في أنّ لقسم الشرطة رأياً مغايراً.
- إنّي عاطل عن العمل، وقد وجدت عملاً في فرنسا، إنّي أطالب بحقي.
- طالب القسم بحقك، فهو الذي يقرّر.
- لكنّ القسم أحالني إليكم.
- فقال المفوض:
- هنالك من يعرف تدبّر أموره خيراً منك.
- لم أفهم قصدك.
- هل تتذكّر بييترو، نجار الإسمنت المسلّح؟
- كلا.
- يقولون: «كلاً، سيدي المفوض».
- كلا، سيدي المفوض.
- أنا أعتقد أنّك تتذكره.

- كلا، سيدي المفوض.
- يبييترو كان أحمر مثلك.
- لا أعرف سيدي المفوض.
- أمّا أنا فأعرف، أعرفه لأنه أتى إلى هنا ومعه بطاقة حزبه، بطاقة حزبك، فمزقها أمامي.
- لا أعرف، سيدي المفوض.
- لقد منحه القسم جواز سفر.
- فقال الرجل:
- أريد حقّي.
- فالتفت المفوض إلى القاضي وقال:
- أنت ترى، يا صديقي العزيز، كيف لا تُجدي محاولة نأدية الخدمة للناس؟
- كان القاضي يعبث بالنسجاة المطفأة. فلم يرد.
- قال الرجل:
- سوف أوكّل محامياً.
- أنصحك بتوكيل محام قدير.
- لن أوكّل محامياً من بورتو مناكوري.
- وابتسم المفوض، فقد كان على علاقة سيئة بالمحاميين الاثنين المقيمين في بورتو مناكوري.
- ثم قال:
- أتمنى لك حظاً سعيداً.
- ظلّ الرجل واقفاً بلا حراك.
- لم يعد لديّ ما أقول لك.

تقدّم المعاون فوضع يده على كتف الرجل ليسحبه إلى القاعة المجاورة
فاستجاب الرجل ببطء، ومشى معه.

فأخذ المعاون يوبّخه قائلاً:

- أيها العبي، إنهم يلتقونك ما ينبغي أن تفعل، وأنت رأسك مثل رأس
البغل، فلا تفقه في مصلحتك شيئاً...

ودخلا القاعة المجاورة.

قال القاضي:

- أنت لا تحترم القانون.

فارتدّ المفوض بكتبته إلى الوراء وقال:

- رويدك يا صديقي...

فقاطعه القاضي قائلاً:

- إذا كان المكثفون بفرض احترام القانون، إذا كان هؤلاء على
وجه التحديد...

فنهض المفوض وهول على رؤوس أصابعه فأغلق الباب، ثم استدار
نحو القاضي واضعاً إصبعه على شفّته التزاماً بالصمت، ثم رفع ذراعيه نحو
السماء وقام بحركة العاجز عن تحقيق شيء. ثم أغرق في الضحك. قال:

- إنّ المرء يقول، يا صديقي العزيز، إنك قد آليت على نفسك أن
تمضي حياتك الوظيفية كلّها في بورتو مناكوري.

قال القاضي:

- ولم لا؟

- لأنّ المرحوم فريديريك الثاني دوسواب لن يساهم في ترقية
درجة واحدة.

فقال القاضي:

- هذا الرجل الذي تمنعه من السفر إلى الخارج طلباً للرزق، لديه أطفال يموتون جوعاً.

فقال المفوض نحو القاضي وأمسك به من كتفيه وقال:

- ونحن، يا قاضي، ونحن، ألا ترى أننا نموت داخل هذه المدينة التي لم يتمكن أحد قط من النجاة منها بنفسه؟

* * *

قُبِلَ طونيو، رجل دون سيزار المقرّب، سادساً في الشوط الذي بدأ لتوّه بمبادرة من ماتيُو بريغانتِي، في واحدة من حانات المدينة القديمة. «القانون» يمكن أن تلعب بخمسة لاعبين أو ستة أو سبعة وحتى أكثر. لكن ستة لاعبين يُعتبر عدداً جيداً.

يتولّى ماتيُو بريغانتِي مراقبة كل شيء في بورتومناكوري، بما في ذلك لعبة «القانون». لقد كان فيما مضى عريقاً بحرياً في سلاح البحرية الملكي. وما إن عاد إلى مسقط رأسه بعد الهزيمة عام ١٩٤٥ حتى فرض نفسه مراقباً. ولئن كان على أبواب الخمسين فإنه ما يزال محافظاً على مظهره العام عريقاً بحرياً، يتوقع الكل، في أية لحظة، رؤيته يمد يده فجأة ليرفع صفارة التدريب إلى فمه. إن فمه رقيق وشفتيه مزمومتان دوماً تحت شارب ضيق، أسود وقاس، حتى حين يضحك. وهو مع مراقبته لكل شاردة وواردة، ومع عدم تأنيته لأي عمل، لم يتعرض يوماً لإدانة في المحاكم، إلا قبل الحرب، حين طعن غلاماً قام بهتك عرض إحدى شقيقاته. لكن تلك الجريمة مفخرة يعتز بها، إنها إحدى «جرائم الشرف» التي تلقى من محاكم الجنوب كل التساهل. فهو يراقب الصيادين بالقوارب والصيادين على الترابوكو والصيادين بالديناميت. إنه يراقب بائعي الليمون ومشتري الليمون وسارقي الليمون. يراقب الذين يتعرضون للسرقة في معاصر الزيتون، ويراقب الذين يسرقونهم. يراقب المهربين الذين يتوجهون إلى عرض البحر فيوقفون زوارقهم بمحاذاة الأخوات المحمّلة بالسجائر الأميركية، ويراقب رجال الجمارك الذين يروحون ويغدون في زوارقهم البخارية بمحاذاة الشاطئ،

فيضيؤون فجأة أدوار مصابيحهم القوية المبهرة التي تكشف عن كل الخبايا، أو لا يضيؤونها مطلقاً، إذا ما ساومهم بريغانتني من قبل حول ما يطلبون لقاء غض النظر. وهو يراقب الذين يمارسون الحب والذين لا يمارسونه والأزواج المخدوعين والذين يجعلون منهم أزواجاً مخدوعين، ويقدم معلومات للتدويع ومعلومات للشرطة فيمكن على تلك النحو من مراقبة اللصوص ومراقبة الشرطة. فيدفعون له أجراً من أجل أن يراقب كما يدفعون له من أجل ألا يراقب. وهكذا يجبي ضرائبه من كل صفقة تجارية أو غير تجارية تُعقد فوق أرض بورغو مناكوري والنواحي المجاورة. ثم ازدادت أعباء ماثيو بريغانتني في المراقبة فرأى لزماً عليه أن يوظف عنده بيزاشيو، أجير الفران، فوضعه في خدمته مراقباً من المرتبة الثانية.

في هذا المساء ارتأى المبتز بريغانتني أن يدعو وكيله قبل الذهاب لمراقبة الحفل الذي تقيمه البلدية للمصطافين، إلى لعب مباراة في «القانون». وكلمة بيزاشيو ليست اسماً، بل هي لقب أُطلق على الرجل حيث كان يعمل أجير فران، واللقب مشتق من أكلة البيزا المعروفة، ومحرّف حتى صار يعني «البيزا الرديئة» أو «فطيرة البيزا النتنة». كذلك كانت الحال في عهد فلورنسا البطولية، فكان لورانزاشيو اسم الانتقال من لورانزو.

أمّا شركاء طونيو الآخرون فهم الأميركي، وهو مغترب سابق في غواتيمالا، عاد ليمضي باقي أيامه فوق أرض الوطن حيث ابتاع بستان زيتون صغيراً. والأسترالي، وهو أيضاً مغترب عائد، لديه شاحنة صغيرة لنقل السمك والفواكه. وأخيراً دون روجيرو، ابن دون أوتافيو، وهو طائب حقوق في جامعة نابولي، يفضل أثناء العطلة الصيفية ملاحقة نساء الفلاحين الذين يعملون في أراضي والده، واحتساء النبيذ في الحانات، بدلاً من مغازلة بنات أعيان مناكوري اللواتي يرى أنهن حمقات.

لم يكن طونيو، بالمتني لير التي اختلسها في غفلة عن عيني زوجته ماريّا، على مستوى شركائه في اللعب. لكن يسعه الصمود لبعض الوقت. والواقع أن الرهان قد حُدد لكل جولة بلتر من نبيذ أندريا الأحمر عيار ١٤

درجة، وسعره مئة وعشرون ليراً. ولكل ستة لاعبين أربعة خاسرون. وبقسمة مئة وعشرين على أربعة ينتج ثلاثون. وبقسمة مئتين على ثلاثين ينتج ستة ويبقى عشرون. وعليه فإن طونيو يستطيع بالمتى لير أن يغامر بحظه ست مرات، بل سبعة لأن الساقى يمكن أن يقرضه عشرة لير. والواقع أن أهمية لعبة القانون ليست في المال الذي يقامر به اللاعب ولا في النبيذ الذي يشربه، لكن في قانون اللعبة ذاته، فهو مثير كالعنق حين يطبق عليك وعذب سائغ وأنت تطبقه على سواك.

تنتشر لعبة «القانون» في أرجاء جنوب إيطاليا كلها. وهي تُقسم إلى مرحلتين. المرحلة الأولى هدفها اختيار فائز واحد يسمونه «بدروني» أي المعلم، وهي تدفد بأسرع ما يمكن، ويتم الاختيار عن طريق الورق أو حجر الترد. أما في ذلك المساء فقد فضلتوا استنطاق الحظ عن طريق ورق التاروت^(١).

وكان أن كسب بيزاشيو أول دورة لورق التاروت، وتم على هذا الأساس تعيينه معلماً.

أحضر الساقى قلة صغيرة من النبيذ وضعها قرب بيزاشيو. فأقبل عدد من الرجال كانوا يحتسون الكؤوس من المنهل فتحلقوا حول المائدة والتزموا الصمت جميعاً.

تبدأ المرحلة الثانية من لعبة «القانون» إثر اختيار المعلم مباشرة. وتتكون من حركتين، إذ يقوم المعلم أولاً باختيار الـ «سوتوبدروني» أي وكيل المعلم.

تنقل بيزاشيو بين اللاعبين الخمسة الآخرين على التوالي متفرساً في وجه كل منهم على حدة، فيعود إلى هذا ثم ينتقل إلى ذاك متصنعاً الارتباك مطيلاً الانتظار، تلك أنه يعرف «القانون» حق المعرفة.

قال الساقى:

(١) تاروت: ورق لعب أطول من الورق العادي يحمل صوراً مختلفة وعدده ٧٨ ورقة. (المترجم).

- هيا بنا، فطبختك قد نضجت.

فأجاب بيزاشيو:

- ليس بعد، لما تتضج تماماً.

قال ذلك وهو يحدق في وجه طونيو.

ثم افتتح اللعب قائلاً:

- طونيو له ابنة حم جميلة...

تحوّلت الأنظار كلّها نحو طونيو الذي بقي ساكناً، غاض الطرف، باسطاً كفيه فوق المائدة. إنّ الرابح، أيّ المعلم، يسنّ القانون، فله الصلاحية المطلقة في أن يقول أو لا يقول، في أن يستجوب وأن يجيب نيابة عن المستجوب، في أن يمتدح وأن يذمّ، وله الحق في أن يغتاب وأن يشتم وأن يعرض وأن يفترى وأن يمسّ العرض. أمّا الخاسرون الذين يطالهم القانون، فمن واجبهم الرضوخ مع التزام الصمت والسكون. تلك هي القاعدة الأساسية في لعبة «القانون».

وأردف بيزاشيو قائلاً:

- من المفيد للمرء أن يختار وكيلًا، له ابنة حم جميلة، ولو أنّي عيّنت طونيو وكيل معلم لكان من المحتمل أن يُعيرني مارييت...

ظنّت الأنظار مسنّطة على طونيو، فقد كان معروفًا لدى الجميع أنّه يحوم حول مارييت التي ليس لها فيه من رغبة. إنّ العزلة الزائفة التي يعيشها الناس في مناكوري، وفي السبخة بشكل خاص، هي السبب في أنّ عيون الرجال في العائلة تكون دوماً بالمرصاد، حتّى ليوشك الاستحواذ على النساء داخل الأسرة الواحدة، أختاً كانت أم أخت زوجة أم زوجة أخ أم ابنة، أن يذهب بعقولهم. رمى بيزاشيو إذن فأصاب الهدف، والإصغاء إليه وهو جالس يلعب «القانون» متعة ما بعدها متعة. وبقي طونيو ساكناً صامتاً في سترته البيضاء المنشأة حديثاً. فمرحى له أيضاً.

استأنف بيزاشيو قائلاً بهدوء:

- إن كنتُ راعباً في امتلاك مارييت فالأجدر بي أن أتوجّه بالطلب إلى ماتيُو بريغانتي. هكذا يفكر الإنسان الحصيف...

ما من أحد يجهل أن ماتيُو بريغانتي كان يحوم بدوره حول مارييت، وأنه غالباً ما يتوجّه إلى الدار ذات الأعمدة، وأن الفتاة تردّ بضحكاتٍ استغزازية على التورية الدائمة في كلامه. وكلما رآه طونيُو فوق جسر مصرف البحيرة متوجّهاً بخطوته الواثقة نحو دارة دون سيزار، اكفهر وجهه وآثر عدم الردّ على تحيته مع أنّه يخشاه. فبريغانتي يحب الأبقار. لذا كان الخاطبون والعاشقون والأخوة والآباء يتردّدون في التصدي لذلك المبتزّ. علماً بأنّ دافع الثأر للعرض يمكن أن يؤدي إلى الجنون. لذا يحمل بريغانتي سكينه على الدوام، وهو سلاح مرهوب الجانب ومشحوذ كشريرة الحلاقة، وليس بخنجر بل موسى تُستخدم للطعيم وتُعتبر بالإضافة إلى حملها المشروع، أداة العمل الأكثر استخداماً وشيوعاً في بلد معظم سكانه من البساتنة. إنّها سلاح خطر، ويتمائى مع القانون، مثل بريغانتي نفسه، فهو أكبر مراوغ في التخالف بالسكين. ولا يجرؤ طونيُو أبداً على التفكير في مجابهة مكشوفة معه. والكل يعرف ذلك حق المعرفة، لذا بقيت العيون شاخصة إلى طونيُو.

وسأل بيزاشيو ماتيُو بريغانتي قائلاً:

- هل تعيرني مارييت؟

- بعد أن أكون قد مهّنت الطريق.

- سيصبح الدرب أكثر سهولة ويسراً، لقد عيّنتك وكيل معزم.

علت بين الجمهور هممة موافقة وثاء، فالجولة بدأت بداية حسنة، قاطعة وحاسمة، وخالية من العثرات.

وهذا طونيُو ساكن لا يطرف له جفن. فمرحى له أيضاً.

دفع الخاسرون الثمن. أعطى كل من الأميركي والأسترالي ودون روجير وطونيُو ثلاثين ليراً للساقى.

مدّ بيزاشيو يده، بوصفه معلّم الجولة الأولى، فملاً كأسه نبيذاً ورفعها إلى شفّتيه، وبدأت على هذا النحو، حسب مقتضى القواعد، الحركة الثانية من المرحلة الثانية للعبة «القانون». وهتف بنشوة:

- هذا النبيذ يليق بالملوك، خذ، تذوّق يا وكيل المعلم.

كان من الطرافة اللاذعة سماعُ بيزاشيو يخاطب ماتيو بريغانتى من عل، فهذا الانقلاب بالمناصب والمراتب ليس إلا صدئ لما كان يحدث أيام أعياد زحل^(١) في روما القديمة، ومن شأنه زيادة عنصر الإثارة في لعبة «القانون». ملاً بريغانتى كأسه فتذوّقه ثم قال:

- من يسمح للخنازير بارتشاف مثل هذا النبيذ يرتكب خطيئة مميتة.
فقال بيزاشيو:

- افعل ما تراه مناسباً، فأنت وكيل المعلم.
حينئذ أفرغ بريغانتى كأسه دفعة واحدة، وتمهّل قليلاً ثم قال:
- سأشرب كأساً أخرى.
فقال بيزاشيو:

(١) كانت أعياد زحل تُقام بكل أبهة وعظمة في روما. وتُدوم سبعة أيام تتوافق والانتقال الشتوي، من ١٧ حتى ٢٣ كانون الأول. وتشكّل تلك الأعياد هدنة حقيقية في كافة ميادين النشاط العام والخاص. وتشكّل كذلك قطيعة تامة مع كافة مظاهر العادات والتقاليد السائدة في الأحوال العادية: يتمّ من اليوم الأول التّبول بالخدم والعبيد للمشاركة في احتفالات تقديم أضاحي الافتتاح، على قدم المساواة مع أسيادهم ومع الناس الأحرار... ويتوقّف التمييز بين الطبقات طول ستة أيام. بل المألوف أن يتولى السيد بنفسه خدمة عبيده الجالسين مذكّنين إلى المواعيد. وتسود المدينة حرية مطلقة، ناهيك بإباحية قصوى. ويغدو الهمّ الأوحد للمواطنين، إقامة الولائم والاحتفالات وتبادل الهدايا. ولا يمكن في تلك الفترة عقد أية صفقة أو تسيير أي شأن. وتمكّن الهدنة لتطال المقدّلاتين. وتطلق المحاكم أعمالها.

وتمثّل أعياد زحل، في نهاية المطاف عودة الى حال المشاعية التي يُفترض أنها كانت سائدة قبل التراتبات الاجتماعية. ويرجع المجتمع البشري سنوياً ليغرق في فوضى البدايات المفرطة في حيويّتها وفثورتها. (المترجم)

- هذا من حقك.

سكب بريغانتي كأساً ثانية، فالقِّلة تتسع لسبع. ولم يبقَ فيها سوى أربع. يحصل أحياناً أن يشرب المعلم ووكيل المعلم القِّلة كلُّهما دون تقديم كأس واحدة للخاسرين. هذا حقهما. لكن لا تتجلى أهمية ذلك التصرف إلا في آخر السهرة.

وبعد جولات عديدة، إذا ما تضافر الحظ مع المكر والدهاء، لمنع لاعب أو أكثر من الوصول إلى منصب المعلم أو الوكيل ولو لمرة واحدة، فالغيبظ يستبدُّ بهم ويشدّد أكثر فأكثر وهم يرون الذين بيدهم القانون يرتشفون الكأس المرة تلو الأخرى فيفرغون القِّلة أمام أعينهم وهم صاغرون. إنَّ عنصر الإثارة هذا لا يمكن دائماً إهماله. لكنّ بيزاشيو وبريغانتي أكثر براعة في اللعب من أن يستخدماه منذ بداية الشوط، لا سيّما أن كل واحد ما يزال مسيطراً على أعصابه.

شرب بريغانتي بتمهل كأساً ثانية من النبيذ.

قال دون روجيرو:

- أكاد أذفأ أنفاسي من شدة العطش.

فقال بريغانتي:

- هل نسقيه كأساً؟

أجابه بيزاشيو:

- افعِّل ما تشاء.

ملأ بريغانتي من فوره كأس دون روجيرو. لم يكن من المصلحة في شيء جعل مثل هذا الفتى ينتظر عبثاً، فهو يُمضي القسم الأكبر من العام في نابولي، حتى أضحي غير مبالٍ بما يعمل داخل بورتومناكوري من شُرور. وهو أعلى مقاماً، بسبب كرم محتده، من أن يكون عرضة لسهام اللاعبين الآخرين المُذلة والمهينة. فدون روجيرو أنى من غيره لاعباً. ولئن كانوا

يقبلون به شريكاً فذلك لئلا يغيظوه، لا سيما أن له بعض المناقب، فهو يعير
دراجه الفيسبا دونما تردد، ويعير زورقه أيضاً، كما أنه لا يتردد في دعوة
الآخرين إلى شرب كأس على حسابه، أضف أنه قادر، إذا ما أُهين في اللعب،
على رد الصاع صاعين، وهذه الفضيلة الأثمن في لعبة «القانون».

لم يبق في القلة إلا ثلاث كؤوس.

سأل الأميركي بريغانتي قائلاً:

- هل تسقيني كأساً؟

إن عبارة «هل تسقيني كأساً؟» هي صيغة السؤال المقررة وينبغي
توجيه الطلب إلى وكيل المعلم لا إلى المعلم. فلقد خالف دون روجير القاعدة
حين صاح دون أن يقصد واحداً بعينه قائلاً: «أكاد ألفظ أنفاسي من شدة
العطش». إلا أن الأسباب التي ورد ذكرها قبل قليل جعلتهم يتغاضون عن
زلته تلك.

وبموجب «القانون» توجه بريغانتي بالسؤال إلى معلمه قائلاً:

- هل نسقيه كأساً؟

فأجابه بيزاشيو:

- افعل ما تشاء.

قال ماتيو بريغانتي:

- أنا أرى ألا نسقيه كأساً، فهو امرؤ شحيح وعلينا ألا نشجع الشح.

فسأله بيزاشيو:

- أهو شحيح حقاً؟

فقال بريغانتي:

- إنه أكثر شحاً من زيدوناته.

كان بخل الأميركي في الواقع مضرب الأمثال، ومشهوراً شهرة الوضع
المترددي لبستان زيتونه. ولا ريب في أن هذا هو السبب. فعندما رجع الأميركي

إلى أرض الوطن عائدًا من غوايمالا، كان يمتلئ فخرًا واعتزازًا وهو يروي لمستمعيه الحكايات عن البساتين الأسطورية، العائدة لاتحاد شركة الفواكه الأميركية، التي عمل فيها مديراً لأحد استثماراتها. ويبدو أنه قد نسي ما في الجنوب من مكر ومروغة. فباعه تاجر الأراضي بثمن باهظ زيتونات ما عانت تنتج شيئاً. فخلّت تلك الصفة في نفسه حقداً دفيناً. أطل كل من بريغانتني وبيزاشو متعة تحريك النصل داخل الجرح، وتلذذاً بها. فكانت عيون اللاعبين والمتفرجين لا تفارق الأميركي فيما لونه يمتنع أكثر فأكثر. ولا بد من أن تتأبه ليلاً نوبة ملاريا، إلا أنه بقي رغم ذلك صامداً، لا ينطق بكلمة ولا يؤاتي بحركة، لكن الصحيح أنه ضحية مضحكة وأنهم يفضلون طونيو عليه، فالجراح المرتبطة بهزائم الهوى أكثر تسلية واجذاباً للمتفرجين.

وجاء دور الأسترالي ليسأل:

- هل تسقيني كأساً؟

كان سؤاله بلهجة الواثق، فبينه وبين بريغانتني عدد من المصالح التي تدعو هذا الأخير لئلا ينعص عليه جلسته. فهو ينقل في شاحنته، تحت صناديق الفواكه، علب السجائر الأميركية التي يتم تهريبها عبر الشاطئ، ويقدم دوماً كشفاً دقيقاً بعدها للمبتز، الذي يتحقق على ضوء ذلك من صحة تصريحات المهربين. إن المصالح العادية جداً والخاصة باللاعبين قد تدخلت بالنسبة للأسترالي، كما تدخلت من قبل مع دون روجيرو، تدخلًا يتعارض ومتطلبات لعبة «القانون». فالواقع أخضع قوانين المسرح، واللعب لا يكون صحيحاً إذا لم يُدرَ بموجب قواعده الخاصة، حتى إن هذا لينطبق على ألعاب الحظ والمصادفة الخالصة، مثل لعبة الروليت، فالمقامر الذي لا تضايقه الخسارة هو الأوفر حظاً في الريح.

تبادل بيزاشيو وبريغانتني بعض التعليقات الساخرة السمجة، حفظاً للمظاهر، حصل بعدها الأسترالي على كأسه.

ثم سكب بيزاشيو كأساً لنفسه وارشفها بكل صمتٍ وتمهل. فهذا امتياز له معلماً. وتوجّه إلى طونيو قائلاً:

- وأنت، ألا تطلب شيئاً؟

أجاب طونيو:

- كلا.

- هذا أيضاً حقك.

كرع بريغانتى الكأس الأخيرة دفعة واحدة. فانتهت على ذلك النحو الجولة الأولى للسهرة.

في الجولة الثانية وقع اختيار أوراق التاروت على الأميركي معلماً، فانتهى دون روجيرو وكيل معلم، لأنه اللاعب الوحيد، الذي يمتلك الجرأة الكافية للنيل من ماتييو بريغانتى، عندما تحين الفرصة. لكن دون روجيرو كان يستبدّ به الضجر. فهو منصرف بفكره إلى مطاردة الأجنيبات في شوارع نابولي، وإلى البأخرة وهي ترسو في كابرى فتدقق منها الإنكليزيات والسويديات والأميركيات، وكلهنّ قنّاصات ماكرات، متكررات في لبوس الطرائد، والفرنسيات أيضاً بدأن بالانضمام إلى ذلك القطيع في السنين الأخيرة، فالفرنسيون فقدوا، دون أدنى شك، رجولتهم التي كانت مضرباً للمثل.

يرى دون روجيرو أنّ موسوليني كان على حق حين تحدثت عن انحطاط هذه الأمة. سار باللعب، شارد اللبّ فشرب ثلاث كؤوس متتالية. فكلما أسرع بالاقتراب من مرحلة السكر اقتربت بالنسبة له نهاية هذه السهرة المحلية الممّنة. وحين سأله طونيو: «هل تسقيني كأساً؟» أجاب «كلا» دون أن يقدم أي تفسير، إذ ليس من مستواه هو أن يندقص من قيمة طونيو. وكان بوسعه أن يجيب بـ «نعم»، حتى لكأنه قال «كلا» بمحض الصدفة. ولربما تكون هيئة الضيق البادية على طونيو قد ذكرته بفتاة أجنبية، تظاهرت في اليوم التالي، بأنها لم تعد تتذكر أي شيء.

وما لبثت الجولة الثالثة أن بدأت فوراً فخرجت أوراق التاروت في صالح بريغانتى معلماً فاختر بيزاشيو وكيل معلم.

شَنّ بريغانتي هجومه على طونيو من قبل أن يشرب كأسه الأولي، أي كأس الشرف.

فقال له:

- ألا تطلب شيئاً من وكيلي؟

أجاب طونيو:

- كلا.

وظلّ باسطاً يديه فوق الطاولة. إنهما يدا رجلٍ مقربٍ بيضاوان بضئان، وعيناه تحدقان فيهما.

ألحّ بريغانتي في السؤال:

- لم لا تطلب من بيزاشيو أن يسقيك كأساً؟ لقد خسرت ثلاث جولات حتى الآن ولما تتنوّق كأساً واحدة. فأرى أن لك الحقّ كلّ في أن تروّي ظمأك.

- ولي الحقّ كلّ في ألا أطلب شيئاً.

فعلت همهمةً تأييدٍ وموافقة. لقد صمد طونيو في وجه الاستفزاز.

قال بريغانتي لبيزاشيو:

- إن طونيو لا يُستثار بسهولة. وقد قيل لي إنه رجل دون سيزار

المقرب أو وكيله. وينبغي للوكيل في الواقع أن يفرض هيئته...

فقال بيزاشيو:

- لكنّ المرء يقع في دار دون سيزار على وكيلات...

قال بريغانتي:

- هلاً أوضحت لي ذلك...

فتولّى بيزاشيو الإيضاح:

- قبل ثلاثين عاماً كانت العجوز جوليا ذات نهدين جميلين. ولما روى

دون سيزار غليله منهما زوجها من رجلٍ بائسٍ ما لبث أن مات عاراً.

قال بريغانتي:

- فهمت، فالرجل المسكين كان في الظاهر رجل دون سيزار المقرب،
أما في الخفاء فالأمر والنهي بيد جوليا.

فتابع بيزاشيو يقول:

- آنذاك، كنت أنت في البحرية، فلا يسعك أن تعرف مجريات الأمور
كلها، إلا أنها جرت مثل ما خمنت تماماً... كان الرجل المسكين، قبل أن
يموت، قد استولد جوليا ثلاث بنات، واسم الكبرى ماريا.

فهتف بريغانتي كمن وجد حلاً للغز:

- إنها ماريا طونيو.

- تريث قليلاً كي أكتشف لك الأمر على جليته... حين بلغت ماريا
السادسة عشرة من العمر استظرفها دون سيزار، أضاف أن نهدبها كانا أكثر
تكوراً منهما لدى أمها، وقد أفعمها دون سيزار دغدغة وملاطفة ومداعبة إلى
أن اندفخ بطنها، ولم يبق عليه سوى العثور على ذي قرنين ليزوجه منها،
فكان أن تقدم طونيو...

فكر طونيو قائلاً في نفسه:

- تحدثنا وقولا ما طاب لكما، سوف يأتي دوري لأصبح معلماً، أو وكيل
معلم، وعندها ستسمعان ما يروقكما.

أنت تعتقد أنك أصبحت شخصية مرموقة، يا ماتيو بريغانتي، مذ أن صار
لك حساب جار في مصرف نابولي، لكن لم ينس أحد أن كافة البحارة في ميناء
أنكون، قد تردوا على زوجك بالتناوب، بينما كنت أنت تبخر فوق البوارج
الملكية. وما استريت البيت الذي تقطنه الآن في القصر القديم، إلا بالمال الذي
كانت تدسه في جواربها. أما أنت يا بيزاشيو، يا فطيرة البيرا التتنة، فحسبك أنك
تمضي بصحبة الشانين من السواح الألمان مقابل خمس مئة لير...

كان طونيو يفكر على هذا النحو وهو يستعد لردّ الصاع صاعين
لجلالته، منتقياً بكل عناية، الكلمات المقذعة التي سيكيلها لهما. فالأنظار
كلّها متوجّهة إليه، بيد أنّه بقي ساكناً صامتاً، كأنه قدّ من صخر، في سترته
البيضاء المنشأة حديثاً. بل إنّ ماتيو بريغانتني وبيزاشيو هما اللذان بدأ
يفقدان أعصابها.

قال بريغانتني:

- إنّ كنت قد أحسنت الفهم، فإنّ طونيو هو، حسبما يظهر للعيان، رجل
دون سيزار المقرّب، إلا أنّ ماريا هي التي تمسك بالمقبض عملياً.

فأجاب بيزاشيو:

- بقيت ماريا لزمنٍ طويلٍ تمسك بالمقبض...

وضحك ضحكة قصيرة ثم وَقَّوْقَ، ومال نحو طونيو ليتفرّس في وجهه
جيداً ثم تابع يقول:

- ومن بعدها جاء دور إلفيرا، شقيقة ماريا، التي بلغت أيضاً
الثامنة عشرة...

قال بريغانتني:

- فما كان من دون سيزار إلا أن ناولها المقبض...

فقال بيزاشيو:

- واقترب الآن دور مارييت.

- إنّ دون سيزار ثور.

فقال بيزاشيو:

- والثيران الأصيلة لا تشيخ. فليتّك ترى كيف ترتعش مارييت وهو
ينظر إليها.

وانحنى بريغانتني بدوره نحو طونيو. قال له:

- إذا ما ذُكرتِ الدور، فإنَّ داركَ دارٌ حقيقيّة.

وتابع بيزاشيو قائلاً:

- فالباب مفتوح والدوافذ مغلقة.

فكر طونيو في نفسه: «قولا ما بدا لكما»، وبدأ يشدّ كلمات رهيبة سيوجهها إليهما عندما يأتي دوره في الحكم. إلا أنه بدأ في الوقت نفسه يراجع حساباته، فقد أنفق حتى الآن ثلاثين ليراً على ثلاث دفعات ولم يتبقَّ أمامه أكثر من أربعة أشواط يجرب فيها حظه عسى أن يصير معلماً.

يحدث أحياناً أن يخسر لاعب من بين ستة لاعبين، خمس عشرة مرة متتالية أو عشرين. وليس «القانون» لعبة تتوافق ومبادئ العدالة، لأنّ الذي لا يملك في البدء غير رأسمال صغير لا يسعه أن يجرب حظه كاملاً.

كان طونيو يفكر على هذا النحو وعيناه لا تفارقان يديه البيضاء البضيتين المبسوطتين على المائدة. وما كانت يداه لترتجفا، لكن شيئاً ما داخل صدره بدأ ينقبض غمّاً، لمجرد التفكير في أنّ أمامه أربعة احتمالات فقط كي يصبح معلماً.

ابتعد عدّة مشاهدين عن المائدة وبدؤوا يتحاورون بصوت خافت حول سير اللعب، فرأى البعض منهم أنّ بريغانتي يسبغ على اللعب روحاً عدائية جداً، بينما يُبدي بيزاشيو تذّلاً لا حدود له تجاه سيده، ويتطلّب «القانون» إبقاء الضحية على مدى لا يصحّ تجاوزه. كما يقتضي تنويعاً في اختيار الضحايا، وينبغي إزّال الجراح كما على سبيل المزاح. أمّا البعض الآخر فقد أطرى الرجلين بحرارة، لأنّ الطعنات يجب أن تُسدّد حسب رأي هؤلاء نحو هدف واحد بحيث يكون إدلال الضحية تاماً ومبرماً. إنهما رأيان مختلفان لمدرستين متعارضتين.

أدرك ماتيو بريغانتي وبيزاشيو أنّ النقاش يدور حول طريقتيهما في اللعب. فعجلاً في إنهاء الجولة، وملاً كل منهما كأسه.

قال بيزاشيو:

- هذا نخب نساء دون سيزار.

فقال الأسترالي:

- هل تسقينني كأساً؟...

وواصلوا اللعب.

* * *

بدأ الحفل الراقص لتوّه تحت صنوبرة مورا، فالمصابيح الكهربائية المعنّقة على الأغصان الرئيسية تضيء بنور ساطع قسماً من الساحة الكبرى ومداخل شارع غاريبالدي.

ارتفع حاجز خشبي أخضر، ليفصل حلبة الرقص ومنصة العازفين والمنهل وركن المأكولات وبعض الموائد والكراسي المتحلقة حولها، عن باقي أرجاء الساحة. حُدّدَ سعرُ الدخول بمئتي لير، فيما تابعت أعداداً من الفتيان والفتيات، غير القادرين على إنفاق مئتي لير من أجل الرقص، نزعتهم حول الساحة في اتجاه عقارب الساعة. أمّا العاطلون عن العمل فتوجّهوا إلى المدينة القديمة وولجوا الدور المتجاورة والمتشابكة والمتداخلة والمتراكبة: فأرضية بعضها تقع فوق سقف البعض الآخر، وسطح هذه الدار هو باحة لتلك، وكل غرفة مكان قبو أو مستودع غلال، بدءاً من مكسر المرفأ وحتى دير القديسة أورسولا بنت أوربا، الذي يُتوّج بورتو مناكوري. لقد تكوّن كل واحد منهم فوق سرير أو حشيرة أو بساط تبعاً لدرجة فقره، ثم أخذوا ينصتون لأنغام الجاز التي تُعزف في الحفل، فتتسرّب صعوداً أو هبوطاً لتصل إليهم. هذا، وميزان الحرارة على باب الصيدلي بشارع غاريبالدي يشير إلى ٣٠ درجة.

دعا المفوض أتيليو المهندس الزراعي الحكومي لتناول كأس بصحبته فوق رصيف النادي الرياضي الذي يواجه السراي، عند زاوية الساحة الكبرى. فالحفل بتوابعه كلّها يقع تحت أنظارهما.

كانت مبادرة كريمة من المفوض أن خوّل مدير النادي، تسهيلاً للحفل (الذي تقيمه البلدية للمصطافين)، تجاوز حدود الرصيف والنزول إلى أرض شارع غاريبالدي. فأضحى الصف الأول من الموائد في متناول يد نوافذ السجن، في طابق السراي الأرضي. وليس من يجلس إلى موائد الرصيف سوى المصطافين، فيما أبناؤهم وبناتهم يرقصون حول صنوبرة مورا. كانت غالبية الجالسين من التجار والموظفين القادمين من مدينة فوجيا ومدن الداخل الصغيرة الأخرى. أمّا أغنياء المنطقة فيقضون إجازاتهم على شواطئ الشمال أو في منتجعات أبروزي الجبلية. وينضمّ إلى هؤلاء أيضاً عدد من أعيان مناكوري مثل موثقي العقود والمحامين والأطباء، لكن دون نسائهم. إنها موائد رجال. كان البعض منهم يفكر في السجناء القابعين وراء نوافذ السجن، والبعض الآخر لا يفكر فيهم، فالأمر تابع لهواهم وميل قلوبهم. أمّا السجناء فيصنعون من وراء القضبان لأنغام الجاز وينصتون لذلك المزيج من الأصوات في تلك الأمسية الاستثنائية. لكنهم لا يشاركون في الغناء لأنهم لا يعرفون ألحان الجاز، وهم على كل حال سجناء صغار، موقوفون من قبل القاضي أليساندرو وضمن اختصاصه قاضي صلح، وقد ألقى القبض عليهم بتهمة مختلفة منها سرقة البرتقال والليمون، والصيد بالديناميت، والطنعن بالمدى دونما خطورة.

قال المهندس الزراعي:

- لديكم فرقة جاز جيدة.

فأجاب المفوض:

- بل ممتازة بالنسبة لمدينة صغيرة كهذه.

ولاحق بنظره جوزينا التي كانت ترقص تحت الصنوبرة في الجانب

الثاني من الحاجز الأخضر.

فأردف المهندس قائلاً:

- كنت وأنا طالب في كريموني رئيس فرقة الجاز الخاصة بكلية الزراعة.

كان المهندس الزراعي من أبناء الشمال، أشقر، ذا جبهة محدبة. وهو لومباردي متورّد الخدين عمره ستة وعشرون عاماً، يقيم في بورنومناكوري منذ ثلاثة أعوام أي منذ بدء تعيينه. وينصب اهتمامه على تربية الماعز. فيقيم في دار منفردة فوق التلال اليابسة غربي البحيرة، وقد أنشأ فيها إسطبلًا نموذجياً وضع فيه اثنين من تيوس الإنتاج التي تقدّمها الحكومة مع عنزات من فصائل متنوعة، أحضر بعضها على نفقته الخاصة من آسيا الصغرى. أمّا الهدف الذي وضعه نصب عينيه فيتمثل في إنتاج عرق جديد من الماعز يتكيف مع الساحل المناكوري، وينتج من اللبن ضعفين إلى ثلاثة أضعاف ما تعطي العنزات الضامرة الهزيلة التي يقودها رعاة دون سيزار. ويحلم بأن يحقق ذلك في بحر عشرين أو ثلاثين سنة. وهو تقيّ نزيه من أبناء الشمال مولداً ونشأة، إنه بكلمة واحدة لومباردي عنيد.

أضاف المهندس الزراعي قائلاً:

- بودي هنا أيضاً لو أقود فرقة جاز، لكن ما إن يصير المرء موظفاً حتى يحسب للرأي العام ألف حساب.

فقال المفوض:

- مازالت لدينا اعتبارات تستعبدنا.

واستأنف المهندس يقول:

- أنا أبعدو أصغر من حقيقة سني. ولو شاهدني الفلاحون وأنا أعزف على آلات الجاز لفقدت في نظرهم كل مهابة واعتبار.

قال المفوض ساهياً:

- إنهم مختلفون.

- ليس بالأمر اليسير أن نقتنعهم بأنّ تحسين العنزة أمر ممكن.

فقال المفوض:

- هذا راجع إلى ما يبتغون منها.

وضحك كاشفاً عن أسنانه، إنَّ أسنانه جميلة، وهو بها جد فخور. ولم يفهم اللومباردي تلميح المفوض. فاستطرد قائلاً:

- في مدن الشمال حلقات تضم هواة الجاز، ولا يُلام موظف ينتمي إلى حلقة فيها محامون وأطباء. أمّا حلقة الجاز عندكم فلا تضم سوى الفتيان.

- لم تكن سعيد الحظ حين عَيَّنوك في مناكوري.

فقال اللومباردي:

- الوضع ممتع.

- ستظلّ تنتظر طويلاً قرار نقلك. أعرف موظفين بلغوا سنّ التقاعد دون أن يطالبهم النقل.

- لكنني لم أتقدم بطلب نقل فالماعر تستهويني.

قال المفوض: «حقاً...»

وتابع بعينه جوزينا وهي تُراقص أحد الروماويين، فالشباب طويل ومنطلق، فمه روماوي الشكل والشفة السفلى مقلوبة بازدياء. جوزينا تضحك. ها هي تضع يدها على صدر الشاب وتبعده مغرقة في الضحك. أمّا جسدها النحيل فيشبه انحناءة قوس مشدودة، وهي تلاصق الشاب الطويل ذا الهيئة المتجرفة.

قال المفوض:

- لو كنت مكانك لما ألححت في الطلب لتأتي مارييت دون سيزار فتعمل عندي.

يقوم شخصان اثنان بالعمل عند المهندس الزراعي، فيتولّى رجل مهمة الإشراف على الإصطبل النمنونجي، وتتفرّع امرأة لشؤون البيت. لكنّ الإصطبل بات يتطلب عملاً متزايداً، فقصده إلى العجوز جوليا طالبةً ابنتها الصغرى لإدارة شؤون بيته. واتفقا على ذلك وحددا الأجر، إنّما ينبغي أولاً أخذ موافقة دون سيزار. لكن لم ذلك؟ أليست جوليا حرة في تشغيل ابنتها

حيثما تشاء؟ وكيف استطاع المفوض أن يعرف بحقيقة الأمر؟ لا شك في أن مهنته هي أن يحيط بكل شيء علماً...

ضحك المفوض كاشفاً عن أسنانه. وقال:

- كل واحد هنا يعمل مُخبراً للآخر، وما يقوم به الآخرون هواة أقوم أنا به محترفاً... لذا أنصحك بالأ تضيع بنتاً بكرة في خدمتك...

اصطبغت وجنتا اللومباردي الورديتان بلون الأرجوان. وبدا ساخطاً. إذن ما النوايا التي ينسبون إليه؟

قال المفوض:

- أبكار الجنوب شريرات.

فقال المهندس الزراعي:

- لسن بأسوأ من أبكار الشمال.

- بنات الشمال يرضخن في نهاية المطاف.

- هذا لا ينطبق على كافة الأحوال والأوقات.

- لكن عندما يرين أن الغيظ الذي استبد بالرجل من أجلهن، قد بلغ به حافة الجنون، فإن الشبهة تدفع بهن للرضوخ.

- ليست المسألة مسألة موقع جغرافي.

فتابع المفوض قائلاً:

- إما أن تضاجع مارييت أو لا تضاجعها. سوف يتوقّر على كل حال عشرة شهود يُقسمون على أنك اغتصبتهما أو شرعت في اغتصابهما، والأبرشية كلها ستتدخل في القضية والكاهن أيضاً، ولنسوف يجرونك للمثول أمام المحكمة، ولن يبقى لك من اختيار إلا أن تتزوجها أو أن تُرتب لها نفقة....

رفض المهندس الزراعي إمكان وقوع مثل تلك الشرور مؤكداً على حسن نواياه وصفائها. وانتهى الرقص فذهبت جوزينا لتجلس على مقعد

بجانب ابنة المحامي سغادو. كان المفوض يحاول إقناع المهندس الزراعي بضخامة المخاطر التي يعرض نفسه لها، إذا ما أصرَّ على أخذ مارييت لتعمل عنده.

- أنت لا تعثر في الجنوب إلا على قاذونيين، والعامل الزراعي نفسه، الذي لا يجيد القراءة والكتابة، تلقاه في واقع الأمر رجل قاذون كبيراً...

المهندس الزراعي لديه سيارة. لا بأس. لكن وقع له أكثر من مرة أن كان على إحدى طرق الجنوب، فأرغم على ضغط المكابح بأسرع من لمح البصر، ليتفادى دهس راكب دراجة، كان أمامه، فانعطف بغتة نحو اليسار. أجل. لكن كيف يتصرف سائق الدراجة عادة؟ إنه يومئ باسطاً ذراعه وينعطف بعدها من فوره نحو اليسار، غير عابئٍ بسيارة قد تكون قادمة من ورائه بسرعة مئة في الساعة. فلم يتصرف على مثل هذا النحو؟ لأن ذلك من حقه. لقد بسط ذراعه حسبما يفرض عليه القانون أن يفعل، فبات من حقه أن ينعطف. ولا يخطر على باله أن يتساءل عن قدرة السائق القادم من ورائه على كبح السرعة قبل فوات الأوان. هذا من شأن السائق وحده، أما هو فعليه أن ينعطف لأن له كامل الحق في الانعطاف، وصوناً لكرامته، حتى وإن كلفه الأمر حياته. ذلك أنه لو رضخ فأفسح المجال للسائق، فيما هو نفسه يملك الحق على السائق، لتُلب شرفه، وانتقص من كرامته التي يتمسك بها أكثر من تمسكه بحياته.

أبدى المهندس رأياً معارضاً حين نفى أن يكون الجنوب هو الذي يجعل من الفقراء قاذونيين، بل فقرهم نفسه يجعلهم كذلك. فالفقير لا يملك غير حقه. لذا تراه يحرص عليه أكثر من حرصه على حياته التعيسة. أما الغني فيملك من الحقوق ما يدفع به إلى التساهل بشأن البعض منها.

كان الرجلان يتناقشان على ذلك النحو. ثم بدأت الفرقة تعزف لحن رقصة جديدة. إن فرانثيسكو، ابن ماتيو بريغانتني، الطالب في كلية الحقوق،

يتولى قيادة فرقة الجاز. تحولت جوزينا لمراقبة المدير الشاب لفرع مصرف نابولي.

سأل المفوض المهندس الزراعي:

- قل لي بحقك، كيف راودتك فكرة استخدام مارييت دون سيزار في دارك؟

يصحّ التساؤل حقاً: كيف بدأ ذلك؟ الواقع أنّ اللومباردي قصد مراراً دار دون سيزار، للتحدث إليه في شؤون الماعز، ولم يَجِ من زيارته تلك فائدة تذكر. فمثل هؤلاء الإقطاعيين ماعدوا يولون مصالحهم الخاصة كير اهتمام. وبدا دون سيزار أكثر حرصاً ومحافظة على رعاة العهود الغابرة منه على تحسين نوعية قطعانه. قيل إنه يقوم بعمليات تدقيق، وإنه بات يعرف طرائق صنع أجبان الماعز في القرن الثالث قبل الميلاد، إلا أنه لا يكلف نفسه، في الوقت ذاته، عناء الطلب إلى الرعاة كي يقوموا بتحضير أجبانهم، بل أجبانهم هو، في أوعية نظيفة. وأثناء تلك الزيارات استرعت مارييت الصغيرة انتباه المهندس الزراعي، فقد وجدها متوقّدة، أي نشيطة يقظة. وبما أنه بحاجة إلى شخص ما...

- ألا تذكر أنّ أحداً قد أوحى إليك بهذه الفكرة؟

تذكر المهندس أنّ امرأة طويلة القامة، متينة البنيان، سمراء البشرة - بل قيل له في الواقع إنها إلفيرا، عشيقة دون سيزار وشقيقة مارييت - لم تخف عنه دهشتها واستكارتها لقيام امرأة، مهمتها العناية بالماعز، بإدارة شؤون داره وتدير منزله.

فصاح المفوض ظافراً:

- ها أنت قد وقعت في الشراك أخيراً.

فردّ المهندس قائلاً:

- ولم لا؟

«إنها تستحوذ عليه». هكذا فكر المفوض. وهذه العبارة، بحد ذاتها، تستهويه. فبين بني البشر أناسٌ يستحذون على أناسٍ آخرين.

ويصبح المالكون بدورهم مملوكين. وتتداخل حالات الامتلاك فيما بينها وتترابط فلا يعود الإفلات منها بالأمر المستطاع. لقد امتلك هو نساءً كثيرات، كنَّ في غالبيةهن متزوجات. وتقدّم له مهنته تسهيلات في هذا الصدد لا تتوفر لآخرين، فكان يأخذ على الدوام زمام المبادرة إلى القطيعة، إلا أن المرأة تبقى في الغالب مملوكة له، لأنها كانت تلجّ بالسؤال رغبة في لقاء أخير. وعلى هذا النحو المتكرّر يكون الوصال الأخير، فيخرج منه ونشوة النصر تملأ رأسه. أمّا الآن فإنّ جوزينا هي التي تمتلكه.

- هل سبق لك أن سمعت مارييت تغني؟

فرد المهندس بالنفي.

قال المفوض:

- إنها موهوبة، فهي تتمتع بصوت حاد، صوت عال جداً، يخفّ في النفس لبلغ الأثر حين تغني بعض الأغاني المحلية. وقد يعثر المرء على صوت من هذا النوع بين قرويات المنطقة. وقد لا يستوعبه بكافة أبعاده من لم يكن مولوداً ونشأ على أرض الساحل المناكوري. من المحتمل أن لا تستسيغه. بيد أن «الصوت» ليس خالياً من علاقة بالغة التي تميّز أصوات النساء المغربيات.

قال اللومباردي مستفسراً:

- قلت: الصوت؟

- نحن نطلق اسم «الصوت» على هذا النوع من الأصوات. والنساء اللواتي يتمتعن بموهبة «الصوت» يكنّ ساحرات.

فسأله اللومباردي:

- وهل تؤمن بالسحر؟

فَكَرَّ المَفْوُضُ فِي أَنْ أَبْنَاءَ الشَّمَالِ تَعُوزُهُمْ، بِكُلِّ تَأَكِيدٍ، انْبَاهَةً وَحُضُورَ
الذَّهْنِ. ثُمَّ أَجَابَ:

- كَلَّا، أَنَا لَا أَوْمنُ بِهِ أَبَدًا، لَكِنْ لِكُلِّ شَيْءٍ ثَمَنٌ. فَالَّذِينَ يَرْتَوْنَ مَوْهَبَةً
خَاصَةً تَحْرِمُهُمُ الطَّبِيعَةُ مِنْ شَيْءٍ آخَرَ.

فَقَالَ المِهْنَدِسُ الزَّرَاعِي:

- أَنْتُمْ أَبْنَاءَ الجَنُوبِ تَمِيلُونَ دَوْمًا إِلَى الفَلَسَفَةِ.

فَوَاصِلُ المَفْوُضِ يَقُولُ:

- لَكِنْ حَذَارُ، فَالْمَوْهُوبُونَ تَنْقُصُهُمُ الرَّأْفَةُ. وَمَارِييتُ ذَاتَ نَظَرَةٍ قَاسِيَةٍ.
وَلَسَوْفَ تَتَمَلَّكَ...

فَأَجَابَ المِهْنَدِسُ الزَّرَاعِي:

- هَؤُلَاءِ الفَتَيَاتُ، اللَّائِي نَشَأْنَ نَشَأَةً قَاسِيَةً فِي مَمْلَكَاتِكُمُ الوَاسِعَةِ فِي
الجَنُوبِ، يَصْرُنَ رَبَاتُ بِيُوتٍ مِنَ الطَّرَازِ الْأَوَّلِ.

* * *

الْأَكِيدُ أَنْ لَعِبَةَ «الْقَانُونِ» اتَّخَذَتْ مَسَارًا عَلَى أَحْسَنِ مَا يَرَامُ. فَقَدْ
ادْقَضَتْ سَبْعَةَ أَشْوَاطٍ دُونَ أَنْ يَقَعَ اخْتِيَارُ أَوْرَاقِ التَّارُوتِ عَلَى طُونِيوِ
مَعْلَمًا. كَمَا لَمْ يَعْنَيْهِ أَيُّ مَعْلَمٍ وَكَيْلًا لَهُ. وَلَكِي يَكُونُ «الْقَانُونُ» لَعِبَةً مَبْهَجَةً
وَمُمْتَعَةً، لَا يَدُّ مِنْ أَنْ يَتَعَاضُوا الْحِظَّ مَعَ اللَّاعِبِينَ عَلَى اخْتِيَارِ ضَحِيَّةٍ بَيْنَهُمَا،
يَلْحَقُونَهَا وَيَحَاصِرُونَهَا حَتَّى الْإِرْهَاقِ. وَعَلَى هَذَا النِّحْوِ فَقَطْ تَأْخُذُ لَعِبَةُ الْفُقَرَاءِ
هَذِهِ مَنَحَى لَا يَقِلُّ إِثَارَةُ عَنِ الصَّيْدِ بِالسُّوْطِ مِنْ عَلَى مَتْنِ الْجِيَادِ أَوْ مَسَابِقَةِ
التَّيْرَانِ، مَعَ الْفَارِقِ الْأَكْبَرِ فِي أَنْ الطَّرِيدَةَ هُنَا رَجُلٌ.

حِينَ بَدَأَ السُّوْطُ الثَّامِنُ، قَبِلَ السَّاقِي أَنْ يَبَيِّنَ طُونِيوِ بَعْدَ أَنْ خَسِرَ
الْمُتَنَتِي لِيرَ وَعَشْرَةَ فَوْقَهَا. كَانَتْ أَوْرَاقُ التَّارُوتِ بِطَيِّئَةٍ فِي إِعْلَانِ النَتِيجَةِ حَتَّى
سَادَ الْاِعْتِقَادُ بِأَنَّ رَجُلَ دُونِ سِيزَارِ الْمُقَرَّبِ سَوْفَ يَفُوزُ أَخِيرًا. وَكَادُوا يَأْسِفُونَ
عَلَى ذَلِكَ. يَدُّ أَنْ الْقَاعِدَةُ لَيْسَتْ مُطْلَقَةً وَاللَّعِبَةُ لَا تَقْدَرُ مَتَعَتَهَا دَوْمًا إِذَا مَا شَاءَ

الحظ أن يتحوّل فجأة ليقف إلى جانب الضحية. فالتحوّل يؤدّي أحياناً إلى نتائج مثيرة جداً، وكل شيء متوقف على نوعية الضحية. فماتيو بريغانتى على سبيل المثال وكذلك بيزاشيو، عندما يحالفهما الحظ بالفوز بعد جولات عديدة من الخسارة، تجد أن ذكرى ما أصابهما من إذلال أو امتهان، قد فجّر طاقات الخبث الطبيعي الكامن فيهما وضاعف من قدراته. وحالهما هنا كحال ثور المصارعة، من الفصائل الممتازة، حين يسقط في الحلبة، فيتبادر إلى ذهن الجميع أنه قد انتهى ثم تراه يهب فجأة فيحمل على المصارع. فليس ما هو أجمل من ذلك. بيد أن طونيو تلقى كثيراً من الإصابات حتى الجولة الثامنة فبات من الصعب عليه القيام بحملة ذات شأن. صحيح أنه ماكر بطبعه، لكنه فقد رباطة جأشه التي تسمح لمكره بالظهور. زد أنه صار ينوء الآن تحت عبء الدين وهموم الخسارة، أي أنه لو فاز الآن لظل عاجزاً عن شرب كأس النصر حتى الثمالة، وإبادة الخصم بحيث لا تقوم له قائمة من بعد، كما يفعل قائد عسكري محنك ولاعب «قانون» خبير. ومن حسن الحظ أن اختارت أوراق التاروت دون روجيرو معلماً، فازداد انخراطاً في اللعب واختار ماتيو بريغانتى وكيلاً لاقتناعه بأنه الأكثر ثوماً.

فما كان من طونيو إلا أن نهض.

قال للساقي:

- لك بذمتي أربعون ليراً...

وأراح الكرسي وتوجّه نحو الباب قائلاً:

- ... أسدّك إياها في المرة القادمة.

فصاح بيزاشيو:

- هاهو ينسلّ هارباً خاوي المعدة.

قال طونيو:

- تصبحون جميعاً على خير.

وصار عند عتبة الباب حين صاح به دون روجيرو:

- يا طونيو.

فتوقف واستدار وقال لدون روجيرو:

- ماذا تريد مني؟

قال:

- ليس لك الحق في الانصراف.

قال الساقى لطنونيو:

- أصغِ إليّ، فسوف يصبح محامياً عما قريب. إنّه يعرف ما يقول.

فتابع دون روجيرو يقول:

- ليس لك الحق في الانصراف لأنك لم تُنهِ عقدك.

وسمعت تمتّاتٍ مؤيِّدة لكلام دون روجيرو. ذلك أنّه أسبغ على الجولة طابعاً ظريفاً. ثم أضاف:

- أصغِ إليّ. أنت رجل دون سيزار المقرّب. هبّ أنّك أحضرت نيابة عنه مرابحاً. سوف نقيم بينك وبين هذا المربح عقداً شفويّاً. هل أدركتَ ما أقول؟

أصغى طونيو متجهّم الوجه مقطّب الجبين.

- إنك بموجب هذا العقد لا تملك حق الاستغناء عن خدمات المربح دون إنذار مسبق. والمربح أيضاً، لا يملك حق التوقف عن العمل دون إشعار سابق. فهل توافق على كلامي؟

أجاب طونيو بشيء من التردد:

- أجل.

- حين بدأت اللعب، أقيمت بينك وبيننا عقداً شفويّاً، ولا يحقّ لك بموجبه الانصراف دون سابق إنذار.

قال طونيو:

- ليس الحال على ما يرام، تصبحون جميعاً على خير.

إلا أنه تردّد في اجتياز العتبة.

قام دون روجيرو بحركة واسعة من ذراعه.

- أشهدكم جميعاً على أن رجل دون سيزار المقرّب ضرب المثل على

خرق عقدٍ دون إشعار مسبق!

فكرر طونيو القول:

- طاب مساؤكم جميعاً.

لكنه ظلّ متردداً.

فقال الساقى:

- وأنا أسحب منك ائتماني، إذا لا يسعني أن أئتمن رجلاً لا يتقيد

بعقد عقده.

فأعلن دون روجير قائلاً:

- لقد نشأ هنا وضع جديد.

هبّ مسرعاً نحو طونيو فوضع يده على كذّفه وقال:

- عندما لا يكون لدى المرء ائتمان، يتوجّب عليه الدفع قبل

الانصراف. إدفع له الأربعين ليراً التي أنت مدينٌ بها.

فقال طونيو:

- لا مال لديّ.

- هذه اسمها جنحة نصب واحتيال. والبتّ فيها من اختصاص المحكمة.

ارتفعت من جديد نتمّات تؤمّن على الكلام ثمّ علا التصفيق. فبوسع

طالب في كلية الحقوق إذا ما شاء، أن يضيف إلى لعبة «القانون» توابل

تضفي عليها طعماً جديداً.

صاح الأسترالي :

- هذا صحيح، وقد رأيت بأَمِّ عيني مثل هذه الحال في فوجيا. فقد حاول الرجل الخروج دون أن يسدّد ثمن الطعام، فاستدعى صاحب المطعم رجال شرطة البلدية فأوقفوه.

قال الساقى:

- لن أكون سيّء الخلق لأتصرّف على ذلك النحو. حسبي أن يعنني بالبقاء حتى نهاية اللعب لأعيد إليه ائتماني.

صفّق الحضور للساقى. وأحاطوا بطونيو فدفعوا به دفعاً نحو المائدة.
قال:

- أنتم تمتلكونني، أعرف حق المعرفة أنكم تمتلكونني...
وعاد ليجلس في مكانه .

على الفور سأل الأسترالي وكيل المعلم، ماتيو بريغانتى، قائلاً:

- هل تسقىني كأساً؟

فقال بريغانتى:

- المسألة مذوطة بك، فلنرّ أولاً إن كنت تحسن الجواب.
- هيا اسأل...

- بوذي أن أعرف أولاً لماذا طونيو يسيء فهم المزاح؟
- لأنّ مارييت جعلت دمه يغلي ويفور.

- إجابتك لا بأس بها. لكن قل لي: لماذا مارييت جعلت دمه يغلي؟

- شاهدتها قبل أيام وهي ذاهبة لإحضار السمك من عند صيادي دون سيزار. كانت عارية تحت قميصها، وكان العرق يجعله يلتصق بجسدها، حتى لترى كل شيء: نهدين كالليمون وردفين كالرمان.

- ماذا يبغى طونيو من مارييت؟ هذا ما أود معرفته.

أجاب الأسترالي :

- ينبغي أن ينال بكارتهما، بيد أن طونيو ليس الراغب الوحيد في
بكاره مارييت.

- ومن سينالها حسبما ترى أنت؟

أجاب الأسترالي:

- دون سيزار.

فقال ماتيو بريغانتني:

- كلا.

فكرّر الأسترالي مجيباً:

- قلت لك إنه دون سيزار.

وتشبّث الأسترالي برأيه. فدون سيزار سيّد حقيقي، ولم يسمع أحد أن
بكاره فتاة من أهل داره ظلت بعيدة عن مثاله. فأبوه من قبل كان أيضاً ثوراً
حقيقاً من الأسياد. وكذلك جده من قبل أبيه. صحيح أن دون سيزار قد بلغ
الثانية والسبعين الآن، لكنّ عشيقته إلفيرا لا تشكو من قصور لديه. إنها أسرة
يبقى فيها الفرد ثوراً فحلاً على الدوام مهما طال عمره. فجده كان يفترع بنات
السبخة وهو في الثمانين من عمره.

كان الأسترالي يتحدث عن ذلك بنوع من التهليل والتعظيم. فتجمّع
حواله عدد كبير من رواد الحانة التي كانت تغص بالزبائن. ملأت الجميع
نشوة الابتهاج والتهليل فصاروا يرددون: «ثور، فحل... نيس فحل...». فبدأ
كأنّ فحولة دون سيزار قد رفعت رؤوسهم جميعاً.

قال ماتيو بريغانتني:

- أسأت الإجابة. فلن نتال نبيداً.

وجاء دور الأميركي بالسؤال:

- هل تسقيني كأساً؟

- قل لي أولاً من الذي سينال بكاره مارييت؟

أجاب الأميركي:

- أعرف ذلك حق المعرفة، فبستاني ملاصق للأرض السبخة حيث لا تقوتي شاردة ولا واردة، وأنا مُلِّمٌ بالخطبة التي رسمتها نساء دار دون سيزار بشأن بكاره مارييت.

- قل إذن.

- مارييت مُعَدَّة للمهندس الزراعي.

فقال ماتيو بريغانتي:

- أنت تكذب.

الواقع أنه شرب كثيراً من النبيذ، فمن بداية اللعب وهو بصورة شبه مستمرة معلم أو وكيل معلم. فبات لعبه مفتقراً للكياسة. ليس هذا من دواعي الأسف على كمال حال، إذ يأتي وقت يحمي فيه وطيس اللعب فيُعطي العنف «القانون» قوةً وبأساً متمعين. والمتفرجون بدورهم شرب معظمهم كثيراً. فصار ضحكهم أكثر صخباً وتعليقاتهم أكثر جرأة.

روى الأميركي ما فعلت والدته مارييت وشقيقتها ماريّا وإلييرا في سبيل اجتذاب المهندس الزراعي. فمارييت سوف تذهب للعمل في بيته... ولن يتوانى عن مدّ يده إلى الليمون والرمّان...

تساءل دون روجيرو:

- وهل مارييت لها أظلاف؟

فأغرق الجميع في ضحك صاحب. ذلك أن إنشاء الإصطبل النمونجي حمل سكان المدينة على الاعتقاد بأن المهندس الزراعي يشاطر رجال السبخة رغباتهم. فهو يؤوي عشيقاته في قصر.

وشرع المشاهدون في تقليد ثغاء الماعز، ولكل واحد طريقته في الثغاء. أخذ البعض يرمح الأرض بقديمه كما يفعل النيس قبل الوثب، بينما يطأطيء البعض الآخر الرأس راسماً بيده في الهواء قروناً وهمية. وما عاد من أحد

يلقي الى طونيو بالاً. فاربيت هي عنزة صغيرة ذائعة الصيت. بل إن أحدهم استند إلى زاوية الطاولة وأخذ يهز الظهر مقلداً التيس في الرهز متلفظاً باسم ماربيت مع كل حركة. وماعاد للضحك والنعاء من نهاية.

أخيراً هدا الجو بعض الشيء.

فقال بريغانتى للأميركي:

- لقد أسأت إجابة، فلن تنال نبیذاً.

فقوبل قرار بريغانتى بصيحات الاستكار.

وهنا سأله بيزاشيو:

- هل تسقيني كأساً؟

كان يبتسم إبتسامة الواصلق من نفسه.

فقال بريغانتى:

- نلر أولاً ماذا وجدت.

- ليس دون سيزار هو الذي سيغتصب ماربيت وليس المهندس الزراعي أيضاً، إنما أنت يا ماتيو بريغانتى.

علت صيحات الاستكار مجدداً، فهو في منتهى الخسة والعبودية تجاه معلمه الدائم، وهذا لم يعد لعباً.

قال ماتيو بريغانتى بعزم:

- لقد أحسنت إجابة.

وقوبل من جديد بصيحات الاستكار.

أخذ بريغانتى كأساً فملأها وقدمها لبيزاشيو قائلاً:

- بوسحك أن تطلب منى كأساً ثانية وثالثة، بل الجرة كلها إذا ما شئت...

تضاعفت الأصوات مستنكرة ومستهجنة. وكأن الحانة باتت ملجأ

للغوغاء. خبط ماتيو بريغانتى على المائدة بقبضة يده صائحاً:

- أصغوا إليّ.

مرّ وقت لا بأس به حتّى ساد الصمت من جديد.

- أصغوا إليّ، سوف أروي لكم كيف أفعّل، أنا ماتييو بريغانتي، عندما أريد أن أغتصب بكرًا.

ران سكون تام على كافة أرجاء الحانة.

انحنى بريغانتي صوب طونيو قائلاً:

- أصغِ إليّ جيّداً. هذا درس سوف ألقّنك إياه، لكنّك لن تجني منه فائدة تذكر، فبطنك خاو.

تحوّلت الأنظار لحظة نحو طونيو، الضحيّة التي وقع عليها اختيار «القانون». ثم ارتدّت مشدودة إلى ماتييو بريغانتي الذي هبّ منتصباً فقال:

- لنفرض أن مارييت واقفة هنا، قرب المائدة...

وسرد رواية واضحة ومفصّلة ودقيقة، عما يحزم كل واحد بتحقيقه.

امتّع لون طونيو حتّى صار بلون سترته البيضاء المنشأة حديثاً. كان بعضهم يرمقه بطرف عينه استعداداً للإمساك به وتقييد حركته إذا ما بدرت منه بادرة. إلا أنّه ظلّ ساكناً، يتابع بعينه فقط حركات بريغانتي وإيماءاته.

ولقد ألحّ بريغانتي إلحاحاً خاصاً على وصف العنف في التمزيق. ولما كان ناحل القوام، جافاً ومتين البنية، فإنّ الوصف بدا شديد التأثير.

كان طونيو يحدّق فيه بنظرات باهتة فارغة مثل مشاهد أمام شاشة التلفزيون.

انتهى بريغانتي من سرد تفاصيل روايته قائلاً:

- هكذا.

استمرّ الصمت لبعض الوقت ثم انفجرت القاعة بالتصفيق. استأنف

العديد من الحضور تقليد حركات الاغتصاب. وعاد آخرون إلى الثغاء، فصار

ثَغَاوَهُمْ يَصْمُ الْآذَانِ. وَأَكْثَرُ مِنْ مَرَّةٍ قَامَ اثْنَانِ يَتَطَاخَانِ مَقْلَنَيْنِ عِرَاكِ التِّيَّوسِ
قَبْلَ الْوُثْبِ لَنَيْلِ الْأُنْثَى.

ثُمَّ رَجَعَ مَاتِيُو بَرِيغَانْتِي لِلْجُلُوسِ فِي مَكَانِهِ مُوَاكِهًا لَطُونِيُو. فَمَلَأَ كَأْسًا
مِنَ النَّبِيذِ وَمَدَهَا إِلَيْهِ قَائِلًا:

- إِشْرَبْ.

تَتَاوَلِ طُونِيُو الْكَأْسَ بِصَمْتٍ فَكَّرَعَهَا دَفْعَةً وَاحِدَةً.

خَلَطَ الْأَسْتِرَالِي أَوْرَاقَ التَّارُوتِ لِلْجَوْلَةِ الْتَّاسِعَةِ. لَبِثَ طُونِيُو سَاكِدًا
لَا يَتَحَرَّكُ. فَقَالَ لَهُ السَّاقِي:

- أَنَا أَدَيْتُكَ.

لَمْ يَنْبَسْ طُونِيُو بِبَنْتِ شَفَةِ. مَدَّ يَدَهُ وَتَتَاوَلِ الْأَوْرَاقَ الَّتِي كَانَ
الْأَسْتِرَالِي يُوَزِّعُهَا.

* * *

اسْتَوَى دُونُ سِيزَارٍ عَلَى كَنْبَتِهِ الْمَعْهُودَةِ فِي الْقَاعَةِ الْكُبْرَى لِلدَّارِ ذَاتِ
الْأَعْمَدَةِ. فَمِنْذُ بَدَايَةِ السَّهْرَةِ، وَنَظَرُهُ لَا يَفَارِقُ تَمَثُّلًا صَغِيرًا مِنَ الْفَخَارِ جَاءَهُ
بِهِ صَيَادُوهُ، فَوَضَعَهُ عَلَى الطَّائِلَةِ، تَحْتَ نُورِ السَّرَاجِ.

وَجَلَسَتْ فِي الْطَّرَفِ الْآخَرِ مِنَ الطَّائِلَةِ، وَهِيَ مَنْضُدَةٌ ضَخْمَةٌ مَصْنُوعَةٌ
مِنْ خَشَبِ الزَّيْتُونِ، نِسَاءُ الدَّارِ: جُولِيَا الْعَجُوزُ وَبَنَاتُهَا الثَّلَاثُ مَارِيَا وَإِلْفِيرَا
وَمَارِييْتِ، يَتَقَافِضْنَ بِحِدَّةٍ تَحْتَ نُورِ سَرَاجِ ثَانٍ.

النِّسَاءُ قَاعِدَاتٌ عَلَى مَقَاعِدِ خَشَبِيَّةٍ بِمَحَاذَاةِ جَانِبِي الطَّائِلَةِ، أَمَّا دُونُ
سِيزَارٍ فَاسْتَوَى عَلَى كَنْبَتِهِ الْكُبْرَى الْمَصْنُوعَةِ مِنْذُ قَرْنَيْنِ مِنَ الزَّمَنِ فِي
نَابُولِي، بِمَسْنَدِهَا مِنَ الْخَشَبِ الْمَحْفُورِ الْمَذْهَبِ وَمَتَكَاتِهَا الْمَقْنَطَرَةُ الْمَحْفُورَةُ
كُوجِهِ آلِهَةٍ مُتَجَهِّمَةٍ. لَقَدْ تَأَزَّرَتْ تِلْكَ الْكَنْبَةُ، وَالْقَدْرَجُ الْمَشْرِقُ لَأَكْوَانِ الطَّائِلَةِ
الْكُبْرَى الْمَصْنُوعَةِ مِنْ خَشَبِ الزَّيْتُونِ، فَأَضْدَفَتْ عَلَى الْقَاعَةِ جَوًّا مِنَ الْأَبْهَةِ

والعظمة، وصار دون سيزار يستقبل ضيوفه فيها مذ أن خصّص صالات الطابق الأول برمتها لاحتواء مجموعات الأثرية.

أمّا في الظل الذي يلف نهاية القاعة، فيقوم موقد هائل على شاكله ما يصنعون في الشمال، وهذا المظهر من الترف جرى تشييده في أواخر القرن الماضي نزولاً عند رغبة والد دون سيزار. وتقوم النساء بطهو الطعام فيه باستخدام ركابة يوقدن تحتها الفحم الخشبي كما يفعلن في المنازل غير المجهّزة بموقد.

ظلّ دون سيزار جالساً يحدّق في التمثال الفخاري الصغير الواقع تحت ضوء السراج الخافت، إنه يمثل راقصة ضيقة الوركين، تظهر ثنيات الجلباب حولها ورقتها.

علا صوت النساء وهن يتحدثن، لأنهن يعرفن أن دون سيزار لا يصيح السمع لكلامهن. ويمكن الظنّ أنه لم يعد يسمعن مطلقاً منذ سنين. لكنّ هذا لا يمنعه أحياناً من أن يخبط براحة كفه على الطاولة، حين يصرخن صراخاً عالياً، فيقول:

- يا حريم!

فيصمتن، ثم يتكلمن همساً، لتبدأ نبرة أصواتهن بالارتفاع تدريجياً حتى يشرعن بالصراخ مجدداً دون أن يدو عليه أنه يلاحظ ذلك.

حين اختلف دون سيزار مع النظام الفاشي عام ١٩٢٤، فقدّم استقالته ضابطاً، كان في الأربعين من عمره. وقد باشر كتابة تاريخ أوربا، المدينة اليونانية المزدهرة، وإحدى مستعمرات أثينا، التي شيّدت في القرن الثالث قبل الميلاد بين البحيرة والبحر، أي منطقة الأرض السبخة حالياً. كما أن أباه الذي دخل في خصام مع آل بوريون حكام نابولي، وعم أبيه، أسقف بينيفان، المغضوب عليه لمقاومته البابا الراهب أنيبال ديلا جنغا، قد قاما من قبل، بعملات تجميع وتصنيف للأثرية التي يعثر عليها صيادو الأرض السبخة وفلاحو بساتين الزيتون.

أقام دون سيزار بعد تقاعده في قصر العائلة في كالا لونغا، وهي مدينة صغيرة قائمة على رأس الهضبة الصخرية التي تقي بورتومناكوري من رياح اليابسة. كان الابن والأب كلاهما ملكياً متحرراً، نشأتهما وسط تقاليد دار سافوا الماسونية. بيد أن الأب تحالف مع الفاشية بسرعة. ثم جاءت القطيعة النهائية بينهما إثر توقيع المعاهدة البابوية عام ١٩٢٩. لقد رأى دون سيزار أن موسوليني يتساهله مع البابا، وأن ملك إيطاليا بموافقته على المعاهدة، قد خانا إنجاز التحرير العظيم الذي تعهده فيكتور عمانوئيل الثاني وغاريبالدي وكافور. فنزل إلى الأرض السبخة، مصطحباً معه قسماً من العاديات.

ثم قام بتجميع كل ما كتب عن الاحتلال الإغريقي لإيطاليا الجنوبية، وتابع دراسات جدية في نابولي معتمداً على إتقانه الجيد للفرنسية والإنكليزية، ثم مالبت أن تعلم الألمانية كي يقرأ للمؤرخين مونخ وتودت، وكل منهما حجة في تاريخ العصر الهيلينستي. وتمكن في السنين الأولى من تجميع كمية ضخمة من الأمالي والملاحظات. ثم رسم مخطط مدينة أوربا. فالسهلة الترابية أمام دار الأعمدة هي موقع الساحة الرئيسة، الأغورا. كانت مدينة أوربا القديمة مكرسة للإلهة فينوس. أما معبد الربة فكان يرتفع فوق تل صخري صغير عند طرف مصرف البحيرة. وباشر دون سيزار أعمال التنقيب، فتبين له أن البحيرة كانت ميناء كبيراً.

ظلّ يقيم، بعد وفاة والده، في الأرض السبخة التي ألفها وطاب فيها عيشه. فهو يمارس صيد السمك والقنص ويعقد مجالس الشراب مع أهل بيته.

كما كان يدفع بسخاء ثمن العاديات التي يحضرونها له. وبالمقابل كان الرجال يتظاهرون بأنهم يجهلون روابط العشق التي يقيمها مع بناتهم أو شقيقاتهم. وكان من ناحيته يجد المبرر لحضورهن إلى دراه، في الحاجة إلى الأعمال المنزلية المتنوعة: كالغسيل والخياطة أو نقشير الذرة أو تجفيف التين. وعلى هذا النحو كان عرض الرجال مُصاناً.

حين كانت تروقه الفتاة بعد الليلة الأولى، يستبقها خادمة في البيت. ولم يمارس أحد عليه ضغطاً أو ابتزازاً على الإطلاق. فمن تقاليد الأسىاء في سبغة أوربا تمتين عرى الصداقة مع بنات دورهم ونسائها.

وإن لم تعد الفتاة تجد هوئ في نفسه، كان يزوجه. إلا أنه رغب في بقاء جوليا بعد تزويجها، لأنها طاهية ممتازة، ولأن زوجها شديد العناية بالعائيات. ولقد كلفه بصيانة المجموعات فلم يكسر قطعة واحدة طول عشر سنين. وتابع الاحتفاظ بها من بعده بسبب بناتها.

كان ينقل كل عام للإقامة خمسة عشر يوماً فقط في قصر كالالونغا. أي ما يكفي لتسوية الأمور مع الذين يتولون إدارة ممتلكاته. كان الخشب يحتل القسم الأكبر من عائذاته. فهو يمتلك المساحة الأوسع من غابة الظل، التي تكمل هامة الهضبة الصخرية وراء بورتومناكوري. أما بساتين الزيتون والبرتقال والليمون فمتناثرة فوق الروابي المبعثرة كأنها حصون الجبل الأولى. كان يبيع المحاصيل قائمة، ومنذ مرحلة الإزهار، لضمامين ورجال أعمال يأتون من فوجيا، فيأخذون على عائقهم كل ما قد ينجم عن تقلبات الطقس. صحيح أنهم كانوا يجرون حساباتهم بدقة، فيتركون هامشاً واسعاً لما قد يحدثه غضب السماء من أضرار.

بيد أن كسب دون سيزار أنه يصير في غنى عن الاهتمام بهذه الممتلكات، طول الفترة المتبقية من السنة. لكنه يذوئ بنفسه إدارة مصائد الأسماك في البحيرة والأرض السبغة، يساعده في ذلك «الرجل المقرَّب». وإذا كان مردودها متدنياً فإنها تبقى الأقرب إلى نفسه. هنالك يتسلى بصيد السمك ويمارس القنص فهي له أرض المتعة والمسرات.

وعلى مرَّ الأيام، ازدادت، مع متانة التواطؤ، عمليات الاختلاس والسرقة. فالوكلاء والضمامون ورجال الأعمال صاروا ينهبونه أكثر فأكثر. وتراه مع ذلك لا يلقي إليهم بالاً، لأنَّ متطلَّباته ليست كمتطلَّبات غيره من كبار الملاكين، الذين يمشون قسماً من السنة في روما أو في الخارج. فالمال

المتبقي لديه كاف لنفقات الصيد وثنماً للعاديات. وهو يقدم إعانات عينية للعاملين في أعمال التنقيب ولأسر عشيقاته، قمحاً وزيتاً مما يسدد الوكلاء. فترى الفتيات قانعات بأصغر الهدايا. حسبهن فخراً أنهن يؤمنن لأسرهن لقمة العيش. كان دون سيزار على أحسن حال، رغم السرقات الضخمة التي يتعرض لها على الدوام. فالوكلاء يُكنون له كل احترام ويسرقونه في الوقت ذاته، لأنهم يعرفون أنه يعرف أنهم يسرقونه. لم يكن إنن أضحوكة بل كان عفاً كريماً. وتثبيتاً لهذا الرأي كان يضيق ذرعاً أحياناً بواحد من هؤلاء الوكلاء فيطرده. فيمضي الرجل من ساعته لينضم إلى رتل العاطلين عن العمل، الواقفين بمحاذاة الجدران حول الساحة الكبرى في بوردومناكوري.

كان قصر كالاونغا في القرن السابع عشر، معصرة للزيت يملكها أجداد دون سيزار، وكانوا يعصرون فيها كل ما تحتاج المنطقة من زيت، فجزوا منها أرباحاً مكنتهم من شراء ممتلكات زبائنهم واحدة إثر أخرى. لذا فإن القصر في بنائه لم يكن على الدرجة نفسها من الأناقة، التي تميّزت بها الدارة المشادة على الأرض السبخة، حوالي عام ١٨٣٠، بصفوف الأعمدة حسب طراز البناء آنذاك. فالقصر جاثم في أعلى نقطة من المدينة، فوق ساحة صغيرة. تحده من جهة كنيسة بسيطة في طراز بنائها الروماني الحديث، ومن الجهة الأخرى المنازل التي سكنها التجار والباعة، أيام كانت كالاونغا مركزاً تجارياً. أما المعاصر ذات الرحي الحجرية فما تزال قائمة في القبو، متوقفة عن العمل منذ زمن طويل، بعد أن أقام رجال الأعمال معصرة آلية للزيت في الساحة الجديدة عند أسفل المدينة، تعمل بمحرك ديزل. وما زالت الخوابي الفخارية بسعة خمسين ليترًا مصفوفة على أنساق في مستودعات الطابق الأرضي، فارغة. وعندما يأتي أحد لزيارة القصر ويدخل إلى هنالك، يشير دون سيزار إلى الخوابي قائلاً: «تلك هي تماثيل أجدادي». أما الطوابق الثلاثة فكلها مخصصة للسكن. الصالات فيها فينيسية الطراز، وقاعة الطعام إنكليزية، وغرف النوم فرنسية، أما الهرم العلوي عند السقف فيتصل بقبة الناقوس التي يشرف المرء منها على المنطقة بكاملها.

يرسل وكلاء الأراضي في كل عام، وقبل وصول دون سيزار بأيام، نساءهم لتنظيف القصر. فينزعن أغطية الكنبات ويغسلن ما يلزم غسله، ويكنسن ويمسحن الغبار. وتنتهز تلك الفرصة، أسرُّ الوكلاء وأصدقائهم وأصدقاء أصدقائهم، فيزورون القصر، معربين عن دهشتهم وهم يرون الأثاث. وتأخذ بمجامع قلوبهم، بشكل خاص، القاعة النابوليتانية من القرن الثامن عشر، بمراياها الكبيرة ذات الأطر الخشبية المذهبة، أيام الإقبال على اقتناء التحف الصينية وتمثيلها ذات الأشكال الغريبة (قام النابوليتانيون الأغنياء بتقليد الملتزمين^(١))، في بناء قصورهم وتجهيزها بشكل خاص). لقد أوعز دون سيزار بنقل كنبة وحيدة من هذه القاعة تحديدا، لتوضع في دارته في الأرض السبخة، من بعد وفاة والده.

يستقبل دون سيزار في كاللونغا، طول الأيام الخمسة عشر التي يمضيها هنالك، جميع أفراد قرابته، وسلائل الفروع الذين لم يرثوا الأراضي والممتلكات الواسعة أو ورثوا ملكيات صغيرة. وكلهم من المحامين والأساتذة والأطباء والصيادلة، لكن يشكّل المحامون الأغلبية. وهم يقدون إلى القصر من كاللونغا ومن المدن المجاورة، مصطحبين كافة أفراد عائلاتهم. فيستقبلهم دون سيزار في الصالة الفينيسية الرحبة، حيث أحضر لنفسه فقط كنبة إنكليزية، في حين يجلس الآخرون على مقاعد غير مريحة، ذات مساند صلبة من الخشب اللامع. ولا يستثني إلا ابنة عم له أو ابنة ابن عم، فيجلسها على كرسي جلدي قريبا منه، شريطة أن تكون جميلة.

بعد وفاة والده ببضع سنين، وبعد أن ثبت لدى الجميع أنه لن يتزوج، وبات كل قريب يحلم بأن يخصصه لإرثه دون سواء، صار دون سيزار يتسلى بإذلالهم. فيرغم المسؤول في الحزب الفاشي من بينهم على أن يحدثه عن

(١) أمراء ذوو نفوذ كانوا يضمّنون جباية ضريبة العشر للاخزينة فيجنون لأنفسهم أيضاً
مبالغ طائلة. (م)

مثالب الحزب، وعن عمليات التهريب التي تمارسها الزبانية القيادية وعلى رأسها تشيانو^(١)، وعن مغامرات الدوتشي الداعرة.

ويضع نهاية لحديثه بعدد من الشنائم الجنوبية المقدعة. كما كان من ناحية أخرى يرغب النساء الورعات على التجديف:

- إيه، يا عمتي، متى ستأتيني بتلك الراهبة الصغيرة؟ لكن صرّحي أولاً بأنك ستكونين مرتاحة جداً وأنت ترينني أظعن الروح القدس في شرفه.

- أجل يا ابن أخي.

- قولي إنك ستكونين مرتاحة...

- سأكون مرتاحة، يا ابن أخي...

فيلجّ طالباً أن تردّد من بعده:

- لرؤيتي أركّب قروناً للروح القدس..

- لرؤيتك تركّب يا ابن أخي...

- قروناً للروح القدس.

- قروناً للروح القدس، يا ابن أخي.

وتكرّر المرأة التقيّة الكلام الذي يقول.

ثم يُغرق الجميع في ضحك صاخب.

ذلك كان قبل الحرب العالمية الثانية.

أمّا الآن فيستقبل دون سيزار أقرباءه بصمت. إنه يعرف أن روح العبودية البشرية ليس لها حدود.

أمّا من قبل، أي حين لم تكن قنّاعته تلك قد ترسّخت، فكان يعمد إلى جسّ أفخاذ الفتيات أمام أعين أهلنّ الجالسين، مستقيمين بجذعهم، فوق

(١) تشيانو صدير موسولينّي ووزير خارجيته. (م)

المقاعد الفينيسية المتعبة. كان يتلمس الأثداء والأرداف، فيتحسس ويثمن ويخمن متلفظاً بكلمات فظة. فينهض الآباء والأشقاء خلسةً، ويتظاهرون بتجانب أطراف الحديث أمام النوافذ، مولين الصالة ظهورهم، تحاشياً للإهانة، وخوفاً من أن يتدخلوا مرغمين دفاعاً عن الشرف. أما الأمهات فيهتفن صائحات:

— آه منك يا دون سيزار! أنت لم تتغير، ولن تشيخ أبداً...

فيما الفتيات يخفين استياءهن بمشقة أكبر. أما إذا تمكن من محاصرتهم في إحدى الغرف المعزولة، باختلاق أي مبرر مقبول، فلا يعتبرن أنهم تعرضن لمهانة أو إذلال. فلقد تعلمن منذ نعومة أظافرهن أن يكن محط أنظار الرجال ومثار رغباتهم وموضع استهائهم. ففي ذلك فقط المنجى الوحيد لهن من الخيبة الأبدية التي تتهدد حياتهن بالعنوسة. أما عملية جسنهن على ذلك النحو أمام الناس، كما يتحسسون الماعز في السوق، فتظل إهانة متعمدة. فمنهن من كانت تحمرّ خجلاً وأخرى تصفرّ ويُمْتَقع لونها تبعاً لمزاجهن. إلا أنهن لا يثرن أية فضيحة، إما خوفاً من توبيخ الأمهات، أو خشية إلحاق الإهانة بالآباء والإخوة، واقتحام ميدان مقتصر على الرجال، بتصديهن لمهمة الدفاع عن الشرف بدلاً عنهم. فيما هم منها يتهرّبون.

ومع ذلك، فقد أخذ الغضب ذات يوم من إحدى الفتيات كل مأخذ. جرت الواقعة بعد الحرب مباشرة، على أثر الفوضى الناجمة عن عمليات التحرير والاحتلال المتوالية، التي وضعت في متناول الفتيات أفكار الحرية والكرامة. فقد أفلتت من قبضته فجأة وصرخت به قائلة: «أيها الخنزير العجوز».

لقد طرب دون سيزار لتلك الكلمة إلى حدّ يتجاوز كل تعبير. فأسكت الأم التي اتهمت ابنتها بأدّها أساعت فهم المداعبات الأبوية العطوفة من عمّ والدّها. ولا بدّ أن يكون خيالها (حسب قول الأم) قد شطح بها نحو نوايا فاسدة. وما إن رجع إلى دار الأعمدة حتى أرسل في طلبها لمساعدته في تصنيف أثرياته. وطول شهر كامل لم يتوجّه إليها بكلمة خارج نطاق شرح

طرق التصنيف والعنونة ونظام البطاقات. أجادت الفتاة العمل أيما إجادة، فهي على مستوى لا بأس به من التعليم، حتى أنها لم تحدث أي خلل في تنظيم المجموعات. إلا أنها من ناحية ثانية لم تتوجه إليه بأي سؤال على الإطلاق فيما يتعلق بمدينة أوريا القديمة.

أما هو فكان في جعبته ألف حكاية جاهزة ينتظر أن يرويها لها. صار يحلم بها فتاة ذكية يمكن أن يتخذها مساعدة له. كانت تعمل كآلة عشر ساعات يومياً، إما في الطابق الأول أو في القسم العلوي تحت سقالات السقف، وسط الحرارة اللاهبة، حين ترمي شمس آب، شمس الأسد، بكل نبأها. أما حياتها فيما تبقى من الوقت فجحيم فعلي. فالتجوز جوليا وماريا التي كانت القيادة بيدها آنذاك، وإلفيرا التي كان زوجها ما يزال حياً، وأخيراً مارييت التي تقارب السابعة، وهي في سن تمييز الخير من الشر، هؤلاء جميعاً تضافرت جهودهن على الكيد لها وإلحاق الأذى بها بكافة السبل وكل الوسائل. وليت الأمر يقتصر على تدوين طعامها، أو ترديد الكلام النابي على مسامعها، وكَيْل أقدح الشائيم لها بصوت خافت في غدوها ورواحها. بل تعداه إلى إنذار رهيب وتهديد لا مثيل له: فكلما جاءت لتنام وجدت فوق سريرها بصلة الكراري. إن السائل في بصلة الكراري يُلهب الأغشية المخاطية فتتورم وتسري ناره في الجسم كله حتى ليتمكن أن يتسبب في بعض الأحيان بالموت. وهو يُفرض عقوبة. فيقال: «سأزوّجك من بصل الكراري». وتمثل هذه العبارة ذروة التهديد بالعقوبة الجسدية، التي كانت تُنزّل قديماً بالبغايا، اللواتي يفسدن قدسية الحياة الزوجية. وتبّت بصلة الكراري بكثرة وسط الكتبان الرملية، ولها زهرة كبيرة بيضاء نجمية وعطرة. وشكلها غاية في البراعة.

أما في عذمة الليل فكانت تنصت لوقع أقدام حافية تمشي أو تهرول في الممر. تليها خرمنشة أظفار على بابها وصوت نساء يتحدثن همساً.

و ذات مساء دخلت غرفة نوم دون سيزار دون أن تدق الباب. كانت صامتة ممسكة كقميص الذوم الأبيض الذي ترتديه. فضمها إليه دون متعة وأرسلها في اليوم التالي إلى ذويها.

ولم يعد يستهويه من بعدها البحث عما إذا كان لروح النذل والعبودية من حدود.

قد لا ينحصر السبب في تلك القرية الصغيرة، التي لم تحافظ على كبريائها كما كان يعقد الأمل (والتي لم تبد اهتماماً يذكر بمدينة أوربا النبيلة)، بقدر ما يتعلق بالأحداث السياسية. لقد ظل يحطم بعد التحرير بيقظة إيطاليا من جديد. لكن حكومة الكهنة هي التي تلت عهد موسوليني، ولم تكن، حسب رأيه، بأفضل منه صوناً للكرامة الإنسانية.

لقد صاغ في التاريخ، منذ المرحلة الأولى من الدفي الطوعي الذي اختاره، فلسفة خاصة به. والواقع أن كل رجل علم وثقافة في جنوب إيطاليا له فلسفته الخاصة في التاريخ. فالمملوك يتغلبون على البابا، والشعب يسقط المملوك. لكنه يستسلم للكهنة الذين يستعيدون الحكم من بين يديه. هكذا أعاد بناء تاريخ العالم استناداً للمثال الإيطالي. فالتعصر اللاهوتي يليه العصر البطولي فالعصر الدييمقراطي. ثم تعود الكرة لتتوّد هذه العصور ويتداخل بعضها في البعض الآخر في عود أبدي. فالتعصر البطولي هو عصر المملوك وذروة هذا النظام. لكن الطغاة، وهم أبطال الشعب المزيقون، يمهدون الطريق دائماً أمام عودة الحكم إلى أيدي الكهنة. وهذه حال موسوليني حين وقع المعاهدة مع البابا.

تأثر دون سيزار تأثراً كبيراً بأراء الفيلسوف النابوليتاني جان باتيست فيكو الذي عاش في القرن الثامن عشر، وكان رائداً لكل من هينغل ونيتشه. وجاء الإعلان عن عهد الأبطال المملوك من فيكو نفسه. لكن هذا العهد لم يعمّر طويلاً في إيطاليا. فشاء الحظ لدون سيزار أن تقع ولادته على أسوأ منحدر من «العود الأبدي». فالاستفتاء الشعبي عام ١٩٤٦ وإعلان

الجمهورية الإيطالية، وضعا حداً نهائياً لأعلى آماله. وإنَّ الملك أومبرتو الثاني برحيله إلى البرتغال، ترك الساحة خالية للغوغاء والكهنة.

سبق لروما أن عرفت ذلك فيما مضى. فقد بدأ انحطاط روما، وفق ما يرى دون سيزار، مع نهاية الحروب القرطاجية. وأغسطس قيصر هو عملياً أول البابوات الإيطاليين. ففي عهد أغسطس بدأ ميناء أوربا يمثلئ بالرمال. وقرّر دون سيزار الكفّ عن قراءة الصحف.

حين أصبح مبعوثو الحزب الملكي يقصدونه من بعد، طلباً للمال، صار يُجلسهم على الأريكة الخشبية أمامه، وهو مستو على كنبته النابوليتانية من القرن الثامن عشر. فينظر إليهم متغضّناً الأجفان يصغي لحديثهم صامتاً، من غير أن يتفوّه بكلمة، تأييداً أو معارضة.

لقد ازداد صحةً دون أي تهكّل. فهو أبداً طويل القامة مستقيماً، عظيم المحيا. لا يذمّ وجهه على أي تعبير إلا ذلك التغضّن الذكيّ في العينين. وهو صقيل الوجدتين، يحلق ذهنه بعناية كل صباح بالموسى الكبير الذي يستخدمه من مطلع شبابه. أمّا شعره الأشيب فمسرّح بكل عناية. كان حلاق بعينه يأتي من كالالونغا مرتين في الشهر من أجله فقط. فيستوي هناك إذن، على كنبته ذات المتكات المقلّطة، جامداً ضخماً متنبّهاً، سادراً في انتظار تغلّب حدث ماء، يعرف سلفاً أنّه ينبغي ألا يقع. مثلاً هو جالس تماماً هذا المساء، ونظّره مستقرّ على التمثال الفخاري الصغير الذي حمّله إليه صيادوه، فيما نساء داره جالسات في الجانب الآخر من الطاولة المصنوعة من خشب الزيتون، والنزاع الدائر بينهن يشدّد وتعلو حدته. وكثيراً ما كان مبعوثو الحزب يتساءلون عمّ إذا كان تنبيهه الظاهر موجهاً إليهم وإلى ما يقولون.

حين يختتمون حديثهم، يمدّ يده إليهم بمظروف معدي سلفاً، دون أن ينطق بكلمة. فينصرفون متممين بعبارات الشكر والاعتذار وقطع الوعود. ويرافقهم طونيو حتى رأس الدرج الخارجي، وما إن يقترب من الدرجة الأولى حتى يصيح:

- عاش الملك، يا سائتي!

فيريدون على كتفه ويعطونه إكرامية قائلين:

- إن دون سيزار محظوظ جداً لأن رجله المقرب واحد مثلك.

كانوا يعرفون حق المعرفة، أن طونيو خادم وأجير، أكثر منه رجل ثقة يعتمد عليه. وأنه فوق ذلك يصوت للحزب الشيوعي مثل شعب مياكوري كله. إلا أنهم يقولون ذلك بدافع الرغبة في الكلام والتخلص من تأثير صمت دون سيزار.

إنه ما يزال هنالك جالساً ضمن الهالة الضوئية للسراج، ضخماً مستقراً على كنبته، بأسط الذراعين فوق المتكآت المقلّطة، محدقاً في التمثال اليوناني الصغير متغصن الأجران بعض الشيء.

كانت النساء منهمكات بمحاولة إقناع مارييت بالدخول في خدمة المهندس الزراعي.

تقدم الرجل بطلبه قبل أسبوع. وقال إنه سيعود بين يوم وآخر لتلقي الجواب. حينها أحاطته جوليا علماً بأن عليها الحصول على موافقة دون سيزار. إلا أنها لم تحسب أي حساب للرفض الذي قابلت به مارييت هذه الفرصة السانحة التي لا تعوض.

مارييت مصرّة إصراراً تاماً على قول «كلا». لا، لن تذهب لتخدم في بيت الأومباردي ذي البشرة الشقراء. وإذا ما عاد يطلبها ثانية فسوف تبعث به إلى عنزاته.

كانت جوليا تخشى الرفض من جانب دون سيزار فقد ضبطته مراراً وهو يطيل النظر إلى ابنتها الصغرى. وهي تعرف مغزى نظراته الثقيلة المتقطعة.

إنه يريد لها لنفسه دونما شك، مثلاً حصل على شقيقتيها الاثنتين من قبل. وكان دون سيزار يبتسم ابتسامته الخفيفة المعهودة التي لا تلاحظ، ابتسامة الماضي المأكرة.

كلا، مارييت لا تريد.

شرعت الشقيقتان تصفان لها الإصطبل النموذجي الذي سيكون تحت إمرتها. إنه قصر ألف عنزة وعنزة. فالشارب فيه آية. والحلابات آية بدورها. المرباط تغسل بماء الذواخير والمخالط تعمل بمحرك. ويقصد الزوار المكان من مقاطعة فوجيا كلها، بل منهم من يأتي من نابولي. وبدأتا تتخيّلان مارييت ملكة تسود ذلك كله، فتستقبل الزائرين بكل أبهة، وتوزع الهدايا. والواقع أنهن جميعاً، الأم وبناتها، ومارييت معهن، لا يعتقدن أن المهندس الزراعي، حين طلب مارييت للخدمة في داره، قصد كلمة «خدمة» بمعناها الحرفي الضيق. فالخدمة هي المبرز الظاهر الشريف. وقد أدركن أن المهندس يريد مارييت لتشاركه سريره دون أن يكون عاقداً العزم على الزواج منها. فأعدن للأمر عنده فوراً بحيث يأخذها أولاً - لا بل دفن به إلى ذلك المنحى دفعاً - ليتكن فيما بعد من إرغامه على الزواج. وإلا فإنه سيدفع الثمن باهظاً جداً.

من بين المغريات لدى ذلك اللومباردي سيارته من ماركة فيات ألف ومئة، كالتى لدى مفوض الشرطة.

قالت لها إلفيرا:

- سوف يأخذك إلى مدينة بولونيا .

(إنّ العدد الأكبر من الذين يقصدون الأرض السبخة لقنص طيور الحديد يأتون من مدينة بولونيا. والواقع أن بولونيا بالنسبة للمناكوريين هي المدينة الشمالية بامتياز).

قالت العجوز جوليا:

- حين كنت صبية وعندي دون سيزار بأن يأخذني إلى مدينة بولونيا.

فقالت ماريا:

- وأنا أيضاً، وعندي دون سيزار بأنه سيأخذني إلى بولونيا. وإنها مدينة يجتازها المرء من طرف إلى طرف تحت القناطر.

فَقَالَتْ الْفَيِّرَا:

- وَأَنَا أَيْضاً، لَقَدْ وَعَدَنِي بِأَنْ يَصْطَحِبَنِي إِلَى هُنَاكَ. وَقَالَ لِي إِنَّهَا مَدِينَةٌ يُمْكِنُ الْمَرْءُ مِنَ السَّيْرِ فِي شَوَارِعِهَا سَاعَاتٍ بِطُولِهَا تَحْتَ الْمَطَرِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَخْشَى الْبَلْلَ.

فَأَضَافَتْ مَارِيَا تَقُولُ:

- سَوْفَ يَأْخُذُ الْمُهَنْدِسُ الْزَّرَاعِي مَارِييتَ إِلَى هُنَاكَ، وَسَوْفَ يَلْبِي لَهَا كُلَّ طَلْبٍ. لَقَدْ شَغَفَتْهُ وَسَحَرَتْهُ.

لَكِنْ مَارِييتَ تَهْزُ رَأْسَهَا رَفْضاً. بَلْ لَمْ تَعُدْ تَرُدُّ عَلَى مَا تَقُولُ أُمُّهَا وَشَقِيقَتَاهَا. لَنْ تَذْهَبَ إِلَى دَارِ الْمُهَنْدِسِ الْزَّرَاعِي. لَقَدْ أَحَاطَتْ ذَفْسُهَا بِالصَّمْتِ، وَكَانَتْ فِي الْعِنَادِ مِثْلَ دُونِ سِيزَارِ.

بَدَأَتْ كُلُّ مِنَ النِّسَاءِ الثَّلَاثِ تَتَفَكَّرُ فِيمَا يُمْكِنُ لِرَفْضِ مَارِييتَ أَنْ يَحْرِمَهَا مِنْ نَعِمَاتٍ أَوْ يَبْعِدَهَا عَنْ مَنَآلِمِهَا. فَمَارِيَا تَتَفَكَّرُ فِي الْهَدَايَا الَّتِي يَغْدُقُهَا عَاشِقُ رَاغِدِ الْعَيْشِ عَلَى ذَوِي عَشِيقَتِهِ. وَالْفَيِّرَا تَتَفَكَّرُ فِي أَنْ تَزِيحَ مِنْ دَرْبِهَا مَنَافِسَةً بَلَّغَتْ سَنَ احْتِلَالِ مَكَانِهَا قَرَبَ دُونِ سِيزَارِ. وَجُولِيَا تَتَفَكَّرُ فِي الْفُرْصَةِ الْمَتَاحَةِ لِنَتَالَيْبِ سَكَانِ الْمَدِينَةِ كُلِّهَا عَلَى الرَّجُلِ، لِإِرْغَامِهِ عَلَى الرِّضْوَانِ لِلْقَانُونِ.

هَنَا قَالَتْ الْعَجُوزُ جُولِيَا:

- إِنْ كَانَتْ مَارِييتَ تَرْفُضُ الْمُهَنْدِسَ الْزَّرَاعِي فَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهَا مُتَعَلِّقَةٌ بِرَجُلٍ آخَرَ.

قَالَتْ مَارِيَا:

- إِنِّي أَتَسَاءَلُ مَنْ هُوَ؟ أَمْ لَعَلَّهُ زَوْجِي طُونِيُو؟

كَانَتْ الْفَيِّرَا جَالِسَةً بِجَوَارِ مَارِييتَ فَقَرَّبَتْ وَجْهَهَا مِنْهَا وَسَأَلَتْهَا:

- قُولِي لَنَا، مَنْ هُوَ؟

ارتسم على ثغر مارييت شبه ابتسامة. ولم تجب.

فكررت النساء الثلاث القول:

- إنها متعلقة برجل.

ثم نهضن وأحطن بالفتاة.

- قولي لنا، من هو!

قرصنها إلفيرا في عضدها قرصة موجعة، وبكل لؤم، وأمسكت ماريّا بمعصمها فلوت يدها بعنف بينما تشبّنت العجوز جوليا بشعرها.

- قولي لنا، من هو؟

رحمت مارييت بقوة للتخلص. فوجّهت ضربة من رأسها إلى أمها ووكزة بالمرفق إلى شقيقتها. فتخلصت، ودارت مهرولة حول الطاولة وجاءت لتستقرّ على مقربة من كنبه دون سيزار فوق المقعد الخشبي الصغير الذي يريح عليه قدميه أحياناً.

أصغى دون سيزار للفتاة اللاهثة وهي تعود شيئاً فشيئاً لتلذّظ أنفاسها.

أمّا النساء فأخذن يصرخن. لقد تلقت إلفيرا وكزة قوية من مرفق مارييت في صدرها. ومن المؤكّد أنّها ستموت بسرطان الثدي مثل زوجة دون أوتافيو. أمّا جوليا فالدّم يسيل من شفّتها. لقد حاولت ابنتها أن تقبّلها.

خبط دون سيزار على الطاولة براحة يده. فصمتت النساء من فورهن ومضين ليكنّ في عتمة الموقد الكبير عذد الطرف الآخر من القاعة. وأخذت مارييت وهي جالسة على المقعد الصغير، ورأسها مستند إلى كفيها، ترقب أمها وشقيقتها من فوق ركبتيّ دون سيزار.

ثم أخذ لهاث الفتاة يهدأ شيئاً فشيئاً.

ظلّ دون سيزار يحدّق في الدّمثال اليوناني الصغير ضمن هالة نور السراج.

أما في الطرف الآخر من القاعة وتحت عتمة الموقد فنتهمس النساء بأصوات متلاحقة. إنهن يعددن العدة للقبض على مارييت التي أرادت أن تقتل أمها.

* * *

أعلن ماتيوبريغانتني عن اختتام لعبة القانون. فعليه أن يذهب لمراقبة الحفل. واللعبة نفسها فقدت عنصر التشويق، مذ أن قبل طونيو بأن يشرب كأس المهانة. إن رجل دون سيزار المقرب قد خسر بعدها ست جولات متوالية وصار مديناً بمئتين وعشرين ليرا، لكن ما عاد من أحد يعيره كبير اهتمام. ربما كان ينبغي للحظ أن يعين ضحية أخرى. وربما لا. فلعبة القانون تتطلب وحدة العمل، مثلها في ذلك مثل التراجيديا. واللاعبون المهرة يجيدون إيقاف الجولة الأخيرة حين يتم القضاء على الضحية قضاء تاماً.

غادر طونيو الحانة وصعد متوجهاً إلى الساحة الكبرى ليأخذ اللامبريتا. بدأت جوزيينا رقصاً بوعغي - ووعغي مع الفتى الروماوي تحت صنوبرة مورا. وتابع فرانشيسكو، ابن ماتيوبريغانتني، قيادة الفرقة الموسيقية بكل مهارة. كان نافخ البوق يتألق بألحان منفردة حسب أسلوب مدرسة نيواورليانز. ولم يجد الفتى الروماوي، على الرغم من مظهر العجرفة البادي عليه، كالتقياصرة الرومان في عصر الإنحطاط، مأخذاً على موسيقى الجاز ولا على مراقصته.

فالماناكوريون حضريون. لقد كانوا كذلك في القرن الرابع قبل الميلاد، حين كانت بورتو مناكوري منافسة أوريا، مدينة الإلهة فينوس.

افترق المفوض لتوّه عن المهندس الزراعي. اقترب من الحاجز الأخضر ونظر إلى الراقصين. كان العرق يجعل ثوب جوزيينا يلتصق بكتفها. ورأى المفوض بعيني الروماوي، الثوب ملتصقاً بالكنتين بسبب العرق. فاستدار ومشى نحو الطرف الآخر من الساحة، حيث القسم الذي لا تضيئه المصابيح الكهربائية الضخمة الزرقاء - البيضاء، بالشدّة نفسها.

تحقق سكان المدينة مجموعات يرقبون الحفل من بعيد. يسير المصطفون
المهوينى على الأرصفة مثنى أو ثلاثة، يترقبون نسائم بحرية لا تأتي. أمّا الغلمان،
الوالدونى، الذين يتزعمهم بيبو وبالبو، فيمرقون كعصفه ريح، يندقون من زقاق
فينفذون من بين المصطافين كرشقات النبال. أمّا عناصر شرطة البلدية فيراقبون
الوالدونى، والعصبي في أيديهم.

بلغ المفوض القسم المعتم أكثر في الساحة، فوجد نفسه وجهاً لوجه مع
طونيو الذي أقبل ليأخذ اللامبريتا.

قال طونيو:

- طاب مساؤك، سيدي المفوض.

- طاب مساؤك.

لم يُعِدْ طونيو شيئاً من قبل. لكن ما إن رأى المفوض حتى بدأت
الكلمات تتزاحم في صدره. والحال أنّ نظر المفوض لم يكن واقعاً عليه، إذ
ردّ على تحيته بذهن شارد. كان ينظر إلى ما وراء طونيو ناحية المصابيح
الزرقاء - البيضاء المتوهجة التي تتير مكان الحفل.

بدأ طونيو الكلام قائلاً:

- ذهب أحدهم إلى البرزخ صبيحة اليوم الذي سُْرِقَتْ فيه محفظة
السويسري... كان القدوم عن طريق البحر، بعد الارتماء في الماء من أعلى
الصخور حيث يقوم دون سيزار بأعمال التنقيب.....

استمرّ يسبح صعوداً إلى مصبّ البحيرة... إنه سباح ذائع الصيت.
فحين كان فتياً لقبوه بسيد البحر... ننا من الكتيب مسافة مثني متر نزولا حتى
أسفل الجسر، وراء حاجز الخيزران. لذلك السبب لم يره أحد.

قال المفوض:

- إلا أنت.

قال طونيو :

- إلا أنا. كنتُ وقتها على السطح أُفرد التين ليُجفَ فوق حُصن القصب. فمن السطح، يمكن للنظر أن ينفذ الى ما وراء الخيزران.

- وأنت لم تتذكّر ذلك إلا هذا المساء؟

- لم أجزؤ على إعلامك بالأمر... فالرجل خطر... ماتيو بريغانتي.

حدّق المفوّض في طونيو طويلاً. كان واقفاً أمامه بقامته القصيرة المبتورة، داخل سترته البيضاء وقد زال عنها الآن رونقها وبهاؤها، بسحنه الصفراء وعينيه المريضتين مثل كافة المصابين بالمalaria. فكرّر طونيو القول:

- ماتيو بريغانتي.

انتاب المفوّض إحساس بالكآبة. فقال:

- أمّا بشأنك أنت، فهي مارييت...

فصاح طونيو :

- مارييت لم ترَ شيئاً.

فاستأنف المفوّض قائلاً:

- أقصد فيما يتعلّق بك أنت. هي إذن مارييت التي تعتمل في دمك.

- قلت لك إنّ ماتيو بريغانتي هو الذي فعلها!

- ذلك أنّك تظنّ تراها طول النهار وهي تمشي فيهنّز ردفاها. وأنت

لا تستطيع أن تمّد يدك إليها. فهذا ما يضنيك ويفتّت كبك...

- لقد تعرّف على ماتيو بريغانتي من قبل أن يبلغ اليابسة... فطريقته

في السباحة جعلتني واثقاً من أنّه هو... فله طريقة في السباحة خاصة به...

والكلّ سوف يقول لك ذلك....

فاستأنف المفوّض قائلاً:

- إذن ماتيو بريغانتي يرغب بدوره في أن يمّد يده فيتحمّس مارييت!

- صعد إلى اليابسة من وراء عيدان الخيزران، ثم تسلل من خلف سياج شجيرات ندى البحر...

فقاطعه المفوض قائلاً:

- أنت رأيته. ربما كان ذاهباً للقاء حبيبك مارييت. لكن ليس صبيحة السرقة. فكرّر طونيو قوله:

- بل صبيحة يوم السرقة. رأيته بأمر عيني. أقسم لك على ذلك.

رمى المفوض طونيو بنظرة كئيبة ثم قال:

- صبيحة يوم السرقة كان ماتيو بريغانتني في فوجيا عند أحد رجال الأعمال. وقد تحققت من ذلك بنفسه.

فقال طونيو:

- أنا على استعداد لأن أقسم أمام المحكمة، إنني رأيت ماتيو بريغانتني في البرزخ، صبيحة يوم السرقة.

بدأ الناس يتحققون حولهما لكن عن بعد. كانوا يتساءلون عمّ يمكن لطنوئو دون سيزار أن يقول للمفوض. كان طونيو يتحدث لاهتاً لكن بصوت منخفض. تسلل بيبو زعيم الواليوني، ومساعدته بالبو، فأصبحا في الصف الأول من الفضوليين.

أضاف المفوض قائلاً:

- وكثرة التفكير في أن يبدأ أخرى بدأت تداعبها بثت فيك الشجاعة.

- لكنني أقسم لك على أنني رأيته من وراء السياج، زاحفاً نحو السيارة... فقاطعه المفوض قائلاً:

- هيا انصرف إلى صاحبك مارييت.

تحوّل فخطا خطوة منصرفاً عنه، لكن طونيو أسرع فانتصب في دربه وأوقفه صائحاً:

- يوشك المرء أن يعتقد أن مانيو بريغانتى هو الحاكم الفعلي في
مناكوري!

فدتمتم المفوض قائلاً:

- وجرة حتى التناول أيضاً!

لكنه لاحظ عدد المتجمعين حولهما وبيدو وبالبو في المقدمة. فأمسك
بطونيو من كتفه، وأداره حول نفسه ثم دفع به نحو الامبريتا صائحاً:

- أغرب عن وجهي يا قواد، يا ذا القرون!

كان صوته عالياً ليسمعه الجميع. وتعثّر طونيو فكاد يسقط لولا أن
تشبث بالامبريتا.

ابتعد المفوض بخطى كبيرة نحو المصابيح الكبرى التي تنير مكان الحفل.
كانت الموسيقى متوقفة، والفرقة تأخذ قسطاً من الراحة، وفرانشيسكو
بريغانتى يشرح لرفاقه، أعضاء حلقة الجاز في بورتو مناكوري، إحدى
حركات العزف الجديدة. وجوزينا جالسة على حاجز السطحة التي تشرف
على المرفأ والخليج. والفتى الروماوي يقف إلى جانبها وكنزته الزرقاء ملقاة
على كتفيه بإهمال، والكمان معقودان حول عنقه رغم الحرارة. ذلك أنه شاهد
على صفحات إحدى المجلات أنهم في سان تروبيه يضعون كنزاتهم على ذلك
النحو. كانت جوزينا تضحك، فتظهر شفتاها الحمراء الممتلئتان وعيناها
المحمومتان اللامعتان. إنها الآن تودجج ساقها جيئة وذهاباً فتعلو دوائر
الكشاكش الثلاث التي تزين شلحتها تحت ثوب الحفل ثم تهبط. أمّا الفتى
الروماوي فيرمقها بنظراته دون أن تلوّح على وجهه ابتسامة ما، وشفته
مقلوبة بازدراء.

أقرب المفوض بعض الشيء من الحاجز الأخضر. كان الجميع ينظر
إليه. حياه عدد من الأعيان ، فيما ابتسم له عدد من نساء الأعيان. إنه رجل

وسيم أنيق وفطن وظريف. لما يكن من أحد يعرف أن جوزينا قد بسطت سيطرتها عليه. ثم استدار وقفل راجعاً إلى السراي.

كان طونيو ما يزال واقفاً قرب اللامبريتا. فكَرَّ في أن يدير محركها ويمضي في الليل مسرعاً بقدر ما يرغب. لكنَّ الأفكار لم تأتُه بمتعة تذكر. فعجب من ذلك. ثم أحسَّ بطعم مرار في فمه مثل من أفرط في التدخين. فخطرت فكرة التدخين على باله. قطع الساحة فاشترى خمس سجائر ديناً من محل الموالح والتبوغ الذي ظلَّ مفتوحاً بسبب الحفل. وأشعل سيجارة فور خروجه من المحل.

حين صار وسط الساحة انتابه أول إحساس بالغيثان. لقد تساءل دون روجيرو: «إنَّ لها أظلاف؟» قال الساقى: «ليس لك الحق، يا طونيو». الآن قال المفوض: «قوَّاد ذو قرون». قال بيزاشيو: «أسأت إجابة». قال ماتيو بريغانتي: «انظروا كيف سأفعل». وصل طونيو حتى اللامبريتا فاقترب من المقود اللماح وتقيأ.

ومرَّ رجلان فلمحاه يتقيأ.

- طونيو قد تَعَتَّه السكر. لا شكَّ في أنَّه كان رابحاً في لعبة القاذون.
- أعتقد أنَّه احتفظ بالجرة لنفسه طول الوقت.
- هذا يصيب المرء إن لم يكن متعوداً أن يكون معلماً...

* * *

أقصىَّ الملك أومبرتو الثاني من عرشه.

أمضت الطالبة الشابة شهراً كاملاً في تصنيف العاديات دون أن تلقى سؤالاً واحداً حول تاريخ أوربا. وفي ذلك العام نفسه أُقبلت أعداد كبيرة من أبناء مدينة بولونيا للقنص في البحيرة حتى أنَّهم قاموا بمجزرة حقيقية بين طيور الحديد. وكان في ذلك العام نفسه أن بدأ دون سيزار يفقد الاهتمام.

عاداته كلها لم يطرأ عليها في ظاهر الأمر تغيير يذكر. ثابر على قضاء الليل بصحبة امرأة، مثملاً كان يفعل على الدوام. فإمّا هذه وإمّا تلك. والمرأة في المرحلة الراهنة هي إلفيرا. فعندما ينهض في نهاية السهرة، ليصعد إلى غرفته في الطابق الأول تقوم إلفيرا لقيامه. فتفترق عن باقي النساء وتتبعه من غير أن تتطرق بكلمة. يخلعان ملابسهما بصمت. ويتأكد، وهو في السرير، من وجودها بوضع كفه فوق صدرها أو بإصصاق ساقه بساقها. وحين يأخذ النوم فينقلب على هذا الجانب أو ذاك، يعود للبحث عنها دون أن يستيقظ. فهو بحاجة لأن يلمس أي شيء منها. وحاله هذه لم تتغير مذ أن بلغ العشرين من عمره عام ١٩٠٤: فقد لزمه دوماً أن تكون إلى جانبه امرأة كي ينام. لكنه لا يبادل إلفيرا الكلام مطلقاً. وإذا ما ضمها إليه أحياناً، وبذرة أكبر من ذي قبل، فإنما يفعل ذلك بصمت في عتمة الليل. حتى لتتساءل ما إذا كان يعرف أن هذه هي إلفيرا التي يحتويها الآن بين ذراعيه. لقد آل الوضع إلى ما هو عليه الآن مذ أن فقد الاهتمام.

لم ينقطع عن الخروج إلى القنص. بل ما يزال يأتي بكثير من الطرائد، رغم وجود البولونيين. إنه رام ماهر. ولم يبذل تقدّمه في السن من واقع الأمر شيئاً. فهو يعرف السبخة والكتبان والتلال خيراً مما يعرفها كافة أهل داره. لكنه لم يعد يهتف انشراحاً إذا ما أصاب طريدة متميزة. بل إن نظره لم يعد ينالّق. فهو يقوم بالقنص مثملاً يقوم الجزار بعمله في المسلخ. منذ بضع سنين صار طونيو يرافقه، حاملاً له الجعبة وبنديقية إضافية، لكن دون متعة، بل بنوع من الفزع، كأنه يعمل خادماً لتمثال أو لصنم عظيم، لا يعرف الكل، يمشي بخطى كبيرة رتيبة وآلية، منتقلاً بين أعواد الخيزران والقصب، ووراء شجيرات ندى البحر فوق الكتبان والأشواك على التلال. وتتشوش أفكار طونيو فيتحيل أن عذابات المطهر^(١) من هذا النمط. أي ليست عذابات

(١) مكان تتطهر فيه نفوس الأبرار بعد الموت، بعذاب له أجل محدود، فيل صعدوهم إلى

النعيم. (حسب العقيدة الكاثوليكية وبعض المذاهب المسيحية الأخرى). (م)

الجحيم بل عذابات المطهر، هي كمثل هذه المسيرة بلا نهاية تحت إمرة صنم وفي خدمته. وقد يكون وضع اليمبوس^(١) هكذا أيضاً .

لقد حافظ دون سيزار على عادات الماضي في استقباله لوكلاء الأراضي ورجال الأعمال، والزائرين القلائل الذين يقصدون الدار ذات الأعمدة. بيد أن كلماته صارت تدوي في عالم بلا صدى. وحركاته تجول في فضاء بلا قوام. وحين يعلن عن رغبته في الذهاب إلى السبخة يشرّد الخيال نحو اليمبوس. هكذا صارت الحال مذ أن فقد الاهتمام.

ودون سيزار بلا اهتمام مثل العاطلين بلا عمل. فلا هم مسؤولون عن هذا ولا هو مسؤول عن ذلك. ولا يشعر بأنّ هناك فرقاً كبيراً بينه وبين العاطلين الذين ينتظرون طول النهار، وقوفاً بمحاذاة الجدران من حول الساحة الكبرى في بورتو مناكوري. لكن ليس لديه حتى الأمل بأن يطرأ حادث مفاجئ يثير اهتمامه من جديد. فحتى من الأمل فقد الاهتمام.

قد يطيب له أن يتساءل أحياناً جرياً على عادته في فلسفة التاريخ، لماذا فقد الاهتمام، هو، دون سيزار، مع اقتراب النصف الثاني من القرن العشرين، وهو هنا في سبخة مدينة أوربا. إلا أنّه لا يعلّق أهمية خاصة على هذا السؤال، الذي يلقيه فقط لأنّه حافظ على عادته في طرح الأسئلة. منمّا أبقي على عاداته الأخرى كلّها.

تجول بين عامي ١٩٠٤ و ١٩١٤، أي بين سنين العشرين والثلاثين، في كافة أرجاء أوربا، أثناء إجازته الجامعية، نزولاً عند رغبة والده، كيما تكون تربيته كاملة.

توقّف في البرتغال، في صيف أحد الأعوام، أثناء عودته من لندن وقبل أن يُبحر من فالنسيا إلى نابولي. لقد سبق أن طرح على نفسه آلاف الأسئلة

(١) مكان حيادي، تُقيم فيه نفوس الأطفال غير المعمّدين، ونفوس الأبرار الذين لم يعرفوا المسيح، إلى حين مجيئه يوم الدينونة. ليدخلوا وراءه ملكوت السموات. لكنّ الكنيسة الكاثوليكية أبطلت في أواخر القرن العشرين، هذه العقيدة التي ظلت سائدة قروناً طويلة. (م)

حول أسباب أفول نجم هذه الأمة التي بسطت إمبراطوريتها ذات يوم حول الكرة الأرضية كلها. فتعرت على كتاب لا يكتبون لأحد. وعلى رجال سياسة يحكمون لصالح الإنكليز. وعلى رجال أعمال يقومون بتصفية حساباتهم في البرازيل ويعيشون على مداخيل صغيرة، في بعض مدن الضواحي بلا هدف. حتى بلغ به التفكير حد الاقتناع بأن أسوأ الشرور أن يولد المرء برتغالياً. لقد التقى وهو في لشبونة، ولأول مرة في حياته، بشعب فقد الاهتمام.

وبات اليوم يرى أن الإيطاليين والفرنسيين والإنكليز، قد فقدوا الاهتمام بدورهم. أما الاهتمام فهاجر إلى الولايات المتحدة وروسيا والصين والهند.

إنه يعيش في بلد فقد الاهتمام، إلا المناطق الشمالية منه ظاهراً. الأمر ظاهري فقط. فإيطاليو الشمال، مثلهم في ذلك مثل الفرنسيين، يخفون فقدان اهتمامهم وراء ضجيج سياراتهم ودراجاتهم النارية. فالإيطاليون والفرنسيون بدؤوا بعد الحرب العالمية الثانية «بترغنون»^(١). هذا ما يفكر فيه دون سيزار، دون أن يوليه اهتماماً أكبر.

حتى الاهتمام الذي ظلّ يوليه العاديات قد تغير شكله. وإذا كان ما يزال لديه اهتمام يذكر فذاك اهتمامه بالعاديات. فليس عدم الاهتمام المطلق ممكناً إلا في الموت، الذي هو تخل تام ولا مبالاة مطلقة. إذن، ما زالت مجموعته الأثرية تشد انتباهه. وتستهو به الأشياء الجديدة التي يعثر عليها مصادفة، أهل بيته وفلاحو الأراضي المجاورة. لكنه لم يعد يدون الملاحظات أو يكتب المقالات لمجلات الآثار. فما زال مخطوط مؤلفه الضخم عن تاريخ مدينة أوربا الذي انتهى منه قبل سنين: ألف وخمس مئة صفحة من الكتابة الدقيقة، يرقد في أدراجها، ولم يقدّم بعرضه على أي ناشر. وإذا كان عليه أن يختصر أو يكتب أو يلخص فلمصلحة من سيفعل ذلك؟ وفي سبيل أي هدف؟ أما أن ينشره على نفقته الخاصة فستكون هنالك ستة مجلدات من القسط الكبير، مع الرسوم والصور الإضافية. إنه صرح ضخم تطبع منه عدة نسخ

(١) يشبهون البرتغاليين.

لصالح الاختصاصيين بتاريخ المستعمرات اليونانية في إيطالية الجنوبية في العصر الهيلينستي. وثئن كانت الفكرة قد راقته، فليس إلى درجة الإقدام، متجاهلاً منغصات التشاور مع صاحب المطبعة، وتصحيح المسودات، واستقبال أناس مجهولي الهوية.

كان يحظر بعد عصر كل يوم، في الفترة الواقعة بين القيلولة والعشاء، على كائن من كان أن يزججه. فهم يقولون لك إنه يعمل. كان يتفقد بنظره الأواني وفوانيس الزيت والتمائيل الصغيرة وقطع النقود، وكلها مرتبة ومصفوفة في قاعات الطابق الأول تحت السقائف الخشبية، مصنفة ومعنونة. مثلاً يحدّق هذا المساء في التمثال الصغير، الذي أحضره له صيادوه، والمستقر الآن فوق طاولة خشب الزيتون الكبيرة تحت ضوء السراج. وما تزال مارييت جالسة عند قدميه فوق المقعد الخشبي مستندة بمرفتيها إلى ركبتيها، ووجهها بين قبضتي يديها.

بوسعنا القول إنه يحدّق. مع أن استخدام صيغة الفعل المعلوم، لتحديد نظرته، استخدام غير سليم. وليس لذلك أن يعني أن دون سيزار كان غير فاعل في مواجهة التمثال. فهو لا يراه فقط وإنما يحدّق فيه، على الرغم من أن نظره ليس فاعلاً تحديداً. كذلك يتفكّر فيه على الرغم من أن تفكّره غير فاعل على وجه الدقّة. فالتمثال في فكره، وفي فكره في الوقت ذاته، كافة الأشياء الأخرى التي تضمها مجموعته، وفي فكره في آن واحد، مدينة أوربا كلّها، بل حاضرة أوربا الهيلينية المزدهرة وقد نهضت من قلب السبخة، وساحتها الرئيسة «الأغورا» وقد انكشفت من تحت السهلة القرابية، حيث يجفّف الصيادون شباكهم، ومنازلها البيضاء وبواباتها وقناطرها وصفوف أعمدتها، ومواطنوها الذين كانوا لا يعرفون عدم الاهتمام بكل ما يجري في العالم، وتلك النفحة من الذكاء التي تفوح من اليونان القديمة العظيمة. ونوافير المياه وحاملات الجرار. والمرقأ ومراكبه القادمة محمّلة بخيرات الشرق. ومعبد فينوس المنتصب فوق لسان الجبل الممتد شامخاً في البحر.

ويظل قولنا «إنه يتفكر»، غير سليم تماماً. فصيغة الفعل المعلوم، فيها مجابهة بين الفاعل والمفعول، وتفترض فعلاً يقع من الفاعل على المفعول. في حين أن دون سيزار ظل يفقد الاهتمام من عام إلى عام، حتى صار هو نفسه مفعولاً لذاته. إن دون سيزار المواجه لدون سيزار المتفكر في التمثال الفخاري الصغير وفي حاضرة أوربا الذكيّة، لغريب عن دون سيزار، بمقدار غريبته عن التمثال الفخاري وعن مدينة أوربا المندثرة. وهو، بلا حب ولا كره، ودون أية رغبة مطلقاً في الحب أو الكره، مسلوب القدرة على أي نوع من أنواع الرغبات، مثلما الحال مع حاضرة أوربا المندثرة. ذلكم هو فقدان الاهتمام.

كانت مارييت في تلك الأثناء، وهي جالسة عند قدمي دون سيزار، ترقب من فوق ركبتيه، أمها وشقيقتيها وهن يتهايمن في ظل الموقد الكبير. كانت النساء الثلاث يبتزن أمراً للإمساك بها، فور مغادرة دون سيزار القاعة الكبرى، ومعاقبتهما لأنها ضربت أمها، ولإرغامها على البوح باسم الرجل الذي ترفض من أجله أن تذهب للعمل في دار اللومباردي. لم يكن القلق ليساور مارييت، فهي لا تخشى إلا إلفيرا، المرأة القوية التي تتاهز الثلاثين. وهذه ستبعب دون سيزار إلى غرفته. لكنها ظلت حذرة، فالثلاث مآكرات لا يؤمن جانبهن.

تنام مارييت عادة مع أمها العجوز جوليا في الغرفة نفسها. لذا وضعت في الحسبان أن تهرب حين يصبح دون سيزار داخل غرفته. وسوف تمضي الليل في مستودع أي من بساتين البرتقال والليمون. ولن تكون هذه المرة الأولى. فقد سبق لها مراراً وتكراراً أن نجت بنفسها ليلاً هاربة من نساء الأدار.

نهض دون سيزار فحمل التمثال الفخاري الصغير ودار حول الطاولة متوجّهاً صوب باب الممر. ونهضت إلفيرا بالحركة نفسها فحملت السراج من فوق الطاولة قرب الكنبه وتبعت دون سيزار. وفي اللحظة نفسها أيضاً توجهت ماريا إلى باب الدرج فأحكمت إقفاله بالمفتاح ووضعت في جيبها.

لم يستبدّ القلق بمارييت وهي ترى أنّ وصولها إلى الدرج بات متعذراً. فقد قررت أن تندفع إلى الممر فور وصول دون سيزار وإفيرا إلى غرفتهما في الطابق العلوي. فالممرّ ينتهي بباب يُفتح على شرفة تقوم فوق دعائم نافرة. سوف تهرب من هناك. وسبق لها أكثر من مرة أن قفزت من على الشرفة إلى السهلة الترابية أمام الدارة. سوف تتشبّث بإحدى الدعائم وتسقط. ثم تقفز حافية القدمين وتركض فوق الدروب الصغيرة الملتوية بين أعواد الخيزران.

سار دون سيزار في الممر تتبعه إفيرا حاملة السراج بيدها. فتقدمت العجوز جوليا من عند الموقد، وتقدمت ماريا من عند الباب المؤدي إلى الدرج، باتجاه مارييت الجالسة فوق المقعد الخشبي الصغير، عند أسفل الكنية النابوليتانية الشامخة المصنوعة في القرن الثامن عشر.

استعدت مارييت للانطلاق دون أن يساورها أي قلق. فهي في الواقع لا تخشى إلا إفيرا التي لم تنجب أطفالاً مثل ماريا، والتي مازالت في قمة عنفوان الأرامل الشبابات. إنها امرأة سمراء قوية، كانت تجيد العمل بالمدقة^(١) مثل أي رجل، حين كان زوجها مريعاً يزرع أرضاً جدياً في الجبل، شقيّ فيها حتى لفظ أنفاسه. وتذكّر مارييت كيف كانت إفيرا، والمدقة في يدها، تضرب البيدر دقات موزونة متناغمة كالحداد، مثيرة زوبعة من الغبار. إنها تتذكر ذلك لأنها كانت في الثامنة من عمرها يوم أخذوها إلى عند أختها في الجبل.

ابتعد صوت خطى دون سيزار الثقيلة وهو يجتاز الممر ببطء، كما ابتعد وقع خطى إفيرا بحذاءها ذي النعل الخشبي. وقع خطى دون سيزار الثقيلة، ووقع مشي إفيرا بحذاءها ذي النعل الخشبي. وينعطف الدرج فيبدأ وقع الخطى بالاقتراب لكن من فوق.

(١) عصا طويلة تتمفصل في الوسط وتستخدم لفرط سنابل القمح في الريف الإيطالي حيث لا يعرفون النورج. (م)

اقتربت ماريا من مارييت مسرعة فبدأت هذه بالدوران حول الكنبه.
كانت تتقي أن يعلق ذيل ثوبها بشيء ما. وانتظرت لحظة دخول دون سيزار
والفيرا إلى غرفتهما لكي تنطلق في الممر.

فتح دون سيزار باب الغرفة ووقع نعل الحذاء الخشبي وراءه.
دارت مارييت حول الكنبه وماريا وراءها.

وصل وقع خطى دون سيزار الثقيلة إلى منتصف الغرفة وأصبح فوق
القاعة الكبرى تماماً بينما تحرك نعل الفيرا الخشبيان فأصبحا أمام الصيوان.

خمنت مارييت أن الفيرا تضع السراج في هذه اللحظة فوق الصيوان.

لكن نعلي الفيرا الخشبيين إرتدا على عقبيهما. ها هما قد أصبحا في
الممر. إنها خطى سريعة حثيثة يشبه وقعها صوت الخشاخش عند انتهاء
معزوفة راقصة. وهذا وقع الخطى قد أصبح فوق الدرج.

اندفعت مارييت داخل الممر. لكنها وجدت الفيرا في طرفه الآخر وقد
قطعت عليها الطريق.

الفيرا أطول من مارييت قامه وأصلب عوداً. امرأة في أوج قوتها. ولقد
أرجعت مارييت إلى القاعة الكبرى وهي تكيل لها عدداً من الصفعات القوية
المتلاحقة وتركلها بركبتها على بطنها. وكانت ماريا في انتظارها فأمسكت
بأيديها من وراء وشدت ذراعيها إلى الخلف. وقامت العجوز جوليا بإغلاق
باب الممر حتى لا يتمكن دون سيزار من أن يسمع شيئاً.

كانت النساء قد أعددن القيود في عتمة الموقد ثم قامت جوليا بإخفائها
تحت ثوبها. فقيدن مارييت إلى ظهر الكنبه بربط كل من عرقوبيها إلى إحدى
القائمتين الخلفيتين للكنبه. أما الذراعان فقد شداً إلى أمام وربطا إلى مسندي
الكنبه الجانبيين. فباتت الفتاة على تلك النحو موزعة الأطراف في اتجاهات
أربعة، فيما التصق صدرها ووجهها بالنسيج الخشن الذي يغلف ظهر الكنبه،
وظل ظهرها مكشوفاً على أوسع مدى.

جاءت إلفيرا بإحدى بنادق الصيد المعلقة على الجدار، فانزعت منها القضيبي الفولاذي الذي يُستخدم لتنظيف السبطانة.

استبدَّ الضيق سريعاً بدون سيزار. فالعادة تقتضي أن تدخل إلفيرا السرير قبله. وقد يكون طرق مسمعيه صوت الصفعات التي وجهتها إلى مارييت في الممر. فخطب بقدمه على أرض الغرفة فوق القاعة الكبرى عدة مرات وبشدة واضحة.

اقتربت إلفيرا من الكنبه ويدها القضيبي الفولاذي. ورفعت رأسها نحو السقف وقالت:

- عيل صبر العجوز.

خطب دون سيزار أرض الغرفة مجدداً.

قالت إلفيرا:

- فلينفد صبرك. إنما أنا سأعمل بكلّ تمهل على وسم هذه البكر.

وصفر القضيبي الفولاذي المرن في الهواء. كانت مارييت عارية تحت غلالة القميص الوحيد الذي يستر جسدها.

قالت إلفيرا:

- هذه عن أمك.

وصرت مارييت على أسنانها.

قالت إلفيرا:

- وهذه عني.

- هذه عن أمك.

- وهذه عني.

ارتفع صوت مارييت بعويل حاد طويل. وتلصصها القضيبي الفولاذي مرة أخرى.

سمعت النساء مشية دون سيزار الثقيلة تتحرك عند السرير نحو باب الغرفة.

فمذت إلفيرا بالقضيب إلى ماريا قائلة على عجل:

- جاء دورك. عليك بوسمها مدى الحياة.

وانطلقت راكضة نحو باب الممر.

ثم سُمع وقع النعلين الخشبيين في الممر. فطرقات متلاحقة فوق الدرج. وران الصمت فترة طويلة. لا شك في أن جدالاً ما قد قام بين إلفيرا ودون سيزار. سُمعت من بعد مشية دون سيزار الثقيلة تدخل إلى الغرفة من جديد.

اقتربت ماريا من مارييت المصلوبة على الكنية الثقيلة ذات الخشب المذهب.

قالت:

- أمّا الآن فسوف نقولين لنا ما اسم حبيبك.

فكزّت مارييت على أسنانها .

تراجعت ماريا إلى الوراء قليلاً. وصفر القضيب الفولاذي مجدداً.

قالت ماريا:

- لا بد أن أعيد ذاكرتك إليك.

سمعن في اللحظة نفسها صوت اللامبريتا تتوقف تحت النافذة.

فصرخت مارييت مستجدة:

- طونيو، يا طونيو، أدقنني يا طونيو.

فصاحت بها ماريا:

- أنت تعترفين إذن بأنه هو.

وصل طونيو فصاح على الفور:

- فكّوا وثاقها.

كان ينتعل حذاءه، والنساء أمامه حافيات الأقدام. ويرتدي سترته البيضاء. إنه حيالهن رجل دون سيزار المقرّب. امتلأت نفسه ثقة قوية جداً.

قال:

- هيا بسرعة.

اعترضت العجوز جوليا على ذلك فلما الحق كله في عقاب ابنتها.

فسأل طونيو قائلاً:

- من الذي يتولّى السلطة هنا؟ هل هنّ النساء؟ ثم أضاف:

- ينبغي عليّ أن أذهب لأوقظ دون سيزار. لقد فرض حظراً تاماً على عملية الجلد في داره. ولسوف يقوم بطردكما...

فأسرعت المرأتان بفك قيود مارييت.

تراجعت مارييت حتى الجدار. كانت ترفع مرفقيها قليلاً وكفأها مبسوطتان على الجدار متحفزة للوثوب والإفلات بعيداً.

ظنّت جوليا وماريا واقفتين أمام الكنبه تنظران إلى طونيو.

«ليس لك الحق، يا طونيو»، هذا ما قال الساقى. وقال بيزاشيو:

«لقد أسأت إجابة». وقال ماتيو بريغانتى: «انظروا كيف سأفعل».

قال طونيو:

- عليكم اللعنة. سوف تحمل هذه الصغيرة آثار الضرب طويلاً فوق جسدها... هيا من هنا، يا صنف الأفاعي... انصرفا إلى النوم الآن...

بدأت مارييت اللاطية بالجدار تضحك.

قالت جوليا:

- إنما هي تضحك منك.

فصاح طونيو:

- انصرفي إلى النوم يا ذات النعم النتن.

انصرفت المرأتان بخطى مترجعة إلى الخلف وما إن وصلت جوليا
إلى الباب حتى كرّرت قولها:

- إنما هي تضحك منك، يا رجل.

صفق طونيو الباب وراءها ليصير وحيداً في القاعة مع مارييت.

أما هي فظلت مغرقة في الضحك.

اقترب طونيو من الفتاة. قال:

- أما الآن يا مارييت، أما الآن فلا ريب في أنك ستمنحيني قبلة...

قالت مارييت:

- أجل.

و تقدمت فخطت نحوه الخطوة التي كانت تفصل بينهما.

ووضعت يديها على ذراعي طونيو، فلم يدرك على الفور ما القصد من
وراء حركتهما، هل كان بدافع من الرقة أم لكي تثبته في مكانه.

انحنفت فطبعت قبلة على جبينه.

ولم يتح له الوقت الكافي لكي يفهم. لقد هربت. لقد ولّت هاربة برشاقة
وخفة مهرونة على رؤوس أصابع قدميها. ها هي قد أصبحت فوق الدرج
الخارجي. وقفت هنية والتفت صوب طونيو وقالت:

- أحبك حقاً، يا طونيو، أحبك حقاً، أنت تعرف.

وتوارت في عتمة الليل.

وجه ماتيوبريغانتني وهو يغادر الحانة الدعوة إلى بيزانشيو ليشرب وإياه
كأساً في مكان الحفل. أخرج ورقة نقدية من فئة خمسة آلاف لير فاشترى
بطاقتي دخول. وجلس الرجلان قريباً من المنهل فطلب بريغانتني زجاجة من
خمر آستي الفوار.

تحركت عيناه الصغيرتان بنظرتيهما القاسية للقيام بعملية مسح لمكان الحفل والساحة وما يحيط بها. إنه يدوّن كل شيء (في ذاكرته) بطريقة عين. لقد احتفظ بهذه العادة منذ أن كان عريفاً بحرياً في السلاح البحري الملكي، فعادت عليه الآن بنفع كبير، لا سيما أنه يراقب بورنو مناكوري.

تحرك مصراع نافذة في طابق السراي الرابع. إن دونا لوكريزيا لمّا تتم. أمّا السيدة النابوليتانية النازلة في فندق بلفيدير فلا تحضر الحفل. لا شك في أنها تتمشى على الشاطئ. لكن بصحبة من يا ترى؟ ها هي جوزيينا ترقص بصحبة الفتى الروماوي، فليس لذلك من أهمية. لقد اصطحب أمين السرّ لتعاونية صانعي الكراسي بناته الثلاث إلى الحفل. وهو يشرب الكونياك الفرنسي. فمن أين جاء بهذا المال كله؟

كان المبتزّ يقوم بعملية سبر للحقل، لحقل نشاطه، ويعبث في الوقت نفسه بموساه. إنها أداة جميلة من علامة الثورين، وهي من أنفس أنواع الأمواس في ميدان أدوات التطعيم. إنه يحتويها كلها في قبضة يده. ومقبض الموسى أسود اللون لمّا فيه تعريقات من النحاس ترصع الخشب. وهو عريض بعض الشيء عند قاعدته، بحيث ينطبق مع راحة اليد انطباقاً مريحاً. ونصلها المطوي داخل المقبض الأملس قاطع وبراق وخطر، ترتاح العين لمنظره، مثله مثل المحارة في قوقعتها، فهي نفيسة كاللؤلؤة المخبأة في جوفها.

جلس اثنان من السّواح شعرهما مائل إلى الصفرة إلى طاولة مجاورة. كانا يتفرّسان في وجوه الصبيان. أمّا سيارتهما من نوع فوكس فاغن، والتي تحمل لوحة من مقاطعة بافاريا، فقد تركاها عند مدخل الشارع الجديد الذي ينحدر متعرجاً حتى الشاطئ.

فدوّن بريغانتى ذلك (في ذاكرته) لأنه يراقب أيضاً كافة أنواع الصفقات والتسويات التي يعقدها الصبية مع الأجانب.

رفع نصل موسى قليلاً ثم أرخاه فارتدّ إلى داخل المقبض بطريقة حادة. إنّه يستسيغ هذا الصوت الواضح الذي يشبه اصطكاك فكّ قتي.

كان بيبو وبالبو خارج نطاق الحفل يتكئان على حاجز المنهل. ويطيل بيبو النظر إلى ماتيُو بريغانتِي.

كانت بنطلونات بيبو مثقّبة ومشرّمة ومهملة. ويرتدي أبناء المدينة كلّها، كهولاً وشباناً وغلّماناً، بنطلونات رثة. إنّها أسمال مرقّعة مرّمّة. أسمال مخجلة. لكنّ بيبو يرتدي أسماله بكلّ فخر وكأنّها أهداب الزبد الذي كان قدّماء الرسامين يحيطون فينوس به. قميصه أيضاً كان رثاً بلا أزرار، بل غير معقود الطرفين فوق البطن مثملاً بات يفعل عدد كبير من الواليوني هذه السنة، تقليداً للمصطافين. إنّ مِرَق قميصه تخفق فوق كتفيه مثملاً يخفق وشاح مار ميخائيل رئيس الملائكة. أمّا شعره الأسود فينزل ضفائر على جبينه. عمره ستة عشر عاماً. إنّهُ زعيم الواليوني، ذو النظرة الجريئة.

أمّا بالبو فشعره ضارب للحمرة. وهو قصير القامة، وأسماله منظّمة بعض الشيء. ويتولّى تقدير الحصص عند الفوز بغنيمة ينبغي تقاسمها. فهو بيروقراطي العصابة. كان بيبو يطيل النظر إلى ماتيُو بريغانتِي بينما يتولّى بالبو مراقبة الساحة. وحين يكونان معاً يصيران رأساً واحداً بوسعه أن يشمل الجهات الأربع بنظرة واحدة.

أمّا الواليوني الآخرون فقد غابوا فجأة وتواروا عن الأنظار. توقفت الفرقة لأخذ قسط من الراحة. فبدأ الصمت ثقيلًا. ذلك أنّ صياح الغلمان وضجيجهم كان يسدّ الفراغ في فترات الراحة السابقة.

قال بريغانتِي:

- يُعَدّ الواليوني العدة للقيام بعمل ما.

فأجاب بيزاشيو:

- لقد انصرفوا إلى النوم.

- لكنّ بيبو ما يزال هناك، مثل قبطان على ظهر باخرته. إنه يُعدّ العُدّة للقيام بضربة ما...

رفع بريغانتي إصبعه وأشار إلى بيبو طالباً إليه أن يقترب. فهو يريد أن يتحدّث إليه من داخل الحاجز الأخضر إلى خارجه.

فجاء رد بيبو بتجهم سريع من وجهه، وتصنّع التواء في فكّه، ونظرة حادة مع تقطيب الحاجبين. ثم عاد إلى وجهه إشراقه وصفاءه الملائكي.

أدار بريغانتي رأسه متحوّلاً بوجهه عنه. أمّا بيزاشيو فقد نهّل ابتهاجاً، فهذا الاستهزاء من جانب بيبو يحدّد أبعاد سلطنة سيّده. وهو يستمتع دائماً، على كل حال، حين يرى سيّده يكبو كبوة جديدة.

ليس فوق أراضي مناكوري كلّها، شخص واحد يُفِلّت من مراقبة ماتيو بريغانتي، إلا بيبو والواليني التابعون له. والمعركة بينهما ناشبة لا محالة، إذ لا يسع عصابتين أن تتعايشا فوق أرض واحدة. لكنّ الإمساك بأفراد الواليني في المرحلة الراهنة أكثر صعوبة من الإمساك بذرات الغبار المتصاعد من البيدر، عندما يقوم الرجال أو النساء مثل إلفيرا، بدق أغمار السنابل بالمدقة. أما والتاجر يملك دكاناً، والصيد لديه زورق، والسائق في شاحنته، والبائع الجوال وعربيته، كذلك البستاني وما يملك من أشجار، والوجيه وما يتمتّع به من سمعة، والموظف في وظيفته، وحتى البؤساء الذين ليس بحوزتهم سوى زوجات بائسات، أولئك جميعاً لا يسعهم الإفلات من مراقبة ماتيو بريغانتي. فالعاطل عن العمل الذي يتسلّم مخصصات تمويّنية من البلدية، وحارس الماعز المسؤول عن عنزات الآخرين، والعاجز الذي يحتاج سريراً في مأوى العجزة، والسجين الذي يسعى إلى إيصال رسالة إلى خارج السجن، هؤلاء كلّهم ملزمون بدفع ضريبة محددة إلى ماتيو بريغانتي. أمّا الواليني فلا يمكنه شيئاً على الإطلاق. وحصيلة غنائمهم يجري تقاسمها أو أكلها أو تدخينها على الفور. أمّا الملاجئ التي تؤويهم فهي بعدد الدورات القائمة في مناكوري، وعدد الأكواخ في السبخة، وعدد خيام النواطير الخشبية فوق

القتال. وليس من يلاحظ زيادة واحد على عدد الأولاد في بيت ينامون فيه عشرة أو اثني عشر.

ولسوف تظل واقعة سطو الواليوني على لامبريتا أحد رجال الشرطة من أجمل وقائعهم على الإطلاق. فالدرّاجة جرى تفكيكها كلياً وبصورة تامة ومطلقة. ثم جرى بيع كل قطعة على حدة. حتى إنّ البزازات كانت موضع مساومات خاصة. وأشاع ماثيو بريغانتني أنّه سينال ضريبته مقابل سكوته عن هذه العملية. فوجد على باب بيته في صبيحة اليوم التالي لوحة اللامبريتا بحروفها الأربعة الحمراء على خلفية سوداء: ج.خ.ش.ج. التي ترمز إلى الجهاز الخاص لشرطة الجمهورية. ثم تلت ذلك عدة أيام، قام فيها باعة فطائر البيزا ببيع أضعاف مضاعفة منها. كما ازداد الطلب، ولأيام قلائل، على البوظة بشكل لم يسبق له مثيل. كان ذلك هو الاضطراب الوحيد الذي نجم عن غرق اللامبريتا.

قام بريغانتني مجدداً بفتح موساه قليلاً بينما كان بيزانشيو يرقب بطرف عينه كلاً من بيبو وبالبو. ثم قال:

- ربما كان الواليوني هم الذين قاموا بالسطو على السواح السويسريين.

فأجاب بريغانتني:

- العملية أكبر منهم بكثير.

وأرعى نصل الموسى فارتد بطرقة إلى مخبئه.

بدأت الفرقة معزوفة فوكس بطيئة. وترك فرانثيسكو بريغانتني الطبل الثلاثي ليعزف على الغيتار الكهربائي. وسجل بريغانتني (في ذاكرته) أنّ جوزبينا ترقص الآن مع مدير فرع مصرف نابولي وهو مدير شاب تزوج مؤخراً. وأنّ الألمانين باسراً حديثاً مع ابن الصيدلي. وأنّهما يصفان له محرك سيارة المرسيدس المقبلة. وأنّ أحدهما أخذ يرسم مخطط حجرة

الانفجار. وبعد ذلك وجها الدعوة للصبي للقيام بجولة في الفوكس فاغن.
فالطريقة تقليدية.

ظهر الواليوني في الساحة ظهوراً مباغثاً. لقد قاموا بتلطّيح وجوههم بحب
الدوت الأحمر. فبت لا ترى منهم إلا العيون السود وسط الأفعى الحمراء. كانت
هنالك العصابة بأكملها. إنهم في حدود العشرين وتتراوح أعمارهم بين الثانية
عشرة والخامسة عشرة. وقد قطعوا الساحة كلّها وهم يطلقون صيحات الحرب
ويلوحون بفؤوس وهمية. إنهم يلعبون لعبة الهنود الحمر.

ضحك بريغانتى على طريقته الخاصة، ضحكته الباردة المعروفة،
فتعصّبت أجفانه دون أن تتفتح شفتاه.

ثم قال لييزاشيو:

— أيها العبي، لو أنّ الواليوني هم الذين قاموا بعملية السطو على سيارة
السويسري، لما وجدت قطعة واحدة من مصاصات السكر عند باعة الحلوى.

ووضع موساه فوق الطاولة.

ظلّ بيبو وبالبو لا يبديان حراكاً.

وقام الواليوني بعبور الساحة ثانية، لكنهم في هذه المرة فرسان،
يتشبّهون بنواصي خيولهم الوهمية.

ابتعد بيبو وبالبو بتمهل نحو شارع غاربالدي. ودون بريغانتى أذهما
دخلا نادي الرياضة. أمّا الهنود الحمر فقد اختفوا في زقاق متفرّع عند
الطرف الآخر من الساحة.

اتكأ بيبو إلى مائدة المنهل قائلاً:

— هات كأسين من البوظة بعشرين ليرا.

وألقى بالبو بقطعتين من فئة العشرين ليراً فوق المائدة.

نظر المصطافون إلى بيبو الذي يلبس أسماؤه الرثة بكل فخار.

فقال جوستو، خادم المنهل:

- أنا لا أقدم شيئاً للمتشردين.

فاتكأ باليو بدوره إلى حافة المائدة، ثم قال:

- نحن دفعنا الثمن.

فقال جوستو:

- هيا انصرفا من هنا.

كان معاون مفوض الشرطة جالساً إلى المائدة المجاورة.

فقال له بيبو:

- سيدي المعاون، لقد دفعنا الثمن. أليس حقاً أن من واجب هذا الرجل

أن يقدم لنا ما طلبنا؟

ثم علا الصخب والضجيج وسط الساحة. فقد عاود الهنود الأحمر هجومهم.

قال أحد الزبائن:

- هؤلاء الأولاد على حق. لقد دفعنا الثمن فلم لا يُلبى طلبهما؟

فردت مصطافة، تحمل أفكاراً تقدمية:

- لأنهم فقراء دون شك.

وانطفأت في اللحظة نفسها المصابيح الكبيرة الزرقاء - البيضاء التي

كانت تضيء الحفل. كما انطفأت معها كافة المصابيح الأخرى التي تنير

الساحة. أمّا القمر الذي كان في أيامه الأولى فقد غاب ولم يتبق غير بصيص

النجوم الباهت.

قال بيبو:

- سيدي المعاون، نحن نطالب بحقنا.

هنا قفز الهنود الحمر من فوق الحاجز الأخضر وتفرقوا بين الراقصين وهم يجأرون بالصياح. بعض النساء شرعن بالصراخ. واندفع عناصر شرطة البلدية، والعصي في أيديهم، نحو مكان الحفل.

أحاط بالألمانيين ثلاثة من الهنود الحمر.
فسأل أحدهما ابن الصيدلي قائلاً:

- هل هذه عادة دارجة في جنوب إيطاليا؟
وترنحت مائدتهم. فنهضا وقد تمكّهما القلق.

كانت الأقنعة الحمراء تُشاهد في كل مكان. ثم اختفوا فجأةً فران على المكان صمت مهيب.

أعيد وصل التيار الكهربائي بعد ذلك بعشر دقائق. وقد روى شاهد عيان أن أحد الهنود الحمر قد دخل من حجرة بواب البلدية، وقام قبيل الهجوم، وبكل بساطة، بإغلاق المبدّلة الكهربائية التي تتحكم بإنارة الساحة الكبرى.

قام عناصر شرطة البلدية بعملية جرد للخسائر الناجمة عن الهجوم. فتبين أن مصطافيتين فقدت كل منهما حقيبتها اليدوية. وأن محفظة أحد الألمانيين اختفت، وقد أخذت من جيب سترته المنشورة على ظهر الكرسي. وليس فيما خلا ذلك سوى بعض التفاهات التي لا تستحق الذكر.

استمتع بيبو وبالبو بطعم كأس البوظة، فتناولها بتمهل، بعد أن لبّى جوستو طلبهما، بناءً على إصرار المصطافاة إيّاهما. وبعد انتهاء أحد شهود العيان من سرد وقائع أول رواية عن الهجوم، الذي شنه الهنود الحمر على الحفل، وذلك على مسامع رواد منهل نادي الرياضة، سأله بيبو قائلاً:

- هل جرى على الأقل، توقيف أحد هؤلاء الواليوني؟

أجاب الرجل:

- كلا.

قال بيبو:

- وداعاً.

وقال بالبو:

- تصبحون جميعاً على خير.

وكان معاون المفوض منهمكاً بالاستماع لأقوال الشهود.

سار بيبو وبالبو بخطى وثيدة في شارع غاريبالدي، ثم انعطفا ليسلكا أحد أزقة المدينة القديمة، ومنه توجّها إلى المكان المحدد لاقتسام الغنائم.

كانت موسى ماتيو بريغانتني وقت انطفاء الأنوار، موضوعاً على الطاولة بجانب زجاجة خمر آستي. وعندما عادت المصاييح الكبيرة لإغراق مكان الحفل مجدداً بأنوارها، كانت الموسي قد اختفت.

قال بريغانتني:

- لا بد من دفع ثمانئة لير ثمن واحدة جديدة من محل بيع الخرداوات.
فالأمر نافه لا يستحق الذكر...

لكنه عض على شفته الرقيقة. وغمر الفرح والابتهاج قلب بيزاشيو لأنّ الواليوني تحدّوا سيده.

* * *

حين شرعت مارييت في الغناء لم يكن أحد نائماً غير إلفيرا.

إلا أنّ دون سيزار، الذي كان راقداً ويده على صدر إلفيرا، لم يكن متيقظاً تماماً. فكل من نومه ويقظته قد «نُفذ الاهتمام» من عام لآخر. لقد بات منذ أعوام محروماً من النوم الأعرق، وهو والد التحولات، والذي يتمثّل الإنسان في أعماقه نكساته وزلاته ويُعِدّها، فيهبها جسداً ذا طاقة جديدة، مثل اليرقانة داخل عتمة الشرنقة، ثم يستيقظ ظافراً، فيشدّ وهو جدلان، في ضوء الصباح، أطرافه المولودة في خُلّة جديدة. إنّ نوم دون سيزار، وكذلك يقظته، قد أصبحا في حالة من الغمّ الدائم.

أما وقد حرم أيضاً من النوم الواقع مباشرة فوق النوم الأعرق، والذي ينجب الأحلام المنبئة والأحلام المذكرة. فقد ادقضى وقت طويل ودون سيزار لا يعرف من الأحلام إلا الهشة والمفككة، أي تلك الأحلام الباطلة التي تختلط فيها ذكريات أحداث النهار الصغيرة، فلا تتميز إلا بمشقة عن إدراكات حالة اليقظة. وحين شرعت مارييت بالغناء كان حلم اليقظة لدى دون سيزار قد بدأ يتحول إلى حلم، بل كان يتأرجح ما بين حلم اليقظة والحلم. لقد صار يُمضي على هذا النحو معظم لياليه.

أما العجوز جوليا فكانت تتصيد البعوض الذي يطن حول سريرها. وهي تنتظرها حتى تستقر فوق وجهها فتقتلها بصفعة حادة. ونادراً ما كانت تخطئها. أما عن يمينها، تحت النافذة، فكان بصيص النجوم الخافت يضيء سرير مارييت الفارغ. لقد قرنت العجوز البعوض بابتها التي تحدثها. فكانت تهمس مع كل صفعة توجهها:

- هذه لك، يا تافهة.

- هذه لك، يا ساقطة.

- هذه لك، يا ذئلة.

أما في الغرفة المجاورة فكانت ماريا لاطية في السرير ملاصقة للجدار ومكان طونيو فارغ بجانبها. كانت تصلي: «أبانا الذي في السموات»،

«السلام عليك يا مريم». وتكرر سبحتها لتبدأ بها من جديد. أيتها العذراء مريم، يا والدة الابن الحبيب، ردي لي زوجي. أيتها القديس يوسف، أنت الزوج الممتلئ غبطة وعطفاً، اجعل الذم يستولي على قلب الرجل الفاسق. يا مريم العذراء، يا قديسة كابو، يا شفيعة الجنوب، تعطفي على أتعس مخلوقة بين عبيدك. يا مار ميخائيل، يا رئيس الملائكة، اطرده الشيطان من جسد شقيقتي التي أخذت زوجي مني. يا قديسة أورسولا، يا قديسة أوريا، أيتها البتول الشهيذة، ردي لأولادي أباهم!

لم تكن ماريا متيقنة من أن شقيقتها استسلمت لزوجها. فقد شاهدتها أكثر من مرة وهي تزجره. أما الجيران، الذين يسكنون أكواخ القصب المبعثرة بين عيدان الخيزران، والتي يشاهدون منها كل ما يجري حولهم، فلم يباغتهما على الإطلاق، وإلا كانوا تحدثوا في الأمر. لكن طونيو ومارييت ما يزالان الآن (حسبما تعتقد) وحدهما معاً في القاعة الكبرى. ومارييت ما زالت (حسب اعتقادها) عاجزة عن الوقوف على قدميها لشدة الضرب الذي أصابها. ولم يبدُ طونيو واتفاً من نفسه قط مثلما رأته زوجته هذه المرة. ترى، ماذا جرى له هذه الليلة في بورتو مناكوري؟

كان في رنة صوته من السلطة الواثقة والمطمئنة ما جعله يصدر الأمر للمرأتين بحل وثاق مارييت فوراً. حتى إن ماريا لتجد نفسها عاجزة عن الذهاب لمجابهته في القاعة الكبرى. إنها تعتقد أنه قادر على حماية خلوته مع الفتاة بنفس الحزم الذي يمكن أن يصدر عن رجل حقيقي. وهذا كافٍ لخلق القناعة بحقيقة المصيبة التي دوشك أن تقع. وامتألت نفس ماريا بالزهو كأن طبيباً قال لها لتوّه إنها مصابة بالسرطان. وأشهدت السماء كلها كي تكون ضامنة لمصيبتها النفسية، حقيقة لا جدال فيها.

أما طونيو، فكان ما يزال واقفاً على الدرج الخارجي، محدقاً بسياج الخيزران المظلم حيث تلاشى طيف مارييت. أحسّ بطعم المرار في فمه كأنه أفرط في التدخين، تماماً مثلما أحسّ حين تقياً قبل قليل في الساحة الكبرى لبورتو مناكوري.

بدأت مارييت الغناء من وراء سياج القصب، قرب مصب البحيرة. كانت فاتحة الغناء أغنية قديمة يرددونها أثناء قطاف الزيتون. تميّزت البداية بلهجة جنل وحبور، كأن في نيتها فقط الاستهزاء بالنساء اللواتي أفلتت من بين أيديهن قبل قليل. لكن الأغنية من ذلك النوع الذي يمهد الطريق أحياناً أمام الصوت كي يوضح ويتجلى. استيقظ دون سيزار من فوره فأصاخ السمع. أما طونيو فكان يسبر أغوار الظلام.

تَنَقَّلْتُ مارييت دائرةً حول الدار، وراء عيدان الخيزران والقصب التي تحجبها عن الضياء الذي يظلُّ بهاؤه واضحاً في ليالي الجنوب، حتى بعد غياب القمر الفتي. وظلَّت تكرر المقاطع نفسها برنةً صوتٍ أكثر فأكثر جذلاً.

استيقظت إلفيرا. لقيت التحديّ يدور ويلف الدار من كل جانب. استعادت مارييت اللازمة، لكن على سلّم أعلى. نهض دون سيزار بصمت فتوجّه إلى النافذة. جلست إلفيرا على السرير فأحسّت بأنها تبغض شقيقتها بعنف، وتكرهها من أعماق قلبها.

وبدأت مارييت تستقر على سلّم النغم الجديد. فلم تغنّ غير اللازمة حتى اطمأنت إليه تماماً.

صعدت بعدها عدة نغمات. ثم صعدت لمرات عديدة عدة نغمات ثم عاوت اليهود على السلم الذي كانت استقرّت عليه.

كان طونيو يستند إلى حاجز الدرج الخارجي وذراعه ممدونتان فوق الليل. مصفّقاً بصمت حسب إيقاع الغناء، متمماً بشغف: «هيا، إيه... هيا! هيا!» إنهم يشجعون الصوت بمنزل هذه الهتافات حين يكون على وشك التألّق والتحليق. ونادراً ما يقع هذا ليلاً، على أثر ملابسات درامية كالتي وقعت هذه الليلة. فالمألوف أن يكون ذلك حوالي العصر، وفي يوم عيد أو احتفال، وبعد أن يكون الضيوف قد غنّوا، وتكون النشوة قد ملأت الرؤوس من سماع الغناء، من غناء كل ما يمكن أن يُغنى من أنواع الأهازيج والترنيمات والأغاني القصيرة والأوبريت والأوبرا. أمّا الذي يملك (أو التي تملك) موهبة الصوت، فيكون طول الوقت متحمّياً مقطّب الجبين.

لقد رجوه أن يغني لكن دونما إلحاح. أمّا حين يقوم (أو تقوم) بإعطاء إشارة عن عزمه على الغناء، فيلزم الجميع جانب الصمت. ويبدأ عادة بأغنية قديمة تكون ملائمة لجعل الصوت يفتح، لكنّه يبدأ على كل حال مثل أي مغن عادي. أمّا حين يحاول (أو تحاول) الصعود والارتقاء فاتحاً الباب قليلاً أمام الصوت (كما يحدث لدى الدخول إلى قاعة الروليت، فالمقامر الحقيقي يبدأ

المراهنة بمحض الصدفة على هذا الرقم ثم على ذلك، دونما نظام، كما يفتح الباب في وجه الحظ)، وعندما يبدأ الارتقاء متقللاً من سُدْم نغمي إلى سُدْم آخر، مثلما تنبّت نافورة ماء أقدامها بتحدي الهواء وتحدي الفضاء، حينذاك فقط ينهضون ويحيطون به. وقد يتحسّس طريقه، لكنّه يواصل الارتقاء من عالٍ إلى أعلى. وعندّها يرافقونه بصمت، ويدعمونه بصمت، ويضربون كفّاً بكف ضابطين الإيقاع بصمت، بحيث يصبح محاطاً بتصفيق أيدي صامئة، ويتوسّلون إليه متمنّين بشغف:

- هَيّا، هَيّا... هَيّا! هَيّا!

وهذا ما يفعل طونيو الآن وذراعه ممدودتان إلى ما فوق اللّيل. ويتمتم دون سيزار مثل هذا، وهو واقف الآن على شرفة غرفته بين الأعمدة. واستقر الصوت فجأة في أسمى ارتقاء له وأكملّه.

حين كان دون سيزار ما يزال يستقبل الأجانب ويتحدّث إليهم عن الفولكلور المناكوري، كان يزعم أنّ الصوت كان صوت الكاهنات العرافات في معبد فينوس حين يدخلن في رعدة التشوّع والانخطاف. لكنّ هذا التقليد يمتدّ إلى عهود سحيقة أكثر من ذلك، فيصل إلى الفريجيين الذين ورثوه هم أنفسهم عن عبدة النار.

ويرى آخرون، استناداً إلى طرق قياس مع بعض الأغاني العربية، أنّ المناكوريين أخذوا ذلك عن المغاربة الذين غزوا أوربا بعد أن امتلأ المرفأ رملاً.

أمّا وقد استقرّ الألبانيون عدة مرات فوق الشريط الساحلي فقد أرجع البعض الصوت إلى أصل بلقاني. وتظنّ تلك الفرضيات كلّها هشة وبلا أساس. لا سيّما أنّ علماء الموسيقى لم تتح لهم حتى اليوم فرصة الإصغاء إلى الصوت. كذلك لم يتمّ القيام بأيّ تسجيل له. فالمناكوريين لا يُبدون أيّ استعداد لجعل غرباء عنهم يصنعون له الصوت. كذلك هم لا يُبدون الرضى عن حضور غريب لعبة القانون. ولربما كان ذلك بدافع من الحياء أو الخجل من

لعبهم وغنائهم، أي مما يمسهم في الصميم. يبقى على كل حال فارق وحيد
يتمثل في انتشار لعبة القانون في كافة أنحاء جنوب إيطاليا، في حين أنَّ
الصوت وقف على بقعة صغيرة من الساحل الأندرياتيكي.

ما عاد هنالك من داعٍ للهمس:

- هيا، يا مارييت، هيا، إيه، يا مارييت، هيا.

لقد استقرت الفتاة على أعلى طبقة من غنائها.

لو أنَّ أحد الموسيقيين سمعها لوصف غناءها بأنه حاد جداً، لكن يمكن
وصفه أيضاً بأنه من أعماق الصدر. وهذا هو التناقض الأساسي في وصف
الصوت والحكم عليه.

إنَّه غناء يثير الدوار، أي أنه مستقرّ تمام الاستقرار ومترنّح بلا ثبات
ولا ارتكاز في آن معاً. وهذا هو التناقض الأساسي في الدوار.

وهو غناء بشري لا يمكن أن يُسمع إلا بصوت أحد بني البشر. وهو
غناء فائق الإلتقان صادر عن الحنجرة الأقل تمرساً بالغناء والأقل تدريباً عليه
في العالم. وهذا هو التناقض الأساسي في وضع مارييت.

حين انتهت مارييت من الغناء، - بُثِر الصوت بترّاً - اختفت بخفة
ورشاقة حتى لم تَقَوَّ واحدة من الآذان العديدة المصغية، التي تعمّر السكينة
الوهمية في السبخة، على سماع حفيف قميصها الرقيق وهي تشقّ دربها
منطقة بين عيدان الخيزران والقصب.

حلّت رباط زورق أحد الصيادين وجلست في المؤخرة، ضاغطة دون
وزن يذكر، على المجذافين القصيرين (إنَّهما أقصر من ذراعيهما) منزلقة بسرعة
بين القصب، قاطعةً المعابر التي تعرفها حق المعرفة بخفة فائقة ظنّت معها
الطيور المائية غارقة في سباتها.

دخل طونيو الدار ومضى ليرقد بصمت إلى جانب زوجته ماريا التي
تشوّه بطنها من الولادات المتكررة. وعاد دون سيزار إلى سريريه ذي القبة
فوجد إنفيرا جالسة منتصبه الجذع في قميص النوم الأبيض، قديم الطراز، ذي

الياقة المغلقة. لاحظ أنها كانت تنظر إليه بغیظ فرأى أن الوقت قد حان
للافتراق عنها. أمّا العجوز جولیا فكانت ترفع يدها بالسبابة والخنصر داعية
على ابنتها الصغرى مستنزلة عليها الالعات.

نزلت مارييت عند أسفل الطبقة الصخرية التي شيدت مدينة مناكوري
فوقها (يقع المرفأ في طرف المدينة الثاني مناظراً للسبخة). فدارت حول
المدينة، وسط بساتين الزيتون، حافية القدمين، خفيفة الخطى دونما استعجال.
وصلت الطريق الرئيسة فسلكتها حتى وصلت إلى أقرب حجر كيلومتری من
المدينة. فأخذت قطعة طيشور مخبأة هناك ورسمت على الحجر دائرة حمراء
في وسطها صليب. ثم تسلفت التلعة فاجتازت بساتين الزيتون لتبلغ بعد قليل
أولى دعائم الجبل، الذي بقي بورتو مناكوري من رياح اليابسة. إذ تبدأ في
تلك المنطقة بساتين البرتقال والليمون.

يحيط بكل بستان سور لحمايته من السارقين ومن رياح الشتاء التي
تهب من جهة البحر. دخلت مارييت دونما تردد متاهة من الدروب الجوفاء
بين أسوار البساتين العالية. كانت المنحدرات قاسية. وما لبثت أن أشرفت
على مصابيح الحفل الزرقاء- البيضاء، ورأت الدور الأحمر عند مدخل
المرفأ، وظهر أمامها الخليج بأكمله تحت بهاء الليل الجنوبي، والمنارة
المتلألئة فوق أعلى الجزر. توقفت قرب باب حديدي مشبك، فارتفعت على
رأس قدميها مادة يدها إلى أعلى دعامة الباب، وأزاحت قطعة آجر ثم تلمست
تحتها فوجدت مفتاحاً كبيراً. ففتحت الباب وأغلقت وأعدت المفتاح إلى مخبئه.

كانت الظلمة شديدة جداً تحت الأغصان الكثيفة لأشجار البرتقال
والليمون والتين. مشت مارييت مهدية بصوت ترقرق مياه الينابيع. إنها
ثلاثة لها خرير، تخرج من تجويف في الجبل، فتتلاقى في أسفل البستان بعد
أن تكون قد سالت في الأفنية الترابية التي يُدار منها الماء، عندما يحين موعد
سقاية الأشجار، نحو الحفر التي تحيط بجذع كل شجرة. أمّا الساقية التي
تتجمع فيها مياه الينابيع الثلاثة، فتتحدّر شلالاً نحو بستان آخر، فيتجمع الماء

في حوض ثم يتوزع من شجرة إلى شجرة، ومن حفرة إلى حفرة، داخل شبكة معقدة من الأقيّة الترايبية. فيجري على تلك النحو ريّ البساتين انحداراً من أعلى دعائم الجبل الأولى إلى أسفلها.

تلك الغزارة في المياه الجارية، تجعل الجو في البساتين منعشاً وبارداً حتى في منتصف شهر آب.

يقوم على مقربة من أعلى الينابيع مستودع مشاد على عجل، يحتوي على أدوات البستنة وفيه طاولة وكرسي. وعلى الطاولة بعض ثمار التين وإبريق ماء. وفي زاويته كدسة من الأكياس.

دخلت مارييت المستودع فأكلت تينة ثم استلقت فوق الأكياس ونامت على الفور.

* * *

عاد ماتيو بريغانتي إلى بيته بعد أن أعطى مساعده بيزانشيو التعليمات اللازمة. لم تكن الساعة قد بلغت الثالثة صباحاً. وما زال الحفل مستمراً.

يقيم بريغانتي في قصر فريديريك الثاني دوسواب. ويُعتبر القصر مجمّعا ضخماً من الأبنية المتناثرة، المترابطة فيما بينها بدھليز وأدراج دائرية وجسور معلقة، تمتد من شارع غاريبالدي حتى أزقة المدينة القديمة، عند أسفل دير القديسة أورسولا بنت أوربا. قام الإمبراطور ببناء البرج المثلث، الذي يحدد الآن زاوية الساحة الكبرى وشارع غاريبالدي، مكان إقامة مؤقتة أثناء رجوعه من الصيد في منطقة السبخة. ثم جاء الملوك الأنجويون من بعده فأضافوا إليه قصراً ذا أروقة، هو دار الحكومة المطلّة حالياً على الساحة الكبرى. وجاء ملوك نابولي ليشيدوا فوقه أبنية باروكية الطراز ويضيفوا إليه من الخلف عدة ملحقات وإصطبلات ومخازن. كان ذلك يوم ازدهرت تجارة بورتو مناكوري مع الساحل اللماسي. وما قصر البريد الحالي سوى واحد من أبنية العهد الباروكي، ألصق بالبرج الإمبراطوري، لتتسلق عليه نباتات المداد التي تراها دونا لوكريزيا من نافنتها. أمّا الأبنية الأخرى فتحوّلت إلى

مساكن تقطنها اليوم أكثر من مئة أسرة. وتقوم النساء الآن بنشر غسلهن في باحات كانت من قبل مرتعاً يتجاوب في أرجائه صهيل خيول الأمراء. في حين يخوض الواليونى معارك قوية فيما بينهم فوق الجسور المعلقة. أما المسكن الذي يقطنه ماتيو بريغانتى فذو موقع متميز فوق دار الحكومة، على الزاوية. فأمامه سطح صغير مسور بعقد قويزات من القرن الثامن عشر، غرست زوجته فوقها أزهار القرنفل وبعض الغرنوقيات واللبلاب.

كذلك استأجر من البلدية برج فريديريك الثاني غير القابل للسكن. ثم قام بتأجير الطوابق السفلى منه لمفوضية الشرطة، حيث يكتس المفوض أنيليو منقأت القضايا المنسقة. بينما احتفظ لنفسه بالطوابق العليا التي يسميها أحياناً «بيت مؤونتي» وأحياناً أخرى «بيت أسراري».

إن زوجة ماتيو بريغانتى من مواليد إحدى ضواحي مدينة تريستي. وهي شقراء تفوقه طولاً، يسري في عروقها دم سلافي دون شك.

تعود معرفته بها إلى مدينة ألكون، يوم كانت ناذلة في البارات وهو عريف في سلاح البحرية الملكي. كان جسدها متهدلاً بعض الشيء رغم أنها لما تبلغ العشرين. إلا أن نفسه كانت ممثلة غروراً، فعشيقته فتاة من الشمال. وحين جعل بطنها يندفخ أرغمه التريستيون على الزواج منها. كانت تلك الفتاة قد قدمت أصلاً من مقاطعة فينيسي جوليين، بصحبة طائفة كبيرة من بني قومها، فتسلموا إدارة البارات والفنادق. لم يكن ماتيو بريغانتى يتمتع آنذاك بأي سلطة تذكر، لا سيما على أبناء تريستي. وهذا ما أفسح المجال للوليد فرانثيسكو في أن يكون له أب. لكن المرأة تعيش اليوم في عزلة تامة كأنها على هامش المجتمع. فلا الأعيان من مناكوري يستقبلونها، ولا زوجها يسمح لها بمخالطة الفقراء. كما لم تزرَق بأبناء آخرين. ذلك أن بريغانتى لا يريد في المستقبل لثروته أن تُقسَّم.

عندما رجع إلى البيت، كانت زوجته نائمة. ذلك أنها حين لا تنام، تقضي الوقت في رعاية شؤون المنزل، والسهرة على أحوال بيتها بعناية

ونظافة تماثياً مع التقاليد التريستية. فأخرج عدة أضاير من خزانة للأواني في غرفة الطعام ملأى بالأوراق وبسطها فوق المائدة. وشرع في إجراء حسابات والكتابة إلى رجل أعمال في فوجيا، وكتبته كلها تنميق وتأنٍ، مدبجة بخط كبير. فالمال الذي يحصل عليه من مراقبته في بورتو مناكوري، يوظفه على الفور في مختلف أشكال المصالح الموزعة في أنحاء مقاطعة فوجيا كلها. فهو يملك الآن قسماً من معصرة الزيت في كاللونغا، وله حصص في نقلات البوكسيت في مانفريدونيا. واشترى مؤخراً أراضي قرب مدينة مارغريتا دي سافويا. ولن تلبث شركة مونتيكا فيني أن تجد نفسها مرغمة على شرائها منه بأسعار باهظة، حين شروعا في توسيع سبختها المالحة. وهذا ما سيحصل في المستقبل المنظور. ولقد بائت أعماله ومصالحه تعود عليه بنفع يفوق الربح الذي يحققه من مراقبة بورتو مناكوري. إن فرائشيسكو سيصير غنياً. وهذا ما جعل والده يدفع به لدراسة الحقوق. فعندما تكون لدى المرء ثروة بحاجة لإدارة، لا بد أن يكون له إلمام بالقانون. ذلك أن رجال القانون وحدهم، دون سواهم، استطاعوا الإيقاع بماتيو بريغانتي.

انتهى الحفل في الثالثة صباحاً. فانتزع فرائشيسكو بريغانتي السلوك من الغيتار الكهربائي، ووضعه بعناية في علبته الكبيرة السوداء، المبطنة بحرير بنفسجي. ورفض الدخول بصحبة رفاقه، أعضاء فرقة الجاز، إلى منزل نادي الرياضة وذلك: أولاً لأنه لا يحمل نقوداً، وثانياً بسبب شعور غامض بأن تأخره بصحبة غيره من الشبان، وانخراطه معهم في تناول الشراب والحديث عن النساء، خطأ يرتكبه بحق دونا لوكريزيا التي كانت تنظر إليه دون شك، من بين مصراعي نافنتها في الطابق الرابع من السراي.

الواقع أن دونا لوكريزيا كانت تنظر إليه يودع الشبان. كانت تكرر في نفسها القول إنها تحبه. و كان قلبها مفعماً فرحاً لشجاعتها في تكرار القول بصوت شبه مرتفع. فهي الآن في معرض التغلب على تربية الجنوب. وأعاتت تكرار ما اتخذت من قرارات، صممت على أن تبلغها إياها أثناء الموعد المضروب بينهما في بحر النهار القادم. وفكرت في أنه سيكون بها فخوراً.

عاد فرانثيسكو إلى البيت فوضع الغيتار في علبته في مكانه المجهود فوق خزانة الأواني. إن آل بريغانتي يأكلون دوماً في المطبخ.

رفع ماتيو بريغانتي رأسه ورمى ابنه بنظرة سريعة. إن الولد يفوقه طولاً وهو أعرض منكبين. شعره أشقر ضارب إلى الحمرة، وهو ممثلي صحة مثل أمه. وعاد بريغانتي يكتب.

لم يُلَقِ فرانثيسكو على والده التحية. فال بريغانتي لا يتبادلون التحية فيما بينهم صباحاً أو مساءً. لم يكن يشعر بالذعاس بتأثير الانفعال الذي ما يزال يعتدل في نفسه، لكثرة ما عزف من الجاز، كما يشوب انفعاله شيء من القلق بسبب الموعد المضروب مع دونا لوكريزيا في بحر النهار، وكل ما سينجم عنه من نتائج.

ثم انتقل إلى البهو فأخذ عدداً من التوليفات المصنوفة بعناية فوق أحد الرفوف قرب الأسطوانات والكتب. عدد الكتب في الواقع قليل جداً. ثم رجع إلى غرفة الطعام فجلس مقابل والده وشرع في قراءة التوليفات منتقلاً من واحدة إلى أخرى، معيداً النظر في هذه فتلك.

فكر ماتيو بريغانتي بكثير من الرضا، وهو يكتب إلى معارفه من رجال الأعمال، في أن ابنه صموت. ومع أنه مساءً، لأنه أشقر ذو شعر ضارب للحمرة، وممثلي صحة وعافية مثل أمه، فهو راض عنه لأنه صموت، ولأن وجهه يذم دوماً على سرّ يخبئه. ولأن فرانثيسكو سيعرف يوماً كيف يقف من رجال القانون موقف الذد للند.

وهو قلماً يعطيه نقوداً مصروف جيب، تماشياً مع مبدئه، ما دام الولد لما يبدأ بكسب عيشه بنفسه. فيدفع له نفقات الدراسة في كلية الحقوق بجامعة نابولي. وتكاليف الطعام والإقامة عند ابن عم أمه، الذي أصله من تريسّي وصار كاهناً فيما بعد. ويقيم فرانثيسكو في دار الكاهن في ساننا لوتشيا. كما قدّم له الغيتار الكهربائي، وهو تحفة ثمينة من النوع الفاخر، ليستطيع بواسطته

أن يثبت مركزه وأن يباهي أقرانه أبناء أعيان بورتو مزاكوري، وكلهم طلاب مثله، قاموا بتشكيل حلقة للجاز. وعلى ذلك النحو أمكن لفرانشيسكو أن يدخل دار القاضي أليساندرو الذي تُعنى زوجته بالموسيقى.

وضع فرانشيسكو أمامه توليفة جديدة وبدأ يسجل عليها العلامات الموسيقية بسرعة. ويجدر بالذكر أنه حصل على الميدالية الفضية في مهرجان نابولي الأخير لتلحين الأغاني القصيرة. وفيما هو مستغرق في عمله، أخذ بريغانتي ينظر إليه بكثير من الاستمتاع. وتردد قبل أن يعكّر عليه صفو مثل ذلك الانكباب الدؤوب. لكنه عاد فرأى أن مباحثة ابنه على حين غرة، مثلاً هي الحال الآن، خير وسيلة لإرباكه وبلوغ الحقيقة.

سأله قائلاً:

- لماذا تطلب أن يرسلوك على شباك البريد؟

رفع فرانشيسكو نظره متمهلاً. قائلاً في نفسه:

«تلك هي الطامة الكبرى. لقد أخبره موظف البريد، فبات يعرف الآن كل شيء». كان عليّ أن أفكر في ذلك مسبقاً وأن أعدّ للأمر عُذته».

ثم رفع رأسه ببطء وقال:

- أجل يا أبي.

- لكنني لا أسألك إن كنت تتلقى رسائل عن طريق شباك البريد. فأنا أعرف ذلك. بل أسألك لماذا؟

حدّق بريغانتي في عيني ابنه تحديقاً شديداً. فلم يطرّف لفرانشيسكو جفن. كانت عيناه الزرقاوان كبيرتين تطفوان على صفحة وجهه. فنظر في وجه أبيه هنيهة، وهو صامت، ثم قال:

- ليس للأمر من أهمية تذكر.

حاول بريغانتي بالنظرة القاسية من عينيهِ الصغيرتين، أن يغوص إلى أعماق عيني ابنه الواسعتين النديكتين. لكن هيهات أن يصل منهما إلى

الأعماق. فالنبال الرخامية، مهما انطلقت عالياً، لا يسعها أن تخترق كبد السماء. ولم يبدُ الأب مستاءً من عجزه عن ذلك. فكل ما يتمتع به رجال الأعمال من مكر ودهاء لا بد أن يتحطم مستقبلاً على صخرة جبل الأولمب الأشم هذا. وسأله بريغانتي قائلاً:

- لديك إذن في نابولي محبوبة صغيرة؟

فكر فرانثيسكو برهة متسائلاً في نفسه: «أهو فخ أم عصا نجاه؟ قد يكون فخاً، لكن من الخير الاعتماد على خطأ غير قابل للإثبات». لم يشفُ شيء من تفكيره ولم يبدُ أثرٌ في عينيه اللتين يختلط فيهما البؤبؤ بالحدقة، ولا على وجهه السميك المستدير المستقر فوق عنق طويل وعريض، مثل عنق الإله جوبيتر.

قال:

- أجل يا أبي.

- لست أرى ما يضير في أن تكون لك عشيقة صغيرة في نابولي. بل بوسعك أن تقول لها أن تراسلك على عنوان المنزل.

- سأقول لها.

- هل هي الآن في إجازتها الصيفية؟

- أجل، يا أبي.

- وهل تمضي إجازتها في تورينو؟

- كلا، يا أبي.

- لكن المظروف يحمل خاتم بريد تورينو.

- لم أشاهد ذلك.

- لكن انظر.

- لم يعد المظروف في حوزتي.

- انظر اسم المكان الذي أُرِخت منه الرسالة.
- لم تعد الرسالة في حوزتي.
- أتعرف حقاً أين هي تلك الفتاة؟
- أجل يا أبي.
- وهل يُضيرك في شيء أن تقول لي أين هي؟
- إنها تقضي إجازتها في مقاطعة الليمونت.
- عند أقرباء لها؟
- أجل، يا أبي.
- هنا قال ماتيو بريغانتني:
- الآن فهمت. لقد أودعت الرسالة في بريد تورينو، كي لا يلاحظ أقرباؤها أنها تكتب لك.
- هذا هو الأرجح.
- أهي تقدم عند أبيها وأُمها؟
- أعتقد ذلك.
- يبدو أنك لا تعرف الكثير عن شؤونها...
- كلا، يا أبي.
- ولم تكتب لك على الآلة الكاتبة؟
- إنها تعمل ضاربة على الآلة الكاتبة.
- وهل حملت آلتها معها وهي في الإجازة؟
- لا أعرف.
- فكرَ بريغانتني قائلاً في نفسه: «ألا كم سيكون رائعاً وهو يجابه رجال القانون». لكنه حرص على إخفاء النشوة التي أفعمت نفسه فعاود الكتابة.

فكر فرانشيسكو قائلاً في نفسه: إذا كان قد قرأ الرسالة فهو الآن
يقلّبي فوق الجمر، فينفذ فيّ السيف وينصب لي الشرّك. لكن إن لم تكن
الرسالة قد وقعت في يده وكان موظف البريد قد وصفها له فقط وحدثه عن
خاتم الغلاف فقد ربح. علينا بالحيلة والحدز.

رفع بريغانتى رأسه وقال:

- أمل ألا تقع في أخطاء فاحشة بكتابتك لهذه الفتاة...

- كلا، يا أبي.

- هل تذكر ما قلت لك في هذا الصدد؟

- أجل، يا أبي. فأنا لا أكتب أبداً إلا والقانون نصب عيني.

- هل تذكر أنه ليست ثمة سوى وسيلة وحيدة تحول ما بين الفتاة
وإنجاب الأطفال؟

- أجل يا أبي.

- وهي، هل تقبل بذلك؟

- أجل، يا أبي.

ضحك بريغانتى بصمت دون أن يكف عن الكتابة.

ثم قال:

- إليكم هؤلاء الضاربات على الآلة الكاتبة. إن بنات بيوت المتعة أقل
منهنّ مجاملة.

ولزم الصمت من بعد. فعاد فرانشيسكو إلى توليفات جديدة.

* * *

عندما انتهى الحفل عاد مدير فرع مصرف نابولي إلى بيته مع زوجته.
بنت مستاءة جداً لأنه راقص جوزيينا مراراً. وجلس فيما هي تنزع ملابسها
بصمت. حين استلقت على السرير نهض قائلاً: أنا عائد لأدخن سيجارة في
الساحة. فصاحت به قائلة:

- بل أنت عائد للقاء تلك الفتاة.

- قلتُ لكِ إنني ماضٍ لتدخين سيجارة. فلي الحق في استنشاق الهواء النقي. أليس كذلك؟

رجع ليلتقي بجوزينا. فهما الآن يتعانقان في عمة رواق أحد أجنحة القصر الأنجوفينية.

راح بيزاشيو، نزولاً عند أوامر ماتيو بريغانتني، يطوف شوارع المدينة جساً. فوقع نظره على جوزينا ومدير فرع مصرف نابولي. ففكر قائلاً: «هذه تسعى دائماً في أثر الرجال المتزوجين»، ودون (في ذاكرته) ذلك الأمر العابر مصادفة. فهذان الاثنان ليسا المقصودين بمراقبته، ولا تطالهما المهمة التي أوكلها إليه ماتيو بريغانتني.

ما زال القاضي أليساندرو، في طابق السراي الرابع، ساهراً في مكتبه الذي صار أيضاً غرفة لدومه، مذ أن طالبت دونا لوكريزيا بغرفة نوم مستقلة. ولسوف يرقد عند الفجر فوق أريكة تحت رفوف الكتب.

إنه يدون مذكراته اليومية الخاصة في دفتر، وتتناوب أسطر كتابته صعوداً وهبوطاً لأن ذوبة البرداء لما تنته تماماً.

«... لن أتمكن أبداً من إنجاز كتابي «فريدريك الثاني المشرع العلماني» الذي كنتُ أحدثُ عنه خطبتي لوكريزيا فيما مضى. ولست سوى واحد من عشرة آلاف رجل قانون إيطالي بدؤوا بكتابة مؤلف عامر بالأفكار الأصلية المبتكرة المتعلقة بنقطة معينة من تاريخ الحقوق، إنما هذا المؤلف لن يُنجز أبداً. فالوسائل تعوزني».

«قبل سبع مئة وخمسين عاماً بالضبط، نزل فريدريك الثاني في بورتو مناكوري وهو عائد من جزيرة رودس. كان جيش البابا قد اجتاح مملكته أثناء غيابه، فلم يمكث في البرج الذي أراه من نافذتي أكثر من ساعتين لشنق عدد من الأتباع الخونة. ثم مضى في الليلة ذاتها إلى لوتشيرا سالكاً دروباً ملتوية. فدخل قلعتها سراً واستعاد السيطرة على الجنود المغاربة الذين باع رئيسهم

نفسه للبابا. وبعد ثمانية أيام تغلب على الجيش البابوي عدد أبواب مدينة فوجيا ولاحق قتلوه حتى بينيفان. وتمكن بعد شهرين من استرجاع نابولي وباليرومو وبدأ يهدد روما. لقد كان فريديريك الثاني يملك كثيراً من الوسائل. وكان القضاة الذين عينهم للقيام بوضع تشريع جديد رجالاً لا تعوزهم الوسائل. لقد خلقت لوكريزيا لتكون زوجة لواحد من أولئك القضاة».

«كان فريديريك الثاني مستبداً، لكنه حارب الإقطاعيين المتحالفين مع البابا وفرض مزيداً من العدل في إيطاليا الجنوبية. فهل يكون الاستبداد ضرورياً لإحلال المزيد من العدل؟»

وظل القاضي يكتب في دفتره لفترة طويلة.

تحمل الجدران شاهداً على نوعية اهتماماته منذ بدء حياته المهنية. فهناك صورٌ عديدة تمثل فريديريك الثاني دوسواب. وصور في أطرٍ زجاجية التقطها القاضي بنفسه لبعض القصور التي شيدها الملك العظيم في منطقة البولي. فألصق عند أسفل كل إطار شريطاً ورقياً صغيراً يحمل عبارة معينة أو تعليقاً موجزاً مطبوعاً على الآلة الكاتبة مثل:

«كاستل ديل مونتي أو القصر القوطي العقلاني».

«لوتشيرا، قبل فولتير بخمس مئة سنة، المغاربة في خدمة العقل».

«بينيفان، المرتزقة الألمان ينفذون القانون الروماني».

كتب القاضي تلك الخواطر والشروح كلها على شكل حكمٍ أو عِبَرٍ قبل عشر سنين. فقد جرى تعيينه للتو في بورتو مناكوري ونزل في طابق السراي الرابع مع عروسه الشابة دونا لوكريزيا. وكان آنذاك يقول مزهواً: «أنا رجل ثقافة من جنوب إيطاليا». أما اليوم فقد مالت الشرطة الورق الملصقة في أسفل الأطر الزجاجية نحو الأصفر، وحبر الكتابة حال لونه.

صار الآن يكرّس القسم الأكبر من أوقات فراغه لعمل أطلق عليه اسم قاموس الغباء. وقد وضعه في علب من الصفيح الأبيض الكبيرة الملاءة، يزوده بها والد جوزيبياً بائع الخرداوات.

إنها مجموعة من البطاقات البريدية ذات موضوع، تباع في المكتبات ومحلات الموالح والتبوغ: منها سلسلة السيارة الصغيرة (تمثل عاشقين في أوضاع شديدة التنوع والاختلاف: فهنا يتبادلان البسمات، وهنالك القبلات. في هذه الصورة يتخاصمان، وفي تلك يقرآن أبياتاً من الشعر. وهما في تلك الصور كلهما وراء مقود السيارة). وهنالك سلسلة بطاقات فوق الفيسبا، وسلسلة زوجين شابين في بدء حياتهما داخل عش زوجية صغير على الطريقة الأميركية، بدون أولاد أو بوجود أولاد، ينبغان الورق أو ينظران الى التلفزيون... لقد ملأ علماً عديدة بمثل تلك المجموعات من البطاقات. حسبه أن يلقي نظرة عليها، حين لا تتأبه نوبة ملاريا، حتى يشرق ذهنه وتتفتح قريحته.

انقضى وقت طويل على توقف الأوركسترا عن العزف، وعلى انطفاء المصابيح الكبيرة الزرقاء - البيضاء التي كانت تضيء مكان الحفل. وبدأ الفجر يبرز فيضيء السماء، والقاضي أليساندرو ما يزال يكتب:

«لو أن واحداً مثل فريدريك الثاني دوسواب بُعث مجدداً من بين صفوف أي من الأحزاب السياسية القائمة في إيطاليا حالياً، لتوصل بكل يسر لأن يؤمن لكل عامل الحصول على سيارة من نوع فيات وجهاز تلفزيون. عندها لن يمكن العثور على رجل واحد عاطل عن العمل ومفترغ للتفكير. فالغباء هو، ضرورة، ضريبة العدالة».

وأعاد قراءة الجملة الأخيرة فشطب كلمة «هو» واستبدل بها كلمة «أ يكون» ووضع إشارة استفهام في نهاية الكلام بدلاً من النقطة: «أ يكون الغباء، ضرورة، ضريبة العدالة؟» إنه رجل متشدد في التدقيق. ثم أغلق دفتره وذهب ليستلقي فوق الأريكة الصغيرة الضيقة، تحت رفوف الكتب التي لم يعد يقرأها إلا نادراً.

وهو يترك بشكل عام دفتر مذكراته الخاص فوق طاولة عمله، أملاً في أن يدفع الفضول بدونا لوكريزيا الى قراءته أثناء غيابه. ولسوف

تلاحظ أنه ما تزال لديه أفكار كثيرة. لكن حب الاطلاع لديها لم يصل بها إلى فتح الدفتر قط.

نام القاضي نوماً دبقاً من شدة التعرق مثل كافة المصابين بالمalaria. وأشرقت الشمس من وراء لسان الجبل الذي يسد من ناحية الشرق خليج بوردو مناكوري. وانطلق الغلام الذي يعمل عند دون أوتافيو على شاحنته ثلاثية العجلات، ليقوم بجمع أنية حليب الماعز من فوق التلال وراء البحيرة.

استسلم بيزاشيو لإغفاءة فوق مقعد خشبي على رصيف الساحة. إلا أن ضجيج محرك الشاحنة أيقظه. وبما أن الحركة سوف تدب بعد قليل في كافة أرجاء المدينة، فقد ذهب ليمركز تحت صنوبرة مورا. لأن نظره يطال من هنالك كافة أرجاء الساحة الكبرى وشارع غاريبالدي كله.

توقف غلام دون أوتافيو قرب أول حجر كيلومتری عند مخرج المدينة. وهو يتوقف عنده كل صباح. الأمر صادر عن بيبو. لا يحمل الحجر في أغلب الأحيان أي كتابة. أما اليوم فقد قام أحدهم برسم صليب أحمر داخل دائرة حمراء. فحمل تلك الملاحظة وقفل راجعاً إلى مناكوري بأقصى سرعة.

ترك شاحنته عند أسفل المدينة القديمة وانطلق راكضاً بين الأزقة حتى وصل إلى الدار التي يجب أن يقصدها.

شاهد بيزاشيو الغلام وهو يترك شاحنته ويدخل المدينة القديمة. فتبعه متطياً بالجدران متخفياً عند الأركان والزوايا.

أيقظ الغلام بيبو، وقال له:

- هنالك دائرة وصليب في وسط الدائرة.

قال بيبو:

- فهمت.

وقفل الغلام راجعاً إلى شاحنته. نهض بيبو فتمطى وألقى نظرة من النافذة فلم تقع عينه على بيزاشيو. ثم خرج وتوجّه نحو الساحة الكبرى

فاجتازها على مهل. إنها ما تزال مقفرة. أما فوق البحر، فقد تابع السيروكو والليبيشيرو صراع العمالة إياه. تغلب الليبيشيرو على السيروكو لعدة كيلو مترات فتقدم صف الغيوم حتى أغلق مدخل الخليج. وارتفعت الشمس بسرعة فأصبحت فوق غابة الصنوبر التي تغطي لسان الجبل. وأشار ميزان الحرارة على باب الصيدلي إلى ٢٨ درجة.

خرج بيبو من المدينة وتوجه نحو الجبل. فبلغ بسرعة دعامته الأولى التي تبدأ عند منطقة البساتين. إن عدد بساتين البرتقال والليمون المنتشرة فوق دعائم الجبل الأولى كبير جداً، حتى أن بحارة المراكب التي تمخر عباب اليم في الربيع على مرأى من الشاطئ، يستشقون العبير المسكر الذي يفوح من أزهار البرتقال وأزهار الليمون، قبل أن ترسو مراكبهم عند الشاطئ بمسافة طويلة، حتى لكان أرتال الأمواج المزبدة قد تحولت إلى بستان مترامي الأطراف.

توجه بيبو دونما تردد نحو مائة الدروب الجوفاء، بين الجدران العالية المحيطة بالنثار الخضراء التي بدأت تستدير وتتكور، مثل نهدي مارييت، والتي سوف تصفر عما قريب لتصبح بلون الذهب. أخرج المفتاح من مخبئه ففتح الباب ثم أغلقه وأعاد المفتاح إلى مكانه، وتوجه حافي القدمين صاعداً نحو المستودع، راكضاً برشاقة، متجاوزاً الأبنية الترايبية التي تترقرق فيها المياه الجارية.

وجد مارييت وهي تغسل وجهها في حوض الينبوع الصغير العلوي قرب المستودع الذي أمضت فيه ليلتها. ها هما الآن وجهاً لوجه. فهي في قميصها الرقيق الأبيض، عارية إلا منه، مشمورة الكمين، مبعثرة الشعر، وقطرات الماء تسيل على وجهها وساعديها. وهو في أسماق قميصه المتهلّل عن كتفيه كالوشاح، وضافئر شعره الأسود تنسدل فوق جبينه.

- ماذا فعلن بك أيضاً .

- لقد قمن بجلدي.

- هل أنت متألمة الآن؟

- كلا، لكنّ دوري سوف يأتي.

- هل تنوين العودة إلى السبخة؟

- لست أدري. لا بدّ لي من أن أفكّر.

- متى سيرجع المهندس الزراعي للحصول على الجواب؟

- إمّا اليوم أو غداً... لكن لا أهميّة لذلك لا سيّما أنّي لا أريد الذهاب إليه.

ثمّ جلس الاثنان جنباً إلى جنب فوق الحافة الترابية لحوض النبع.

كانت الشمس ترسل أشعتها اللاهبة في كل اتجاه. أمّا هنا في البستان ذي الينابيع فالوضع مختلف جداً. فتحت قباب أشجار البرتقال والليمون، وأشجار التين بأوراقها الغضة الممتلئة، وفي ظلّ سياجات شجر الغار، التي تقطع البستان في أكثر من موقع، دعماً للأسوار الخارجية العالية، وحماية للأشجار من رياح الشتاء القادمة من البحر، وعلى أنغام سقسقة المياه الجارية، وفي الهواء العابق بأريج الأزهار التي ستثمر شتاءً، في حين بدأت ثمار الخريف تأخذ لونها الذهبي، هنا تجد الجو منعشاً ندياً إن لم نقل أنّه مائل للبرودة. وينتابك إحساس بالبهجة وأنت هنا في الظلّ الرطب، فيما هنالك السماء والأرض والبحر تلتهب كلّها.

لما تبغّ مارييت السابعة عشرة من عمرها، ولما يتجاوز بيبي السادسة عشرة إلا بقليل. لم يسبق لهما أن طالعا شيئاً على الإطلاق لأنهما لا يعرفان من القراءة والكتابة إلا النزر اليسير. إنهما جالسان براحة في الظل المنعش، جنباً إلى جنب ويداً بيد، يصغيان إلى خرير الماء المترقّق تحت أقدامهما، وكلاهما مستمتع بنداوة يد الآخر في يده...

- جلبت لك شيئاً...

وقدّم بيبي الموسى لمارييت. النصل منكمّيء داخل المقبض الأسود اللماع المرصع بتعريقات نحاسية. وبرز ظهر النصل عند طرفه كالمهماز.

هذا القسم يدخل تحت قشرة الغصن بعد شقها ليباعد بين الشقين قبل وضع الطعام. فعندما تمسك بالموسى في راحة كفك وتطبق عليها بأصابعك، يبرز هذا النتوء، مثل عرف ديك المبارزة.

فتحت مارييت الموسى ونظرت إلى العلامة المحفورة عند أسفل النصل: رأسا ثورين كبيرين بقرون عالية مقوسة. قالت:

- هذا يصل ثمنه إلى ثمان مئة لير على الأقل.

وتحسست بإصبعها حد النصل.

- إنه مشحوذ جيداً، يا له من نصل جميل حاد. ومرهف مثل موسى الحلاقة...
ثم أغدقته. كان النابض شديداً فارتد النصل إلى مكانه بطريقة أشبه ما تكون بطريقة إبرة مسدس عند شد الزناد. ويمكن لعدم الخبرة بهذا النوع من الأمواس أن يتعرض لقص إصبعه. لكن مارييت ولدت في بلد البساتين وترعرعت على طرقات نصال الأمواس.

قالت:

- يالها من موسى رائعة. فماذا تريد أن أفعل بها؟

ثم نظرت في وجه بيبيو وقالت مازحة:

- سأحتفظ بها لحلاقة ذقك حين ينبت فيها الشعر...

قال بيبيو:

- هذه موسى ماتييو بريغانتي.

فهبت مارييت واقفة لهول المفاجأة.

قالت:

- أهذا صحيح؟

قال بيبيو:

- أجل.

فصاحت مارييت:

- مرحى لكم!

قصّ بيبو عليها عملية الهزود الحمر بالتفصيل. وكيف أعدّ الخطة بالتعاون مع بالدو. وكيف تصرفّ الواليوني على أحسن وجه. وكيف وانتّه فكرة الظهور أمام أعين الجميع، في منهل نادي الرياضة، ساعة التنفيذ، إثباتَ براءة قاطعاً. ثم عدّد لها الغنائم من الألمانين والمصطافين. وأخيراً من بريغانتني نفسه.

كانت مارييت تقبض على موسى بشدة وتتابع بشغف تفاصيل العملية ومراحلها:

- مرحى لكم أيها الواليوني! مرحى لك يا بيبو!

وفجأة اكفهرت نظرتها المضيفة.

إنّها الحرب قد أعلنت إذن على بريغانتني.

قال بيبو:

- نحن في حرب معه منذ زمن طويل.

- وأنت بعملك هذا وجهت له تحدياً جديداً.

قال بيبو:

- إنني أتحداك يا بريغانتني!

فرفعت مارييت ذراعها متوجّهة بقبضة يدها نحو المدينة وصاحت:

- تقدّموا، أيها الواليوني. الموت لماتيو بريغانتني .

ثم التفتت ناحية بيبو وقالت:

- سوف نتغلب على ماتيو بريغانتني. فأحساسي يقول لي ذلك .

وتابعاً الحديث مطوّلاً حول شؤونهما ومشاغلهما. ثم قال بيبو:

- والآن ما هو قرارك؟

- لست أدري بعد. قد يكون عليّ النزول ثانية إلى السبخة...

- ومتى يكون الهروب؟
- قد يكون أقرب مما كنت أظن سابقاً.
- حسبما تشائين.
- وهل ستتخلي عن الواليوني؟
- سوف نعمل على إحضارهم شيئاً فشيئاً. واحداً فواحداً...
- قالت مارييت:
- سوف أفكر. سأفكر النهار بطوله. ولا بدّ لي من التوصل إلى حل...
- قال بيديو:
- وأنا سأرجع لرؤيتك مساءً .
- وفيما هو متجه إلى مناكوري، لقيَ اثنين من الواليوني العاملين عند دون سيزار، صاعدين إلى البستان لصيانة الأبنية القرابية. فقال لهما بيديو:
- ليس في المستودع من أحد.
- نعرف جيداً من هو هذا الـ «لا أحد».
- فكرّر بيديو بشيء من الحزم:
- ليس من أحد.
- وكرّر الغلامان مبتسمين:
- لا أحد... لا أحد...
- عادت مارييت إلى المستودع لتجلس فوق الأكياس واضعة مرفقيها فوق ركبتيها ورأسها فوق يديها. سوف تظل على هذه الحال طول النهار تضع الخطط وتعد المشاريع.

* * *

حين بدا فرانثيسكو مستعداً تماماً للسفر كانت الساعة تشير إلى الثامنة. كانت أمه في المطبخ منهمكة في إعداد الفطور لبريغانتني.

سألته أمه:

- هل أنت مسافر الآن؟

لقد توقع أن تسأله ذلك. فأجاب:

- أجل، أنا ذاهب إلى شيافوني .

شيافوني مرفأ صيد صغير، يقع في الجانب الآخر من لسان الجبل الممتد داخل البحر والمكمل بغابة الصنوبر. وهو الذي يخلق المدخل الشرقي لخليج مناكوري المناظر تماماً للسبخة والبحيرة. لم يسأل بريغانتي ابنه عما سيفعل في شيافوني. وهذا ما بث الارتباك في نفس فرانثيسكو. فقد توقع هذا السؤال. الواقع أن ماتيو بريغانتي قرّر معاملة ابنه رجلاً، أكثر من ذي قبل، وأن يدع له مزيداً من الحرية.

تلكاً فرانثيسكو في خروجه من المطبخ قاضماً قطعة من البسكوت.

قالت الأم:

- شيافوني بعيدة حقاً.

- إنها لا تبعد أكثر من خمسة عشر كيلو متراً. ولن يستغرق مني الطريق طويلاً. سوف يعيرني دون روجيرو دراجته الفيسبا.

وسألته الأم:

- لكن ما حاجتك لأن تستعير فيسبا دون روجيرو؟

- عليّ أن أذهب إلى شيافوني بشأن بوق... فقد بلغني أن فرقة الجاز عندهم فيها بوق ممتاز... ومساءً أمس لم أكن راضياً عن بوقنا...

فدخل بريغانتي ليقول:

- إن لم يكن راضياً عن بوقه، فله الحق في تغييره.

ثم أضاف:

- هل لديك نقود من أجل البنزين؟

- المسافة ثلاثون كيلومتراً ذهاباً وإياباً... ولن يحاسبني دون روجيرو
على سعر ليتر واحد من البنزين.

فقال بريغانتي:

- قدراتي المادية لا تقلّ عن قدرات والد دون روجيرو.

وأعطى ابنه ورقة من فئة ألف لير فلم يظهر دهشته. لكنّ الخوف
المعتمل داخل أحشائه منذ عدة أسابيع ازداد بتأثير تصرف أبيه. فهل أبوه
على علم بالأمر؟ لو كان على علم به لما قدّم هدية الألف لير هذه قط. أم لعله
فخ منصوب؟ وأي فخ سيكون؟ الواقع أنّ فرانثيسكو لم يرّ أين الخدعة. فقد
سار كل شيء هذا الصباح على مثل ما توقّع، إلا أنّ أمّه هي التي طرحت
عليه الأسئلة التي كان ينتظرها من أبيه. (كذلك لم يتوقع هذا السخاء المدهش
المتّمل في الألف لير). وما همّه من طرح الأسئلة. حسب فرانثيسكو أنّه
جاء بالإجابة المعدّة سلفاً، حتّى أنّ بريغانتي لم تستول عليه الدهشة حين علم
من أحد مخبريه المساعدين أنّه شاهد ابنه في غابة الصنوبر على طريق
شيفوني راكباً فيسبا دون روجيرو. فالنتيجة جاءت كالمطلوب. مع هذا كلّه،
ظلّ الخوف المسيطر على فرانثيسكو في ازدياد. فقد انساق منذ عدة أسابيع
ضمن تيار سلسلة من الأحداث دون أن يعرف كيف تكون وجهته. وكل يوم
يمرّ يحمل إليه مزيداً من الخوف.

قالت الأم:

- كان بوسعه اليوم البقاء فيما بيننا، لا سيّما أنّه ذاهب غداً لقضاء
أسبوع عند خاله في بينيفان...

فقال بريغانتي:

- لقد بلغ سنّ معرفة ما يجب عليه أن يفعل.

خرج فرانثيسكو ببطء، طويلاً عريض المنكبين. سار بخطى موزونة
لا يمكن لأحد على ما يبدو أن يحرفها عن خطها. والحال دائماً على هذا

النحو: فالذين باتوا غير قادرين على التحكّم في أقدارهم يتخذون سيماء المتحكّمين في أقدارهم ومشيتهم. وأعجب بريغانتى بوذوق خطوة ابنه.

ها هو فرانثيسكو يجري الآن متجهاً إلى شيافوني على القيسبا التي أعاره إياها رفيقه في كلية الحقوق.

التقى بدونا لوكريزيا لأول مرة في فصل الشتاء الفائت، أثناء إجازة عيد الميلاد، في بيت الملاك الكبير دون أوتافيو، والد دون روجيرو، لدى استقبال صغير دعا إليه، مثلما يفعل كل وجيه في مناكوري عدة مرات في العام. ولا يدعى ماتيوي بريغانتى لمثل هذه المناسبات مطلقاً. صحيح أنه أكثر ثروة وأوسع نفوذاً من غالبية الأعيان، لكنهما ثروة ونفوذ لأمر واقع، فلا يؤمّان له أيّ حقوق. وينبغي عليه، لكي يتخطى هذا الحاجز القائم، أن يُنتخب عمدة المدينة أو أن يلتقى وساماً، أو أن يُمنح من قبل الحكومة رتبة فارس أو قائد. وكلّما لمثل هذا أن يحصل. لكن ارتقاءه إلى مرتبة الواجهة ظلّ يتأخّر، لا بسبب طعنة الموسى التي سددها فيما مضى لغلام اغتصب إحدى شقيقاته، ولا بسبب ابتزازه الشامل، الذي بات الجميع متعوداً عليه، بقدر ما هو عائد إلى خدمته الطويلة في سلاح البحرية دون أن يتجاوز رتبة عريف بحار. أمّا فرانثيسكو فيدرس الحقوق في نابولي مثل أبناء الأعيان، ويقود فرقة الجاز. فلا مشكلة في هذا الصدد. ولم يتلكأ دون أوتافيو في قبول اقتراح ابنه دون روجيرو حين رغب في دعوة فرانثيسكو في العام الماضي. وما لبث أن دُعيَ فيما بعد إلى بيوت أسر أخرى.

أُتيح له على ذلك النحو، أن يلتقي بدونا لوكريزيا مرات عديدة، في عطلة عيد الميلاد، عند هؤلاء تارة وعند أولئك تارة أخرى. وكان اللقاء مرة في بيتها، أثناء الأمسية التي تنظّمها كل عام. وهي سهرة وحيدة تحييها بدافع التحرّر من الأعباء الاجتماعية. وقد أخبرته فيما بعد أنها لا تحب كثيراً مثل تلك المناسبات، لا سيما في بورتو مناكوري.

ولمّا لم يكونا، لا هو ولا هي، يلعبان البريدج، وبما أنّها لا ترقص ولا هو كذلك، فقد أمكن لهما الالتقاء معاً في أغلب الأحيان قرب الحاكي. ولطالما تحدثنا عن الأسطوانات التي يختارنها سوياً. أخبرها أنّه ينصرف الى التأليف الموسيقي أحياناً. كما أصغى بانتباه لآرائها في الموسيقى. ثم تبين له أنّها تهوى الروايات. ولمّا كان يجهل أسماء غالبية الكتّاب الذين حدثته عنهم، فقد حازت على إعجابه.

ولئن كان قد بلغ الثانية والعشرين فما زالت معرفته بالنساء محدودة جداً. وهو يرتاد بين حين وآخر دور المتعة في فوجياً أو في نابولي. لكنّ نقوده القليلة لا تدعه يمكث أكثر من هنيئة في الغرفة المدهونة بالأبيض كأنّها عيادة في مستوصف. أمّا التعليمات الصحية فمعلّقة على الجدار قرب المغسلة حسبما يقتضي النظام الأمني. والتوصيات الهامة منها مكتوبة بحروف كبيرة. فضرورة الماء المطهر للفق والراحتين (يُنصح باستخدامه لكنه غير إلزامي)، موضوعة على الرف الزجاجي فوق المغسلة الأرضية. تلك هي الخطوط الكبرى لأجوائه الغرامية. أمّا لغة العشق التي كانت تتردد على مسامعه فمنها: «يا حبيبي، ألا تستطيع البقاء نصف ساعة فقط؟ لن تتكلف أكثر من ألفي لير»، «ألا تحمل في جيبك خمسين ليراً أخرى؟» «هيا، استعجل». ثم ها هي معاونة القوادة تدقّ على الباب صائحة «هلمّوا، عجلوا».

ويقطع عهداً على نفسه في كل مرة ألا يعود ثانية ليقع فريسة الخيبة والمساومة المزرية. فالعزلة والتخيّلات يمكن أن تمنحه متعة أقوى. لكن ما إن يمرّ بعض الوقت، حتى يتوهّم شيئاً فشيئاً أنّ النساء اللواتي يراودن خيالاته لسن غير الشعور المسبق بالنساء الحقيقيات. فزدفع به الرغبة لأن يتحقّق بنفسه. كما تستبدّ به الحاجة إلى الجسّ واللمس. وهكذا فقد تردد ما بين السادسة عشرة والثانية والعشرين قرابة عشر مرات لقضاء وقت في تلك البيوت.

وهو يعتقد أنّ بنات مدينة نابولي، أي الطالبات اللواتي يلتقي بهن في الكلية، بعيدات المنال مثل فتيات الجنوب كافة. ولما كانت النابوليتانيات

يسخرن من لهجة منطقة البولي، التي لم يجد سبيلاً حتى الآن إلى التخلص منها، فإنه لا يقاربهن البتة على غير ما يفعل رفاقه جميعاً.

أما النساء الوحيدات اللواتي يعرفهن حق المعرفة، فهن اللواتي يراون أحلام يقظته. وهو يصورهن بملامح متغيرة بتغير المناسبات. فتارة يأخذن شكل فتاة أجنبية، لمحها نازلة من باخرة في كابري، وتارة أخرى صورة خادمة في مقهى قدمت له فجان قهوة مصحوباً بابتسامة عذبة، ومرة ثالثة عابرة سبيل مجهولة مشى خلفها دون أن يجرؤ على مبادلتها الكلام. وتأخذ الصورة أحياناً شكل امرأة لا يسعه اشتهاؤها حتى في الخيال لكنها تفرض نفسها على أحلامه فرضاً. وهي غالباً امرأة مسنة مهيبّة، بدينة، يلحمها من نافذة قريبه كاهن سانتالونشيا، وهي تجرّ عدداً من صغارها بعد أن قيدتهم بسير جلدي طويل.

أما دونا لوكريزيا فلم تراود حتى الآن أحلام يقظته مرة واحدة. إنّ أول ما بهره في دونا لوكريزيا يُسرّها. ثم ما لبث أن دعا ذلك بالانطلاق. والواقع أنها هي التي أوحى إليه بهذه التسمية حين أطلقتها على بطلة رواية جعلته يقرأها مترجمة عن الفرنسية، «دير بارم».

فموسيقى الجاز، وقنص طيور الحديد، وبيتوفن والروايات الفرنسية، والحب على الطريقة الفرنسية، تلك المواضيع كلّها لا تقربها نساء الجنوب قط أو لم تتعرض لها بحديث، كافة اللواتي التقى بهنّ حتى اليوم من نساء الجنوب. أما دونا لوكريزيا فتتناول في أحاديثها أي شيء ببسر وسهولة. كأنه أمر طبيعي جداً أن تتحدث زوجة قاضي بورغو مناكوري عن هذه الأشياء كلّها. وينطبق الوصف في ذاته على حركاتها: فحين تنتقل في استقبال ما من مجموعة إلى أخرى، أو تنهض عن كرسي لتجلس على كنب، أو تترك المائدة لتقف عند النافذة. حين تقوم بشيء من هذا القبيل، لا يسع المرء أن يخمن (مثلما يفعل بكل يسر حين يتعلق الأمر بالنساء الأخريات) أنها تختار مكاناً يزيدّها ظهوراً، أو تبحث عن مستمعين تقشي إليهم بقصة مشبوهة.

حاشاها ذلك. فحركاتها تبقى دوماً في مأى عن كل حدس أو توقع. وتولد
لديك انطباعاً بأنها تتحرك من ذاتها لذاتها، لراحتها هي، دونما تأثر بالآخرين.
وتتنقل مثلما يفعل السيل الذي يجري وفق قانونه الخاص.

لم يسبق له أن التقي بامرأة لها طبيعة خاصة فكان سلوكها متوافقاً مع
طبيعتها. أمّا المرض الذي ألمّ به في الربيع وجعله يلزم بورتو مناكوري
طول شهرين من النقاهة، فقد أفسح له المجال لاكتشاف عواطفه بكل أبعادها.
ذلك أنه اعتقد بادئ ذي بدء أنه لم يكن مشغولاً إلا بالانطلاق.

اليوم فقط سوف يلتقيان، وللمرة الأولى، هو وحده وهي وحدها، وجهاً
لوجه. إذ لما يتبادلا قبلة واحدة حتى الآن.

موعدهما في غابة الصنوبر عند سفح لسان الجبل. لكن ينبغي على
فرانشيسكو أولاً أن يصل إلى شيافوني لكي يكون إثبات الوجود كاملاً.

* * *

في تمام الساعة العاشرة دخلت دونا لوكريزيا مكتب زوجها القاضي
أليساندرو. قالت:

- أنا على أتم استعداد.

فسألها قائلاً:

- وهل أنت متمسكة حقاً بالذهاب إلى هنالك؟

- لقد أعلمتهم بأني سأحضر.

- وأنا عاونتني الحمى من جديد.

- إن المفتشة ذاهبة اليوم إلى هنالك خصيصاً لكي تلاقيني.

كان القاضي يتصبّب عرقاً ويرتعد. نظر إليها بقامتها الفارعة
والممشوقة، في ثوبها ذي الأكمام الطويلة والياقة المغلقة. ثم فكر في
نفسه قائلاً: «إن النساء الباردات يذتطنّ هنّ صغيرات السن للقيام
بالتزامات المسنّات».

لزمه ربع ساعة كي يخرج بسيارته التوبولينو إلى الطريق. وبما أنها وضعت ذلك أيضاً في حسابها فلم تكن متأخرة. جلست بجواره صامته، فبت أطول منه بمقدار نصف طول رأسها.

إن أسرتها في فوجيا هي التي بُرت زواجها. فلم تدب أي مقاومة. كان همها الأول آنذاك أن تغادر منزلاً من أربع حجرات يقيم فيه خمسة عشر فرداً. وبلغت الثامنة عشرة من العمر دون أن تتاح لها فرصة الخلوة بنفسها مرة واحدة، إن في الليل أو في النهار. فجدها لأمها وجنتها لأبيها وزوج شقيقتها وإخوتها وأخواتها لم يكفوا عن ممارسة تباغضهم فوق رأسها حسبما كانت تقول.

وإذا صادف وجود الفتيات اللواتي يقاسمنها غرفتها خارج المنزل، أو كن منشغلات في مكان آخر، فإن فكرة إغلاق الباب على نفسها لم تكن لتأتيها، لأنها ستسمعهم يقولون لها: «لديك إذن أشياء تخفينها». وتنتهي الأسرة إلى البرجوازية الصغيرة. فأفرادها موظفون ومستخدمون تجاريون ومحاسبون. والرجال جميعاً يعملون. وتتمتع الأسرة بشيء من رخاء العيش. إذ لا يتوفر للفقراء مسكن من أربع غرف لخمسة عشر شخصاً. فمن الجنوب فائقة الاكتظاظ. وقد تلقى في بعض أحياء تاريني ثمانية أفراد في غرفة واحدة.

إن الاختلاط، على النقيض مما كُتب عنه في نهاية القرن الماضي، لا يقدم للحب أي تسهيلات. فالمرء خاضع للمراقبة على الدوام. وارتكاب المحرمات أكثر ندرة مما قد تنم عليه التلميحات والإيماءات المشبوهة من الآباء لبنتاهم ومن الإخوة لأخواتهم ومن الأشقاء لأشقائهم. فالأمر يقتضي مع التواطؤ صمتاً مطبقاً. وكل ما تؤدي إليه شدة الاختلاط إثارة الخيال دون العمل على تهنيته. أمّا الخوف من الخطيئة، وهو أمر مألوف حتى عند الملحدنين، فيحول الإحساس بالعطش إلى شعور بألم نفسي مبرح.

كانت دونا لوكريزيا فتاة مزهوة طاهرة الذيل. وكان تهامس الفتيات يثير اشمئزازها، كمثل ما تثيره نظرات الرجال إليها واحتكاكهم بها. أمّا

التلميحات المشبوهة التي يتفوه بها المنحرفون، والحركات والإيماءات المريبة التي تصدر عنهم، وأحاديث العجز والخيبة، فتثير فيها التقزز والغثيان. بلغت الثامنة عشرة وهي تجهل شؤون الحب جهلاً تاماً، في مدينة لا يكف أناسها عن التفكير فيه والخوض في أحاديثه، وإن كانوا لا يمارسونه إلا قليلاً.

تابعت دراستها حتى المرحلة الثانوية دون أن تجتاز امتحانها النهائي. وطالعت عدداً من الروايات الفرنسية والإيطالية من القرن التاسع عشر، لكنها مطالعة متقطعة، فهي تقرأ عشرين صفحة هنا وعشرين صفحة هناك، لتجد نفسها مرغمة على التوقف، فتتشغل في حل نزاعات وحسم خلافات، تتشب من دقيقة لأخرى، بين المتعاشين الخمسة عشر. ولم تتوصل إلى إقامة أي رابط بين الحب الذي وصفته لها روايات قرأتها على عجل، وبين الدناءات التي لا يكف النين حولها عن التلميح إليها، وهي بادية علناً وبشكل دائم، في نظرات الرجال النهمة المتسلطة على نهديها وفخذيها. فبات حلمها الوحيد في مرحلة مراهقتها، أن تتمكن من التحرر والانعتاق من عيون الرجال. وهكذا تمكنت بعد الزواج فقط من أن تتعم بالوحدة والسكون لتطالع مطالعة جادة. وشرعت ترسم من خلال الروايات، صوراً لمشاعر الوجد والهوى، على أنها امتياز محظور على نساء إيطاليا الجنوبية وعليها هي نفسها.

شغفت في السنين الأولى بطلاوة حديث زوجها. فغالباً ما سامرها عن فريدريك الثاني دوسواب وعن الملك مانفريد، والملوك الأنجويين وعن الربيانة الإسبانية سادة البحر، وعن الجنرال كودرلوس دولاكوا، الذي دخل مدينة تارنتي على رأس جنود الجمهورية الفرنسية الفتية، حاملاً معه الأفكار الجديدة عن الحرية والسعادة. ولم تعد حياتها بفضل أحاديث القاضي مقتصرة على تلك اللحظة الآنية التي كانت تعيشها. فهي تعرف أن موطنها، جنوب إيطاليا، لم يكن منذ الأزل ذلك المكان الكئيب الموحش العامر بالعاطنين عن العمل، الواقفين بمحاذاة الجدران في انتظار قدوم مخدّم لا يأتي أبداً، ولا البلد الذي يعجّ برجال لا همّ لهم غير حبك الحيل والدسائس للاحتكاك بعدارى يعجزون عن نيلهن.

أما وهي في السرير فكانت تستسلم دونما متعة ولا ضيق. فهي ترى أن حالة التلقي تلك تشكل جزءاً لا يتجزأ من المنغصات التي تتعرض لها النساء عامة.

أتاحت لهما سيارة التوبولينو التي تم شراؤها غداة زواجهما، زيارة منطقة البولي والكنائس القديمة، رومانية الطراز، وتراي وسان نيكولا دوباري، والقلاع الحصينة والأقصور الشامخة، بلونها الأبيض الناصع تحت نور الظهيرة، والمصطبغة بالأوان وردية عند بزوغ الفجر وساعة الأصيل، العزيزة الأبية «طاهرة الذيل مثلك». هذا ما كان يقول لهما أليساندرو. كما قاما بزيارة كل القصور التي بناها فريديريك الثاني دوسواب، ذلك الإمبراطور المهووس بالبناء والتشريع. ومدينة ليتشي المبنية بالحجارة الرخصة، والتي انتظم فيها طراز الباروك دون هيجان، مثلما انتظم الشعر الإيطالي بالوزن السداسي. وتأملًا بوابة سانتا كروتشي، «المنقّحة مثل نهديك». هكذا قال لهما أليساندرو. لقد كان الحجر بطرازه الروماني الحديث أو الفريديريكي أو الباروكي يشهد على ترف الجدود. وظلّ الجنوب طول قرون عديدة ينتج من المحاصيل ما يفوق حاجته بكثير. كان الإنسان آنذاك مزدهراً. وهو اليوم على قيد الحياة: يعيش خاملاً. أما وأنّ الماضي كان مختلفاً فالحاضر قابل للتغيير والتطوير. هذا ما كان القاضي يوضحه لزوجته الفتية.

كان يقول عن نفسه إنه اشتراكي غير ملتزم. أما هي فكانت تطمح إلى شيء أكثر من ذلك، لتساهم بنشاط وفعالية في تطوير الوضع الراهن. لكن تربية الجنوب أقنعتهما:

١ - بأن السياسة ليست من شؤون النساء.

٢ - بأن الجنوب ليس المكان الذي يتقرّر فيه مصير الجنوب.

كانا يطالعان الصحف والمجلات الاشتراكية والشيوعية، جاهدين ليتبينّا ملامح المصير الذي يتمّ تقريره في مكان آخر، لبلدهما، ولهما أيضاً.

لم تأتِها عمليات الحمل والولادة التي تكررَت مرتين، والتي لم ترغب فيها كما لم تمنعها، بأي كشف جديد عن ذاتها. وقد وفّرت عليها الخادمة عناء تنظيف الوليد وغسل الفراش. وقامت من ثمّ برعايتهما وتربيتهما بكل إخلاص ودقة وانتظام، مثلما تقوم بالاغتسال الكامل يومياً، على الرغم من عدم توفر وسائل الراحة في الشقة القائمة في طابق السراي الرابع. إنّ هذه الدقة والعناية الصحية بالأولاد وبنفسها، لتحلّ لديها، دونما تفكير في الأمر، محل الدين الذي لا تؤمن به، ومحل البطولة التي تحول الظروف بينها وبين إبدائها. إلا أنّها لم تعلق على الأولاد تلك الآمال الغامضة التي لم تتحقق لها. فكانت لهذا السبب عينه، لا تحسّ بهم على أنّهم قطعة حقيقية من كبدها. فتدهش للأمر أحياناً دون أن توليه أهمية خاصة. والآن أصبح الولد في التاسعة من عمره والبنت في الخامسة وهي في الثامنة والعشرين.

كان الزواج مكسباً لها. فالغرف الأربع في طابق السراي أفضل بكثير من شقة فوجيا. فهي وزوجها والخادمة والطفلان، خمسة يقيمون فيها، مقابل خمسة عشر هنالك. وعلى الرغم من ضرورة السرير المشترك، وهي ضرورة تمّ الآن تجاوزها، فإنّ صحبة رجل ذكي أفضل بكثير من صحبة أفراد العائلة في فوجيا. لقد تشارك أبوها وزوج أختها على شراء سيارة. فكانا يكرسان الوقت الذي يمضيه خارج المكتب لتنظيفها وتلميعها. في حين أنّ القاضي لا يغسل سيارته التوبولينو البتّة، بل ينسى أحياناً أن يبدل لها الزيت. إنّهُ أفضل من الأب وزوج الأخت. إنّهُ رجل ثقافة.

لكنّ القاضي أليساندرو ارتكب خطيئتين اثنتين بحق دونا لوكريزيا.

حين بلغ الولد السادسة من عمره طلب منها أن ترسله لحضور دروس التعليم المسيحي. علماً بأنّه أمضى شهر العسل والأعوام التي تلت، وهو يساعد زوجته الفتية، على أن تنزع من فكرها بقايا الخرافات والمعتقدات الباطلة، التي لم يذهب بها غليان مرحلة المراهقة. صحيح أنّه كان شغوفاً في أمانته لتقاليد مدققي الجنوب العقلانية. وكان كروشي معلمه. لكن السلطات

المدنية كانت ستظن إليه بعين الريبة، إذا منع أولاده من المناولة الأولى، معتبرة تصرف قاضي بورتو مأكوري على ذلك النحو تحدياً مكتشفاً موجهاً ضد الحكومة. حسبه أنه لم يكن حائزاً على الرضى لأنه لا يحضر القداس يوم الأحد. والأدهى من ذلك أن زوجته أيضاً لا تذهب إلى الكنيسة. كان تصرفه ذلك ينم على شجاعة حقيقية، لم تصل به إلى غايتها بعد إرسال أولاده للتعليم المسيحي. فبدأت لوكريزيا تتساءل ما إذا كان جباناً.

حين جرت عملية احتلال الأراضي البور، وقف القاضي سراً، وهو في بيته في طابق السراي الرابع، إلى جانب العمال الزراعيين مؤيداً موقفهم بكل عنف. لكنه، وهو في قاعة المحكمة، تحت بيته بطابقين، أصدر الحكم عليهم نزولاً عند رغبة الحكومة. فانتهم دوناً لوكريزيا إلى قرارها، بأنها باتت عاجزة عن حب رجل أصبح في نظرها فاقداً كل تقدير واعتبار.

والواقع أنها لم تشعر نحوه بالحب قط. بيد أنها في تلك المرحلة كانت لا تزال تجهل كل شيء عن أحاسيس الهوى. لذا كانت بكل بساطة تعتبر متعة التحدث مع أحد رجال الثقافة حباً حقيقياً.

حاول أن يدافع عن نفسه:

- لم أحكم عليهم إلا بالحد الأدنى من العقوبة. والناس يعرفون ذلك حق المعرفة...

- أنت تؤدي كل عمل بالحد الأدنى. وأنا أعرف ذلك حق المعرفة.

حين طأبت بغرفة نوم مستقلة، صار فظاً في مخاطبتها:

«أنت امرأة باردة»، «أنت لوح جليد»، «أنت قطعة من الخشب». ثم أخذ يتحدث عن «حقوقه زوجاً». فنظرت إليه بازدراء قائلة:

- أنت أسوأ من أبي. صحيح أنه لا يتحدث إلا عن حياة فسقه، لكنه لا يفرضها باسم القانون.

بعد مجادلات دامت عاماً كاملاً توصّلاً إلى اتفاق. فصارت لها غرفة نومها الخاصة بها، لكنّها تعهّدت بأنّ تستقبله فيها بعض الأحيان. فكان عليه في كل مرة أن يكرّر الرجاءات ويوالي الإخطارات.

لقد أنزلها الآن في طرف الخليج، عند مدخل غابة الصنوبر، أمام رواق المنتجع الصيفي لمستخدمي البريد.

وبدأ يناور للرجوع إلى بورتو مناكوري فتقدّم وتأخر ثلاث مرات ليؤدي نصف دورة عند طرف درب ترابي. كانت لسنوات خلت تنظر بعين الرضى إلى قلّة مهارته في القيادة. وتعتبر تلكه فضيلة تميّزه عن باقي الرجال من معارفهما، الأخوين على الدوام بإظهار مهارتهم القيادية، حتّى كأنّ البراعة الفائقة وراء المقود، دليل على مآثر فدولة لا يكفّون عن المفارقة بها. أمّا اليوم وقد غدا في نظرها غير كفء وأخرق فإن ارتباكها وراء المقود يزيد من حدة غيظها.

إنّها واقفة الى جوار التوبولينو. اردّد هو نحو ظهر مقعده من أجل تراجع أخير.

وسألها:

- هل يسعني التراجع؟
- إرجع... هيّا... قف...
- ها قد قضى الأمر. تقدّم ليصبح بالقرب منها ووجهته بورتو مناكوري.
- ألا تريدان حقاً أن أحضر إلى هنا لاصطحابك؟
- قلت لك إنهم سوف يوصلونني.
- وداعاً يا عزيزتي.
- وداعاً.

رواق المنتجع الصيفي القائم على أعمدة رخامية، ذو شبك حديدي مدقن الصنع. وقد شيد في العهد الموسوليني لحساب وزارة البريد. ولم تجر بعد

تدشينه مواصلة الأعمال قط. فغابة الصنوبر تبدأ مباشرة وراء الأعمدة
الرخامية. ويعسكر الأولاد عند الشاطئ تحت خيام عسكرية، بينما تستقر
مكاتب الإدارة داخل غرف خشبية موزعة بين البحر والرواق.

دخلت دونا لوكريزيا غرفة المدير.

- صديقي العزيز لا بد لي من حديثك. فأنا متوجهة إلى الطبيب لأسوي
معه بعض الأمور.

وانتقلت إلى موقع غرفة الطبيب فلم تجد فيها إلا الممرضة.

- أنت منهمكة بالعمل دائماً، يا عزيزتي... أرجو أن تقولني للطبيب إنني
جئت إلى هنا. فالمراقبة الرئيسة تنتظرني.

ثم دخلت غرفة المراقبة الرئيسة لتقول:

- لا أدوي إزعاجك فالمدير ينتظرني.

وتابعت سيرها على الطريق الرملي وراء المعسكر ثم استدارت «لست
أرى من أحد، لكن هنالك عشرات الأعين على الأقل تراقبني، فيا لبؤس الشقاء!»
واضطرت لأن تمشي بلا مبالاة، مشية مترامية. ثم ارتقت ببطء أكمة
يبدأ وراءها درب متلوّ نحو لسان الجبل. وتوارت عن الأنظار خلف سياجات
من العليق. فسلكت الدرب على الفور وقلبها يخفق. فهذه أول مرة تتوجه فيها
إلى موعد غرامي.

قام فرانثيسكو على فيسبا دون روجيرو، بجولة في شيافوني. فتوقّف
ليشرب فنجان قهوة في منهل البريد، وتبادل الحديث مع عدد من الخدم الذين
يعرفهم. وقفل الآن راجعاً نحو غابة الصنوبر.

التقى بدونا لوكريزيا لأول مرة على انفراد، في فصل الربيع المنصرم،
قبل انتهاء فترة نقاهته بوقت قصير. ذهب يعيد إليهما بعض الأسطوانات
والكتب والرواية الفرنسية «بير بارم».

سأله عن انطباعه عن الرواية بعد أن قالت:

قرأت، من ناحيتي، «دير بارم» عشر مرات.

كانت إجابته مقتضبة. فهو معروف بقلة كلامه، حتى بين رفاقه على مقاعد الدراسة في جامعة نابولي. لقد اكتسب عادة البخل بالكلام هذه، بسبب موقفه الحذر دوماً كلما كان في حضرة والده. فكان يصني لدونا لوكريزيا ويتابعها بعينه وهي تنتقل في الصالة الكبيرة بانطلاقها العفوي، فتترك مكانها أمام المكتبة لتتوقف بجانب الحاكي، ثم تتوجه برشاقة عجيبة إلى المنهل سائلة «هل لك في كأس من الكونياك الفرنسي؟» وتقترب من الشمعدان القائم فتضيئه، وتمد يدها إلى مفتاح الثريا فتديره، وإلى الكبة الجلدية فتزيحها لتقترب من المصباح. ذلك كله وهي تواصل حديثها عن هذه الرواية أو تلك بكل يسر وسهولة، وهي في منتهى الراحة. فيا لها من امرأة جميلة، ويا لها من امرأة قوية دونما تناقل كحسناوات الجنوب، ويا لها من مهيبة وبسيطة، بل هي مهيبة ببساطة.

تنبه فجأة إلى أنه قد أسبغ ملامح دونا لوكريزيا ونقاطيها على سانسيفرينا، طول فترة قراءته للرواية الفرنسية.

قالت:

- كنت أحسب أنك ستعجب بالكاتب ستاندال أيما إعجاب، وأن ذلك سيكون كشفاً يقارب الصدمة...

فقال:

- لم أفهم موقف فابريس تمام الفهم.

فسأله بحماس ظاهر:

- لكن ماذا تقصد؟

فبدأ الإجابة قائلاً:

- يبدو لي...

لكن الفكرة لم تكن اتضحت حتى بالنسبة له. فبقي جوابه معقلاً.

ألحّت في الاستفسار:

- يبدو لك ماذا؟

فقال:

- يبدو لي أنني لو كنت مكان فابريس لما أحببت كليدا.

فنظرت إليه بفضول:

- أنت لا تحب الفتيات؟

- لست أدري.

فقالت:

- الآن فهمت. لا شك في أنك تفضل مارييتا.

- مارييتا؟

قالت:

- أجل، تلك الممثلة التي جرح فابريس بسيفه، من أجلها، الرجل الذي كان يفرض حمايته عليها.

فقال فرانثيسكو:

- لقد نسيت.

ثم التفت عيناه بعيني دونا لوكريزيا فقال بإصرار:

- كلا، بل كنت سأحب سانسيفيرينا.

وشعر على الفور بأنه احمرّ خجلاً.

أمّا الآن وقد وصل إلى غابة الصنوبر من ناحية شيافوني فقد أنزل سرعة الفيسبا إلى الثانية وانعطف بها ليسلك درباً ترائياً وعرّاً بعض الشيء لمسافة ثلاث مئة متر. ثم أخفى الفيسبا وراء السياج وتابع طريقه سيراً على قدميه.

تغطي غابة الصنوبر امتداد لسان الجبل كله، وهو الذي يغلق خليج بورتو مناكوري من جهة الشرق. ويقطعه الطريق في قاعته. أمّا عند الرأس فقد أقام الصيادون ترابوكو. ولا يؤمّ غابة الصنوبر إلا جناة الرانتج^(١) ولا

(١) رانتج: مادة صمغية يفرزها الصنوبر. (م)

يعبرها إلا الصيادون المتوجهون إلى الترابوكو. أمّا المصطافون فيظلون على الشواطئ قريباً من شيافوني وديورتو مناكوري. ويسلك الصيادون دوماً نفس الطريق، وتكون أوعية الراتنج فارغة في شهر آب وبالتالي فليس هنالك من جناة. فالبرزخ ولسان الجبل هما المكانان الوحيدان المقفران في المنطقة أثناء هذه الفترة من السنة. ومن أجل الوصول إلى البرزخ، لا بد للمرء من أن يقطع مصرف البحيرة، بالعبور فوق الجسر الوحيد الواقع عند أسفل دائرة دون سيزار، وهذا ما دعا فرانثيسكو بريغانتي ودونا لوكريزيا لاختيار غابة الصنوبر، مكاناً لموعدهما الغرامي الأول.

سار فرانثيسكو بادئ الأمر بمحاذاة غابة الصنوبر من ناحية شيافوني إلى جانب حقل قصب. فواجه عانة طليقة من الحمير ثم قطعاً من الماعز. تخلّت بعض العواقيص عن الحمير وجاءت تحوم حوله فاقطع غصناً من الآس ليطرده به العواقيص. ارتفعت الشمس بسرعة نحو الزوال.

إنّ لقاءه الأول على انفراد مع دونا لوكريزيا، يوم قال إنّهُ لو كان فابريس لفضل سانسيفيرينا، لم يدم أكثر من نصف ساعة. ولقد قال لنفسه آنذاك وفي اللحظة ذاتها: «أحب دونا لوكريزيا». لكن ما كان بوسعه أن يعتقد، قبل ذلك بثلاثة أشهر، أنّ شاباً مثله يمكن أن يقع في حب امرأة مثل دونا لوكريزيا. ذلك هو تأثير قراءة الروايات الفرنسية.

ومن ثمّ لم يعد قادراً على أن يرد بكلمة واحدة على الأسئلة الطليقة لزوجة القاضي. وأخذت تنظر إليه بفضول، بل «بفضول مركّز» حسبما خطر على باله. إنّ نظرة دونا لوكريزيا تعكس دوماً بشكل مركّز ما تفكّر فيه وما تحس به.

ثم نهض وأبقى على يدها الممدودة هنيهة في يده.

فقالَتْ له:

- هيّا انصرف .

أحبها طول الأسابيع الثلاثة التي تلت، على طريقة أبطال الروايات في القرن الماضي. كانا يلتقيان في صالونات بورغو مناكوري، لكن لم يسبق أن التقيا على ذلك النحو المتواتر. ظل على عادته في قلة الكلام، بل زاد. وصارت تغرق مثله في فترات من الصمت، وهما جالسان جنباً إلى جنب بجوار الحاكي، فيما الآخرون يرقصون أو يلعبون البريدج، متلفظين فقط بأسماء الأسطوانات التي يقترح أحدهما على الآخر سماعها. لكنه ما كان ليكف عن التفكير بها، شارداً بذهنه نحو نزحات ثنائية في شوارع ميلانو، وعمود حب ووفاء يقطعانها على ضفاف الأرنو في فلورنسا، وقبلات يتبادلانها في غابة بولونيا في باريس. لكنه ما كان ليتخيل البتة حدوث شيء من هذا القبيل، إن في بورغو مناكوري أو في نابولي. فمثل هذا الحب لا يمكن تخيله، إلا في عالم مغير للعالم الذي يعرفه، وفي زمان ومكان مختلفين، إما في القرن الماضي أو إلى الشمال من نهر التيبر.

توجب عليه في نهاية الأسبوع الثالث أن يعود إلى نابولي. وذهب ليودعها فوجدها وحدها. فمكثا واقفين وجهاً لوجه صامتين. ولم يكن أعذ أي كلام.

قال لها:

- أنا أحبك

فقالت:

- وأنا أيضاً

و اتكأت عليه وأسندت رأسها إلى كتفه.

تواعدت دوناً لوكريزيا وفرانشيسكو بريغانتني على اللقاء عند مدخل مغارة مجاورة للرأس ذي «الترابوكو». إن لسان الجبل محتب عند وسطه، وتتحدر غابة الصنوبر من جهة شيافوني على شكل ندوءات، لتنتهي قرب سهل مزروع بالقمح (يمشي فرانشيسكو الآن على تخومه). أما من جهة خليج مناكوري فتتكسر الغابة انكساراً فوق قمة شاطئ صخري ما يلبث أن يسقط

عمودياً على البحر. وتعاونت عدة سيول شتوية على حفر مجاري وعرة لها، في الغابة والشاطئ الصخري. وتطل المغارة إياها على شاطئ صغير عند نهاية واحد من هذه السيول.

إنّ دونا لوكريزيا، وقد انطلقت من المنتجع الصيفي، أي عند قاعدة اللسان من ناحية مناكوري، مرغمة إنن على البدء بتسلق غابة الصنوبر حتى تبلغ قمة الشاطئ الصخري.

شرعت تصعد ببطء متّاهاً فالمنحدر شديد ووعر. والشمس تقترب من الزوال. وإبر الصنوبر تتشّ لوطء قديمها. أمّا العطور الفواحة - من السعتر والخزامى والنعناع المفلفل والسُّمُق الذي يلتصق بالجذد مثل الزيت - فهي على درجة من الكثافة والتركيز حتى لكأنّها تتجسّد حقاً. إنّها تحدّ من مشيتها، كأنّ عليها أن تشق لنفسها درباً، وسط دغل شديد الكثافة. واصلت الصعود من شجرة إلى شجرة متشبّثة بجذع خشن حيناً، مترحلة حيناً آخر فوق إبر الصنوبر، مستأنفةً القّدم على الفور، رغم الّهيب الذي يلفح البشرة، عند السير وسط حرارة لافحة تحت الصنوبر. كانت تجابه الحرارة وعبء الصعود، وتشبّث العطور، فطبيعتها الخاصة قائمة دوماً على المجابهة.

عند لقائها الأول بفراثشيسكو على انفراد، أثار فضولها حتى أقصى مداه، حين قال لها إنّّه لو كان مكان فابريس لفضّل سانسيفيرينا على كلينيا. ولم تستدل من تفضيله ذاك على بوح مقنع، لأنّها لم تكن قط حتى تلك الساعة، قد تخيلت نفسها سانسيفيرينا. أمّا وقد اكتسبت من زوجها تذوّق الأحاديث الذكيّة والممتعة، فإنّها حاولت أن تستجرّ الشاب الى تفسير دوافعه.

شبهت الدقائق التي تلت، تعقيداً جديداً نجم عن ارتباط فراثشيسكو. فهو لم يجب عن الأسئلة. ولم تدهش لذلك. فالصمت صفة ملازمة لابن بريغانتي، مثل صفاته الأخرى كعرض المنكبين والعينين الزرقاوين الطافيتين على صفحة محياه المستتير، ومظهره المتحفّظ مع هيئة من الثقة والمهابة. لكنّ

طبيعة صمته تغيرت فجأة. فأصبح مغموماً وباعثاً على ضيق الصدر، مثل تخلخل الهواء في خليج مناكوري، ومثل الفراغ القائم بين الجبل وبين ذراعي الليبيشيرو والسيروكو، المتعاركين في عرض البحر، ومثل صمت الخليج الذي يسبق العاصفة البحرية، أو يواجه جوف العاصفة، التي تبعثر شعراً غير مرئي فوق مراكب محتجبة.

لم يسبق لدونا لوكريزيا أن صدرت في تعاملها مع الناس إلا عن العقل، بيد أنها شعرت بعبء ذلك الصمت، وقد أثقل على موقع القلب من صدرها فملأه شجناً. أما حين أمسك فرانثيسكو بيدها ساعة انصرافه فأبقاها هنيئة في يده، فقد أحسّت بالشجن يهبط فجأة ليتغلغل في أحشائها. هاهي قد صارت امرأة.

قالت له:

- هيا انصرف .

وما لبثت أن وجهت لنفسها اللوم، على تلك العبارة البلهاء، كأنها صادرة عن امرأة ريفية تعوزها النباقة. لكن فرانثيسكو كان قد مضى.

في بحر الأسابيع الثلاثة التالية، واجهت الموقف الجديد مواجهة شجاعة. فهي من الآن فصاعداً امرأة، لها جسد امرأة يرتعش حساسية. وهي عاشقة، كأنها تحديداً لم تولد قط في بلد ناسه عاطلون دائمون عن العمل، بل هي في شمال إيطاليا أو فرنسا أو في روسيا أنا كارنينا أو إنكلترا مانسفيلد.

واستخلصت النتائج على الفور. لكن ليس على طريقة هذه أو تلك من البطلات اللواتي كن، رغم كل الإعجاب الذي تكنه لهن، لا ينفعن إلا بالقاء الضوء على حقيقة عاطفتها، بل ستتصرف وفق أسلوبها الخاص بها.

إنها لم تقرر مطلقاً ترتيب أمورها كي تبدأ بقاء فرانثيسكو بريغانتي سراً، لتتخذة عشيقاً لها ولتصبح عشيقة له، ولتنظم حياتها وفق متطلبات عشق قائم على الزنى والخيانة الزوجية. كلا. لكن بما أنها تحبه فسوف تعيش معه. وبما أن جنوب إيطاليا يناصب الحب غير الشرعي العداء فسوف

يَتَوَجَّهَانِ مَعاً صَوْبَ الشَّمَالِ. وَبِمَا أَنَّهُمَا لَا يَمْلِكَانِ الْمَالَ الْضَرُورِيَّ لِلْعَيْشِ
فَسَوْفَ يَعْمَلَانِ.

وَلَمْ يَخْطُرْ بِبَالِهَا أَنْ تَتَسَاءَلَ: أَهْوُ أَيْضاً يَحْبِنِي؟ أَيْكُونُ مُسْتَعِداً لِلرَّحِيلِ
مَعِي؟ إِذْ لَا بَدَّ، وَهُوَ عَاشِقٌ، مِنْ أَنْ تَكُونَ هِيَ الْمَعشُوقَةُ. لَوْ أَنَّهَا مَا تَزَالُ فِي
الثَّامِنَةِ عَشْرَةِ مَا كَانَتْ عَلَى مِثْلِ تِلْكَ الذِّقَّةِ بِالنَّفْسِ. لَكِنَّهَا فِي الثَّامِنَةِ وَالْعَشْرِينَ.
لِذَا فَقَدْ وَظَّفَتْ فِي سَبِيلِ حُبِّهَا كُلَّ مَا تَمْلِكُ امْرَأَةٌ ضَخْمَةً وَقُوَّةً وَعَاطِلَةً عَنِ
الْعَمَلِ مِثْلَهَا، مِنْ طَاقَةٍ وَقُدْرَةٍ.

لَمْ يَمْنَعَهَا ذَلِكَ الْإِسْتِخْلَاصُ الْهَادِي لِنَتَائِجِ حُبِّهَا مِنْ أَنْ تَحِبَّ بِكُلِّ
جَوَارِحِهَا. بَلْ ظَلَّتْ عَلَى النَّقِيضِ مِنْ ذَلِكَ تَكَرَّرَ طَوِيلَ النَّهَارِ وَبِحِمَاسٍ
ظَاهِرٍ: «أَحِبِّ فِرَانْشِيَسْكَو بَرِيغَانْتِي، فَوَجْهَهُ يَطْفَحُ بِقُوَّةِ الْعَزِيمَةِ، إِنَّهُ وَسِيمٌ،
وَمَشِيَّتُهُ تَدْمُ عَلَى الثَّقَةِ وَالطَّمَأْنِينَةِ الَّتِي تَمَيَّزُ الرِّجَالُ الْحَقِيقِيِّينَ. وَتَكْتُمُهُ يَكْشِفُ
عَنْ قَلْبِ حَسَاسٍ وَرَقِيقٍ، فَلَا بَدَّ لِي مِنْ أَنْ أُسْعِدَهُ». وَاعْتَبَطَتْ وَهِيَ تَجِدُ نَفْسَهَا
مُسْتَعِدَّةً لَتَرْكِ أَوْلَادِهَا دُونَ أَسْفٍ وَالْمَاضِي لِإِسْعَادِ حَبِيبِهَا. غَمَرَتْ قَلْبَهَا طَوِيلَ
تِلْكَ الْأَسَابِيغِ الثَّلَاثَةِ سَعَادَةٍ لَمْ تَعْرِفْ لَهَا مِثْلاً عَلَى الْإِطْلَاقِ.

وَلَمْ يَسَاوِرْهَا أَيُّ تَرَدُّدٍ بِشَأْنِ الْحُزْنِ الَّذِي سَيَنْتَابُ زَوْجَهَا الْقَاضِي
أَلِيَسَانْدَرُو. فَالْمَطَالَعَاتُ الَّتِي وَجَّهَ زَوْجَتَهُ نَحْوَهَا، وَالْأَحَابِيثُ الطَّوِيلَةُ مَعَهَا،
هِيَ الَّتِي هَيَّأَتْهَا لَتَعْرِفَ عَلَى خَبَايَا الْوُجْدِ وَأَلْوَانِ الْهَوَى. وَمَا ذَلِكَ الْفَيْضُ مِنْ
الْقُوَى الَّتِي تَلْهَبُ حِمَاسَتَهَا وَتَرِيدُهَا حِدَةً، سِوَى ثَمَرَةِ السَّكِينَةِ وَالْعِزْلَةِ الَّتَيْنِ
نَقَلَهَا إِلَيْهِمَا، لَدَى خُرُوجِهَا مِنْ بَيْتِ أَهْلِهَا فِي فُوجِيَا. مَا كَانَ لِلتَّفَكُّيرِ بِحُزْنِ
الْقَاضِي، عَلَى كُلِّ حَالٍ، أَنْ يَغْيِرَ شَيْئاً مِنْ قَرَارِهَا الْحَاسِمِ أَوْ أَنْ يَزْحَرْحَهَا عَنْهُ
قَبْلَ أَذْمَلَةٍ. فَالْقَاضِي أَلِيَسَانْدَرُو قَدْ هَيَّأَهَا، عَلَى غَيْرِ عِلْمٍ مِنْهُ، لِلْحُبِّ الَّذِي
سَيَشْعُرُ بِهِ نَحْوَ شَخْصٍ آخَرَ. لَقَدْ عَمِلَ طَوِيلَ عَشْرِ سَنِينَ عَلَى تَرْبِيَةِ لُوكْرِيزِيَا،
أَمَّا وَقَدْ صَارَتْ الْآنَ رَاشِدَةً، فَقَدْ أَحْسَتَ بِالْحَاجَةِ الْمُلْحَّةِ إِلَى تَرْكِهِ، وَبَاتَتْ
تَشْعُرُ بِالْكَرَاهِيَةِ نَحْوِ الْوَصِيِّ عَلَيْهَا لِأَنَّهُ يَذْكُرُهَا بِضَعْفِهَا السَّابِقِ.

حين وجدت نفسها من جديد وحدها مع فرانثيسكو، بعد ثلاثة أسابيع من قيامه، وهو يغادر بيتها، بإبقاء يدها في يده فترة أطول من المألوف بقليل، علماً بأنّ ذلك الضغط الخفيف من يد فرانثيسكو، جعلها تكتشف أمام نفسها أنّها امرأة مثل الأخريات، تتنابها الاندفاعات المبالغية عينها التي تجعل المرأة تفتح قلبها للرجل، وجدت طبيعياً جداً حينذاك أن يقول لها:

- أنا أحبك.

وأن تجيبه بكل اطمئنان:

- وأنا أيضاً.

ثم أسندت رأسها على كتفه. ورأت أنه أطول منها بقليل وأنّ كل شيء على خير ما يرام.

انتهت من تسلّق غابة الصنوبر فسكنت درياً يسائر قمة الشاطئ الصخري. وأخذت تسير هناك بخطى واسعة بسبب المسافة الكافية التي باتت تفصلها عن أنظار رجال الجنوب. كانت تمشي مطمئنة تحت شمس الحادية عشرة، من ضحى أحد أيام شهر آب، تحت أشعة «السوليوني»، شمس الأسد. أصبح خليج مناكوري المغلق واقعاً بكامله ضمن مجال نظرها مع مقاسمه الهندسية.

تبدأ تلك المقاسم في الغرب بالبحيرة فالأرض السبخة فالنلال التي ترتع فوقها الماعز، فبساتين الزيتون والتموجات الخضراء كلّها، ثم يمتد البرزخ مستقيماً كخط المسطرة ليفصلها عن البحر. أمّا إلى الجنوب فيتوضع الأبيض فوق الأبيض: تتدرّج سفوح بورنو مناكوري صعوداً، متراكباً بعضها فوق البعض الآخر، انتهاء بدير القديسة أورسولا بنت أوريا على قمة المدينة.

أمّا في الأسفل فيمتدّ المكسر مستقيماً في مياه المرفأ. ويتوالى من الجنوب إلى الشرق تراكب النلال المكورة المزروعة ببساتين البرتقال والليمون بلونها الأخضر الغامق الضارب إلى السواد.

أما عن انغلاق الخليج، فالأفق من جهة البحر محجوب تماماً بخط الغيوم التي يدفع بها الليبيشيو ليطردها السيروكو. وتندرج ألوانها من الرمادي إلى الأسود فالأبيض فالرصاصي فالنحاسي. أما من جهة اليابسة فينتصب الجبل شامخاً بلا صدع، وراء تلال الماعز والبساتين وغابة الصنوبر. إنه كتلة صخرية جبارة ذات مجار محمرة. وتكفل هامته على ارتفاع ألف متر، غابة عتيقة هرمة تعود أشجارها المعمرة لعدة قرون، فيطلقون عليها بكثير من المهابة اسم «غابة الظل».

ويكتمل الحصار تماماً من السماء. فالشمس الواقفة الآن عمودياً فوق الخليج تغلق المنفذ العلوي وتغمر بذهبها اللاهب ابنتها دونا لوكريزيا. اندفع فرانثيسكو بريغانتني داخل غابة الصنوبر وبدأ يتسلق لاهتاً نحو قمة اللسان، عرضة لسهام شمس الأسد، تلاحقه وخزات عواقيص الماعز وعواقيص الحمير.

حين قال لدونا لوكريزيا إنه يحبها، وبعد أن أجابت «وأنا أيضاً»، لبثا وقتاً طويلاً واقفين متقاربين فمالت هي برأسها على كتفه، أما هو فظل مرتبكاً لا يدري ما يفعل بذراعيه، لأنه لا يجرؤ على ضمها إليه. وأحدثت الخادمة ضجة في الحجرة المجاورة فافترقا ثم نخلت. وبعدها وصل القاضي أليساندرو فطلب إلى زوجته أن تقدم لهما كأساً من الكونياك الفرنسي. وتحذوا عن موسيقى الجاز.

كانت لوكريزيا تفضل مدرسة أورليانز، أما فرانثيسكو فيميل إلى موسيقى البوب، والقاضي لا يحب إلا بتهوفن. وعاد فرانثيسكو إلى بيته من غير أن يتاح له سماع دونا لوكريزيا تكرر القول إنها تحبه. سافر في اليوم التالي إلى نابولي دون أن يتمكن من رؤيتها ثانية.

ولم يحاول وهو في نابولي أن يطرح حقيقة عاطفته على بساط البحث، لاسيما أنها ليست من جانب واحد، وأنها تتركز على دعائم أليسة مضمونة. وتشاء المصادفة أن يقع في مستودع الكاهن على ترجمة «أنا كاريننا» قرأها نفعة

واحدة مكتشفاً أنّ الخيانة الزوجية تؤول بالسيدات العظيمات إلى نهاية مفعلة.
فانتابه شيء من النغم بشأن دونا لوكريزيا، لكنّ غروره صار غاية في الرضى.

وفيما هو يستعد لامتحان الحقوق كان يتسائل دون انقطاع عما يسعه
أن يفعل. إذ لم يكن وارداً بالنسبة له إطلاقاً، أمرٌ اتخاذ زوجة القاضي عشيقته
له في بورتو مناكوري. لن يجد على كل حال، في أرجاء المدينة كلّها، باباً
واحداً يعمل بمفتاح. وتنطبق هذه القاعدة على كل مدينة يفوق عدد سكانها،
عدد الحجرات المأهولة فيها بمرات عديدة.

زد أنّ الشاطئ يقع على مرأى من الطريق، وتقع الحدائق على مرأى
من الحدائق الأخرى، أمّا بساتين الزيتون فهي على مرأى من الجميع. وقد
اعتاد رجال غابة الظلّ، والذين يجوبونها على ظهور الخيل، ورجال الجبل،
عند اكتشافهم عاشقين في حالة خلوة، أن يوسعوا الرجل ضرباً باسم الله وأن
ينتفعوا بالمرأة باسم الشيطان. ولا يسع أحداً والحال هذه أن يشكو الأمر
لرجال الدرك، إذ ليس الزنى مجرد خطيئة فقط، إنّما هو جناية يعاقب عليها
القانون. كما يتحاشى الدرك على كل حال الإساءة إلى رجال الغابة. أمّا القتل
فواقعة تحت أعين رعاة الماعز، والسبخة تحت أعين صيادي الأسماك، أمّا
الزوارق التي تخوض عباب اليمّ فتكون تحت أعين الشاطئ كلّها. سوف يكون
بوسعهما اللقاء في غابة الصنوبر شريطة التوجّه إلى هناك بشكل منفصل،
فكافة الدروب التي تؤدي إليها تمرّ تحت أنواع الأعين كلها. ويُشترط الذهاب
مرة واحدة فقط، لأنّ التوافق في المرة الثانية سينكشف أمره. أمّا فرانثيسكو
الذي لم يسافر إلى أبعد من نابولي، فلم يتعرّف قط على ريف ساكن خال من
العيون. وهذا ما كان يمنعه، من أن يفهم تمام الفهم، كثيراً من الروايات
الفرنسية: كيف كان يتوفّر للعشاق العثور على مكان آمن في الأحراش
والمروج والحقول؟ وكيف لخليج أن يكون بلا أعين؟

رأى لزماً عليه لقاء عشيقته في مكان خارج حدود الجنوب. لكنّه ما يزال
واقعاً ضمن تبعية والده من حيث النفود والزمن والأسفار. وما انفكّ يدير

المشكلة في فكره ويقلبها، فلا يقع إلا على حلول لا يثبت أن يجدها غير معقولة أو غير قابلة للتحقيق. ففكر على سبيل المثال في أن يختطف دونا لوكريزيا فيذهب بها إلى الشمال، ليعيش معها في جنوة أو تورينو أو ميلانو، وأن يعمل ليكسب ما يكفي من متطلبات العيش معها. فهو قوي بما فيه الكفاية، وبوسعه القيام بجبل الملاط للبنائين، أو تفريغ عربات الشحن في القطارات، أو تحميل المراكب أو تكسير الحجارة لرصف الطرقات.

استغلّ نهار عيد القربان المقدس، وهو يوم عطلة رسمية في الجمهورية الديمقراطية المسيحية، للذهاب إلى بورنو مناكوري. ونجح في البقاء نصف ساعة وحده مع لوكريزيا في بيتها. فهذا هو لقاءهما الثالث على انفراد. شيهما في اللقاء الأول بسانسيفيرينا وأمسك بيدها مطولاً وشدّ عليها قليلاً. وفي اللقاء الثاني باح كل منهما بحبه للآخر.

وقد أوضح لها هذه المرة أنه ما عاد بوسعه العيش بدونها، وأنه ينبغي عليها أن تتبعه، ولئن كان لا يعرف إلى أين، فالمكان لا يهم. وأصغت إليه بصمت وهي تحدّق فيه بعينين مُلتَهَبَتَيْن.

حينئذ قصّ عليها أحلامه الخرقاء، ومشاريع الاختطاف والحياة المشتركة في الشمال والأعمال اليدوية. فأعلنت أن المشروع معقول تماماً، ما خلا اختيار المهنة. فلديه حتى الآن شهادتان في الحقوق. وسوف يحصل على الثالثة قريباً. فبوسعه البدء بكسب شيء من المال، إذا عمل مساعداً لمحام أو لموثق عقود، أو في الاستشارات القانونية. إلى جانب مواصلة دراسته.

فكرت في الأمر ودلّته على الخطوات الواجب إتباعها. فالتقاضي أليساندرو تربطه صداقة قديمة بوكيل لشركة تجارية كبرى في تورينو، يعمل حالياً في نابولي، وهي تعود لأيام الطفولة فالمدرسة فالجامعة. على فرانثيسكو أن يذهب للقاء هذا الرجل من قبل القاضي (هات من يحقّ يوماً في صحة تلك الأشياء)، ليقول له إن ظروفًا طارئة قد أرغمته على كسب

عيشه، وإنّ له أسرة مهاجرة في اليمونت، مؤلفة من أم أرملّة وأخوات صغيرات عليه إعالتهن. أو شيئاً ما من هذا القبيل وفق ما يشاء. لكنّه مرغم على تحصيل معيشته في مدينة تورينو. وبعد بضعة أيام ستقوم دونا لوكريزيا بالكتابة للرجل بنفسها، ومن قبل القاضي أيضاً، طالبة بإلحاح أن يجد عملاً لفرانشيسكو. سوف تراقب بعدئذ البريد الذي يحمله الساعي يومياً إلى الطابق الرابع، حين يكون زوجها في المحكمة. وإذا لم ينجح هذا المسعى فسوف تجد حلاً آخر، لأن الحلّول البديلة لا تعوزها.

كانت دهشة فرانشيسكو كبيرة، حتّى أنّه نسي أن يضمّ بين ذراعيه تلك التي صار يسميها عشيقته، رغم أنّهما لم يتبادلا قبلة واحدة حتّى الآن.

كان يتسلّق لاهتاً، والعرق يتصبّب منه، صاعداً بين أشجار الصنوبر التي لا تؤمّن حماية كافية من شمس الأسد، يذّقه عبق العطور التي تسبب وجعاً في الرأس، وتلاحقه وخزات العواقيص. لقد اختار عن قلة دراية، صعود أشدّ المنحدرات. وليست لديه أية خبرة في الجري وسط غابة الصنوبر ساعة الظهيرة. إنّ صبي من أبناء المدرسة. بشرته بيضاء ناعمة مثل أمه.

ظلّ يتساءل عن السبب الذي دعا لوكريزيا، حين ضربت له موعداً، لأن تختار المغارة الأقرب إلى رأس اللسان، أي تلك التي تُلزم كلاّ منهما بقطع أطول مسافة مشياً على قدميه، وذلك بين مغاور عديدة تعمّر الشاطئ الصخري بكننته الكنسية المملأى بالتقوب من طرف إلى طرف. فاللهات يجعله يفقد الثقة القائمة على عادة اتخاذها بدافع الحذر من والده، وهي التحدّث ببطء والاعتدال في النقاط الأنفاس.

حين خرج من ثالث لقاء على انفراد مع عشيقته، دون أن ينال منها قبلة واحدة بعد، كان مصيره قد تقرر.

توجّه إلى صديق القاضي في نابولي، فاستقبله بكل حفاوة، وأعجب أيّما إعجاب بصمته وسكينته، وهما مظهران غريبان على العادات النابوليتانية. استدعاه الرجل ثانية بعد ذلك بثلاثة أسابيع، فقد تلقّى في آن واحد توصية ملحة من دونا لوكريزيا، وكلمة من مطران فوجيا حصلت عليها بواسطة إحدى

قريباته، وجواباً من تورينو يتضمن موافقة مبدئية، لكنه يطلب المزيد من الإيضاحات حول المرحلة الدراسية التي وصل إليها الشاب. وها إن كل شيء قد سار تماماً وفق ما ارتأت عشيقته وخططت له.

بدأت في ذلك الشهر عينه تتراءى له في أحلام نومه - وليس بعد في أحلام يقظته. فمنذ نعومة أظفاره وأحلام نومه تسير وفق الموضوع عينه:

كان يرى نفسه ملاحاً - وبأشكال مختلفة ومتنوعة - فوق سلم، والدرجات تختفي من تحته. أو فوق مرتفع، وكل خطوة تقربه من حافة هاوية بلا قرار. أو في أي مكان آخر، إلا أن ساقيه تتراخيان فلا تطاوعانه. ونادراً ما كان يرى وجه ذلك الذي يلاحقه لكنه يدرك إدراكاً غامضاً، مهما تُدرِك الأشياء في الأحلام، أنه والده ماتيو بريغانتني. وكان أحياناً يلحبه فلا يتبين له منه إلا العينان الصغيرتان بنظرتيها القاسية، والشارب الدقيق الأسود. وحين يوشك معنبه هذا، وهو أبوه، منظوراً كان أم غير منظور، على أن يمسك به، كان القلق أو الغم الذي استبدّ به ورافقه طول الحلم، يتعاضم بلا حدود. إلا أنه غمٌ مشبوه ومريب، يمتزج باللذة الشبيهة بما كان يُحسّ به - وقد دام ذلك حتى سن الثالثة عشرة - حين كان أبوه يعاقبه جلدًا بسوط جلدي، وبكل برود، فيما هو يعدّ الجلدات أو يرغمه على عدها. إذ كان يراها طريقة مثلى في معاقبة الولد لتربيته تربية حسنة، ليصير ذات يوم سيد نفسه، قادراً على الدفاع عن إرثه في وجه رجال القانون. ينبغي إذن والحال هذه جعل القانون ينفذ إلى داخل جلده. وحين يبلغ به الغم قمة الترويع فيصبح فائق التحمل، كان يستيقظ وقد عرته أحياناً رعشة مواكبة لرعشة الحب، فهي موجعة وعذبة.

إلا أنه في ذلك الشهر (الذي تلا عيد القربان المقدس، وثالث لقاء له على انفراد مع تلك التي بات يطلق عليها اسم عشيقته) بدأ المعنّب يتخذ في أحلامه وجهاً غامضاً أو ملتبساً، فصارت دونا لوكريزيا ترسم داخل ملامح ماتيو بريغانتني، مثل حشرة مجنحة في النعفة أثناء التحول، فالشكل الأول والثاني متمايزان ومتوحدان في آن معاً، مهما يحصل في الأحلام. كان يلح

عيني والده الباردين المسيطرتين ثم عيني عشيقته الملتهمتين المسيطرتين، ثم عيني والده وعشيقته الباردين الملتهمتين.

بلغ قمة لسان الجبل. وهو يمشي بخطى كبيرة على درب القمة الصخرية، تحت السوليوني. لقد امتلأ صدره سخطاً على دونا لوكريزيا التي اختارت مكان الموعد عبثاً. وواصلت العواقيص ملاحقته فامتلاً سخطاً على العواقيص، وعلى أبيه الذي يرغمه على اتخاذ الكثير من الحيلة، وعلى عشيقته، التي أرغمته على تلك المسيرة المرهقة فجعلته يعجز عن النقاط أدفاسه، فيفقد تنفسه الموزون، أي رباطة جأشه الوهمية.

* * *

لدى انتهاء لقائهما الثالث على انفراد، هتفت دونا لوكريزيا، حين غادر فرانثيسكو بيتها دون أن يضمها بين ذراعيه، لكن بعد أن وافق على مشاريعها كلها، قائلة:

- إنه يحبني مثلاً أحبه.

هي تمشي الآن بخطى كبيرة ومطمئنة نحو المغارة التي حددتها مكاناً للقائهما، سالكة الدرب الذي يسير قمة الكتلة الصخرية، فيندرد أحياناً نحو المساحات الصغيرة، القريبة من مياه البحر، والمغطاة بالحصى الملساء التي تراها قريبة من قدميها مبعثرة بين الشجيرات، ليعود أحياناً أخرى فيرتفع نحو غابة الصنوبر.

أمّا هو فيمشي في الجانب الثاني، موازياً لها بخطى كبيرة لاهتاً، سالكاً الدرب الأعلى فوق لسان الجبل.

حين رجع إلى بورتو مناكوري لقضاء الإجازة الجامعية بدءاً من أول شهر تموز، بحثت دونا لوكريزيا عن عميل يقوم صلة وصل بينهما. إذ يستحيل إرساء الأسس لبناء المستقبل بالاعتماد على لقاءات منفردة تتحكم فيها المصادفات، أو عن طريق تحدثهما قرب جهاز الحاكي في صالات الأعيان أو على الشاطئ حول مظلات نساء الأعيان.

فلا بدّ لهما، حتى إن رغبا في تنظيم لقاء على موعد كالذي يمضيان إليه الآن، من التكاثر مسبقاً. وليس حل التكاثر عن طريق شباك البريد ممكناً على الإطلاق. فالأمر يتعلق بها أكثر من مما يتعلق به هو، لأنّ المدينة كلّها سوف تعرف قريباً جداً أنّ زوجة القاضي لها مراسلات سرّية.

أمّا وقد اتخذت قرارها النهائي، فإنّ بادرتهما الأولى ستكون إعلام زوجها بأنّها عازمة على تركه، وإنّما تطالب قبل رحيلها بحرية المراسلة على الأقل.

قرّرت أن لا تتزحزح عن موقفها أمام شكواه. فقد سمعته مراراً يبيدي استياءه من أنّ التشريع الإيطالي يرفض الاعتراف بحق الطلاق، وإنّ ذلك مثالٌ مُشينٌ على ديكتاتورية الكهنة. ولئن كانت لا تخشى الخوض معه في جدال فقد باتت تحذره، مذ أن فرض عليها إرسال وليّيهما لحضور دروس التعليم المسيحي وأدان العمال الزراعيين الذين احتلوا الأراضي البور. إنّهُ قادر في اعتقادها على استخدام أساليب مشروعة، مباشرة أو غير مباشرة، لمنعها من الرحيل أو للانتقام من فرانشيسكو. فالقانون الإيطالي ملءٌ بالمنغصات التي تقضّ مضاجع العشاق وتحكم الخناق عليهم.

كذلك فإنّ قوانين الشرطة تتيح فرض حظرٍ على رجل من الجنوب يريد أن يعمل في الشمال.

خشيت أيضاً من أن يُحيط ماتيو بريغانتني علماً بالأمر، لأنّ هذا الأخير لن يدع امرأة زانية تختطف منه ابنه بهذه السهولة. صحيح أنّها كانت تحسّ في نفسها القدرة على تحطيم كافة العوائق. لكنّها كانت تخشى على فرانشيسكو من أن يظلّ عالقاً في الشراك الثلاثية التي سيوقعه فيها كل من القاضي والمفوض وماتيو بريغانتني، أي في الآلة الجهنمية للسلطات، الشرعية وغير الشرعية وشبه الشرعية. يكمن الحلّ إذن في التكتّم على السر.

بقيت أمامها مسألة العثور على عميل اتصال يؤمّن المراسلة مع فرانشيسكو.

قامت باستعراض أسماء كافة النساء اللواتي تألفهن، دون أن تقرر إيداع أحدهن سرها، فهي تزدرين دونما تمييز. على كل حال، ليست نساء الأعيان الآخرين أقلّ منها خضوعاً للمراقبة.

وكان أن اختارت جوزينا، ابنة بائع الخرداوات، لأنها عرفت على الفور كيف تشتريها.

لقد فقدت جوزينا مع بلوغها الخامسة والعشرين كل أمل لها في الزواج، لا سيما أنها بلا بائة (بائع الخرداوات لما ينته من تسديد اعدماده). فصار لزاماً عليها أن تقف في طموحها للمستقبل عذد حد، ولا تتطلع لأكثر من أن تصبح عشيقاً معترفاً بها، أو على الأقل مسكوت عنها. فإما أن تكون من نصيب أرمل، أو من نصيب ابنٍ ثانٍ في العائلة، حريص على عدم انجاب أطفال شرعيين، ينازعون فرع الابن البكر ميراثه ذات يوم (فيموجب هذا الشرط فقط يحصل هذا الأخير على نفقة ثابتة من زعيم العائلة). أو من رجل متزوج ذي تأثير قوي حتى يستطيع فرض وجود امرأة ثانية، أو ذي حيلة وحذكة فيقوى على إقناع زوجته بالتحكي والانزواء بعيداً. فهي ستستسلم للمفوض إذا ما رجعت زوجته آناً أتيليو إلى لونسيرا. وهو سيفتح لها مسكناً خاصاً، يستطيع التوجه إليه ساعة يشاء، أمّا هي فلن تملك حق الحضور إلى عذده في السرايا. ذلك هو نظام الأصول واللياقات. وتحدد هذه المنظورات الوضع الخاص بجوزينا في مجتمع مزاكوري. فليست هنالك فضيحة التصقت بها لتلام عليها. والرجال متفقون على تلقبها بـ«القابسة المثيرة»^(١) أو «الشريرة الصغيرة» ويتفق كثيرون على أنها ما تزال عذراء.

كانوا يستقبلونها إذن مثلاً يستقبلون غيرها من بنات التجار، لكن باهتمام أقلّ أو بمرتبة أنى، انعكاساً مسبقاً لوضعها المستقبلي على الهامش. ويكلفونها القيام بمهام صغيرة كحراسة الأولاد أو القيام ببعض المشتريات أو

(١) القابسة: الذي يأتي بالفار. (م)

المرافقة. وتتمتع من ناحيتها، مقابل تلك الخدمات، بحرية أكبر من باقي الفتيات. فما من أحد تأخذه الدهشة لدى رؤيتها داخلية إلى دار أو خارجه منها أو متجوّلة في المدينة نهاراً أو ليلاً وفي أية ساعة كانت. وأحياناً تسهر على المرضى.

وليس من يظن أنها حمقاء، بل المدينة كلّها على قناعة بأنّها لن تتنازل عن بكارتها إلا في أفضل الشروط، وبعد الحصول على أفضل الضمانات. إنّما هذه العذراء الحمقاء أرجح الناس عقلاً.

ولكي لا نسيء جوزبينا إلى ذلك الاعتبار الخاص بها، فإنّها لا تقبل أية هدية من النساء إلا مقابل الخدمات الصغيرة التي تؤديها لهنّ، وهذه أشياء ضئيلة. أمّا والدها بائع الخرداوات، الواقع تحت وسواس تسديد السندات المستحقة لدى نهاية كل شهر، فإنّه لا يكفّ عن الشكوى من ارتفاع أجور الخياطات. لذا فهي لا تقوى على منافسة بنات الأعيان أناقة. لكنّها على درجة من الحذق تجعل معظم الرجال لا يلحظون ذلك.

فهي ترتدي شلحة ذات ثلاثة أذوار مثل بنت دون أوتافيو، لكنّ الكشاكش تزين دوراً واحداً فقط.

سبق لدونا لوكريزيا أيضاً أن احتاجت لخدمات جوزبينا أكثر من مرة. كانت توكل إليها حراسة الأولاد حين تكون الخادمة عند أهلها. لكنّها ما كانت لتبوح لها بأي سرّ خاص - بل ماذا لديها لتبوح به؟ - كما أنّها لا تولي سفاسف الفتاة أنثاً صاغية. فكبرياؤها كان يزيد لقبها «دونا» رسوخاً وثباتاً، من غير أن تكون محبوبية. لقد شقّ عليها كثيراً أن تجد نفسها مرغمة على الطلب من جوزبينا القيام بمهمة رسول بينها وبين غلام في الثانية والعشرين. فكان ذلك أول تنازل من كبريائهما في سبيل عشقهما. ولقد تصرّفت على النحو التالي:

وجدت مبرراً للذهاب إلى عند آنا أتيليو زوجة المفوض المقيمة في الطابق الأدنى، ساعة العصر حين تكون جوزينا عندها حسب العادة. إذ تقوم بين دونا لوكريزيا وآنا أتيليو علاقة مودة وحسن جوار ليس إلا. وبعد تبادل بضع كلمات عن الأولاد قالت:

- أنا ذاهبة إلى مخزن فيديليا...

فيديليا هي بائعة نوفوتيه وصاحبة أجمل مخزن في شارع غاريبالدي.
ثم التفتت إلى جوزينا وقالت:

- هل ترافقيني؟

لم يكن في ذلك ما هو خارج عن المألوف. فالمرافقة إحدى مهمات جوزينا. ولم تتوجّه إليها بكلمة واحدة طول الطريق من السرايا إلى مخزن فيديليا. كان قلبها يخفق، بأشدّ مما خفق هذا الصباح، حين سلكت درب غابة الصنوبر وراء رواق المنتجع الصيفي وهي ذاهبة للقاء عشيقها. ومن أجل أن تتفادى أي تواطؤ يمكن أن يسبّب لها مسبقاً إحساساً بالغثبان، قررت أن تشتري جوزينا من قبل أن تطلب منها أية خدمة.

كانت في بيت آنا أتيليو قبل أيام، وسمعت جوزينا وهي تشكو من عدم قدرتها على شراء مايوه مطاطي من اللستكس للسباحة. إن من دواعي خجل هذه الفتاة، المعاصرة لكل من جينا لولو بريجيذا وصوفيا ثورين، أنها ذات نهدين صغيرين. وما من قماش في نظرها، يفوق اللستكس، في تمويه الحشوتين اللتين تضعهما لتكبير نهديها. لكن مايوه من اللستكس يكلف ما بين ستة إلى عشرة آلاف لير، أي ثمن ستين إلى مئة وعشرين ليترًا من النبيذ، أو أجر عامل زراعي مدة خمسة عشر إلى ثلاثين يوماً. وذلك المبلغ باهظ بالنسبة لابنة بائع الخرداوات.

اختارت دونا لوكريزيا، وهي في مخزن فيديليا، مايوه من اللستكس دونما تعيين. وسألت جوزينا قائلة:

- هل يروقك؟

أجابت جوزينا:

- إنه يسلب الألباب. لكنه بالتأكيد أصغر من قياسك بقليل.

- هذا قياسك أنت.

حدثت فيها جوزينا بعينها السوداوين الكبيرتين الذاهلتين المريضتين.
فأضافت لوكريزيا قائلة لها:

- سوف تسعديني بقبوله.

وانتابها الغيظ وهي تظن أن في رنة صوتها شيئاً من الذلل.

فتابعت تقول بلهجة الغضب:

- هيّا، قرري.

ظلت جوزينا تتفرس في وجهها.

فقالت لوكريزيا لفيدليا:

- غفّلي لنا هذا.

فقالت جوزينا:

- كلا، بل أفضل الأزرق الفاتح.

وظلّت تتفرس في وجه لوكريزيا. ثم قالت:

- أنا أكثر سواداً منك. واللون الأزرق يزيد الأسمر ظهوراً.

جربت جوزينا على نفسها قياس المايوه الأزرق الفاتح فوجدته كبيراً.

ثم جربت واحداً آخر لتعود بعده للأول.

ظلّت دونا لوكريزيا تنتظر ساكنة منتصبّة صامتة. فجوزينا لم تتوصل

للاختيار وفيدليا تراقبهما. ثرثرت جوزينا طويلاً عن الألوان، وملاءمتها

لألوان البشرة المختلفة، وهي تتفحص وجه لوكريزيا. وأخيراً قامت بالاختيار.

فدفعت زوجة القاضي ثمانية آلاف لير وحملت جوزينا الرزمة.

ما إن صارتا في الشارع حتى سألتها لوكريزيا:

- هل تعرفين فرانثيسكو بريغانتي؟

- بكل تأكيد

- هل بوسعك أن تقابليه وحده؟

- يمكن أن أتدبر الأمر.

- ستحملين له رسالة وتأتيني بالجواب.

- سأفعل حين ترغيبين.

- تعالي إلي غداً صباحاً لأخذ الرسالة.

- أجل. سأحضر قبل الظهر، قبل أن يصعد السيد القاضي.

قالت لوكريزيا:

- نعم.

وأكملتا ما تبقى من الطريق بدمت. وحين أصبحتا أمام السراي

قالت جوزيبي:

- سنقول أمام الجميع إنّ والدي هو الذي قدّم لي المايوه.

فقالت لوكريزيا:

- لا بأس. وشكراً لك.

حين التقت دونا لوكريزيا في مساء ذلك اليوم بفرانثيسكو بريغانتي مصادفة في الساحة الكبرى، روت له على عجل تفاصيل مآثرتها، وكان وسط عشرة أشخاص حاولوا دون جدوى اقتناص كلماتها. فقال فرانثيسكو هامساً:

- مايوه بثمانية آلاف لير. هذا باهظ جداً. كان بوسعك شراءها مدى

الحياة بصدرية لا تزيد على ثلاثة آلاف لير. أمّا الآن فسوف يساورها الاعتقاد بأنّ لها عليك حقاً. فقالت في نفسها: «يا ثلوث المسكين، فهو لمّا يتحرّر من أساليب تفكير بورثو مناكوري».

إنَّ مصروف القاضي وزوجته محدود جداً. فلم تخطر على بالهما إطلاقاً فكرة تبديل سيارة التوبولينو. ونادراً ما كانا يخرجان سوياً. ويمكن لهما أن يأكلا كيفما اتفق، دون أن يعلّق أيُّ منهما على الأمر أهميّة تذكر.

أمّا والخياطات يسبّبن غيظاً دائماً لدونا لوكريزيا، فإنَّ أيَّ ثوب من الملابس الجاهزة تشتريه من فوجيا يأخذ عليها مظهراً حسناً. وأمّا الكتب والأسطوانات والكونيّاك الفرنسي فيقدّمهما والدا القاضي اللذان يحقّقان عائداً كبيرة من أراضيها في منطقة التافوليري. كذلك بات الزيت والنبيد من الحصص التي ينتجها المربعون. وهكذا فعلى الرغم من ضآلة المرتب الذي يحصل عليه قاض من المرتبة الدنيا، تتبقي أحياناً عند نهاية الشهر بعض الأوراق النقدية، في الدّرج الذي تلقى فيه دوناً لوكريزيا بالمال بشكل فوضوي. وحين يصل المال الجديد، تأخذ فائض الشهر السابق وترمي به دون عدّ داخل علبة حديدية كبيرة من النوع الذي يستخدمه القاضي لتجميع شواهد الغباء المعاصر. وحين قرّرت الرحيل، فتحت العلبة وأحصت محتوياتها لتجد مئة واثنين وتسعين ألف لير. أي ما يكفي لشراء دزنتين من مايوهات اللستكس أو ما يقارب طنين من النبيد. فامتأّت نفسها راحة ورضى. أقام الصيادون ترابوكو قبل ألف عام أو ألفين، عند رأس اللسان، غير بعيد عن المغارة التي ضربت دوناً لوكريزيا لفرانشيسكو موعداً فيها.

الترابوكو ماكنة صيد، تتألف بشكل أساسي من مجموعة من الصواري الممدّدة فوق البحر، والمنبسطة على شكل مروحة بموازاة سطح الماء، تتعلّق برؤوسها شبكة ضخمة متعددة الزوايا، تكون فوق الماء أثناء الراحة، وداخل الماء أثناء العمل.

ويتمّ تشغيل الشبكة بواسطة كابلات تنزلق فوق بكرات وتلتفّ حول رافعة رحوية. ويكون عدد الصواري مساوياً لعدد أضلاع الشبكة وينزلق كابيل رئيس معقود على كل زاوية من زوايا الشبكة، فوق بكرة مثبتة على رأس كل صار، ويلتفّ حول رحوية.

يُعتبر الترابوكو القاذم عند رأس مناكوري من أضخم الأنواع على الساحل الأديرياتيكي: له سبعة صواري ضخمة وشبكة ذات سبعة أضلاع ويعمل عليه اثنا عشر رجلاً.

حين تكون الشبكة غارقة - أي فخ السمك منصوباً - يلامس واحد من الأضلاع السبعة القاع الصخري ويمتد اثنان من الجانبين بشكل مائل وتبقى الأربعة الأخرى على سطح الماء.

وعلى هذا النحو تكون الشبكة مفتوحة داخل المياه عند بدء الصيد على شكل فك. وحين تشد الرافعات الرحوية الكابلات، فإن القسم المغمور بالمياه يرتفع نحو السطح: فينغلق الفك.

تعمل الرافعات الرحوية بقوة أذرع الرجال دون الاستعانة بمحرك. ويتولى الرجال عملية الضغط على أذرع الرافعات وهم يدورون حولها بمشية دائرية، مثلما كانت الخيول تدير، وهي معصوبة الأعين، رحي الطواحين والمعاصر القديمة. فتتزلق الكابلات على البكرات، وينغلق الفك العملاق بسرعة، تزيد أو تنقص، تبعاً لسرعة دوران الرجال بأذرع الرحوية.

يتولى أحد الرجال عملية الرصد. وهو إما أن يكون واقفاً فوق منتصف الصاري المركزي ويداه متشبعتان بحبل من القنب، أو راكباً عليه والجذع مائل إلى الأمام مثل فارس يمضي خبياً. ويمكث معلقاً على هذا النحو عمودياً على مركز الشبكة وبعيداً عن سطح الماء مسافة عشرين متراً. والبحر شفاف كما ليس إلا في الجنوب، فوق قاع صخري داخل خليج هادئ. وهكذا يميز الراصد تمييزاً واضحاً، تفاصيل الأعماق كلها. فنظره يشمل جوف الشبكة بأكملها، وعمق البحر داخل الشقوق المفتوح وخارجه. إنه يرصد. وحين يلمح سرياً من الأسماك متوجّهاً نحو الشبكة فإنه يوجه الإنذار، فيسرع أفراد الطاقم الأرضي لاحتلال مراكزهم حول الرافعات الرحوية. وهو بانتظار ذلك يجد الوقت الكافي لمتابعة حركة الرخويات البحرية في زحفها البطيء وتقلّ نجوم البحر وعبث أسماك السلطان إبراهيم فوق سطح الصخور.

إنَّ صيد السمك بواسطة الترابوكو صيد بالعين المجردة.

إنَّ الصواري السبعة الكبيرة المنبسطة فوق البحر على شكل مروحة، مشدودة بكابلات تتدلى إلى الأسفل مربوطة بحجارة كبيرة، ومشدودة إلى الشاطئ بكابلات أخرى مربوطة بأعمدة. وتتصل حبال من القنب برؤوس الصواري فتشد الواحد عن الآخر لتبقيها متباعدة فيما بينهما على الدوام. وهناك أمراس لها مهام ثانوية، تُربط بمقافة عملاقة ينطَب تحريكها تضافر أربعة أذرع. وتتقاطع الكابلات والحبال والأمراس وتتشابك بألف شكل واتجاه مشكلة ما يشبه شبكة ثانية معلقة في الهواء، كأنها انعكاس لشبكة الأسماك المغمورة بالماء، فاعرة شدقها الضخم.

ويتخطى الترابوكو الحدود على الشاطئ: فهناك أبنية شيدت على شكل قباب يلجأ إليها الصيادون أيام الطقس العاصف، تُستخدم مستودعات لصناديق الأسماك، وهناك مساطب للرافعات والأعمدة الخشبية والأوتاد ومرابط من الاسمنت. بالإضافة إلى شرفة دائرية من الخشب معلقة حول صخور الرأس، على ارتفاع عشرين متراً فوق سطح البحر، مذكّرة من حيث شكلها بمؤخرات السفن القديمة.

وتشير النصوص اليونانية واللاتينية، إلى وجود آلات صيد عملاقة، في ذلك الجزء من الساحل الأدياتيكي، تنطبق أوصافها على أوصاف الترابوكو. ويعود بعض التقنيين في أصله إلى الفريجيين. ويقول آخرون بل إلى البيلاجيين. ومن المحتمل أن يكون معاصراً لاختراع الشبكة والبكرة والرافعة الرحوية.

يطرأ على الترابوكو في كل عام تجديد بسيط. إذ يقوم الصيادون بعد العواصف الكبرى، باستبدال صارٍ أو تغيير كابل. لكن لا يتغير فيه الآلية ولا يتغير منه الشكل. فهو مختلف في كل عام وهو دوماً على حاله، مثله مثل الكائن الذي يشيخ ويظل مماثلاً لذاته. ولا ريب في أنَّ الترابوكو قائم هنالك منذ مئات، بل آلاف السنين.

ينحدر فرانثيسكو الآن راكضاً من قمة اللسان عبر غابة الصنوبر.

تقع المغارة التي ضربت دونا لوكريزيا له موعداً فيها عند نهاية
الجوئن المجاور للرأس مباشرة. ويطل مدخلها على شاطئ صغير يتوجّه
بشكل معاكس لموقع الترابوكو، في مأمن من مراقبة الصيادين، كما تحجبه
عن عين الراصد كتلة الصخور التي تقع المغارة داخلها.

ويتم الوصول إلى الشاطئ الصغير عن طريق تجويف في غابة
الصنوبر، هو مجرى سيل شتوي.

نزل فرانشيسكو نحو الجوئن راكضاً. ورأى أن اختيار لوكريزيا غير
معقول. فهي اختارت من بين كل مغاور الشاطئ، أقرب مغارة إلى
الترابوكو، أي تلك التي تتطلب أطول مسيرة تحت الشمس، أي تلك التي
يخشى عليها فيها من اقتضاح أمرهما أكثر من غيرها. لقد شاهد وهو نازل
بين الصنوبر نحو الجوئن عدداً من الصيادين، الذين لا يسعهم رؤيته لأن
الصنوبر يحجبه. ومع ذلك فمن غير المعقول الاقتراب منهم إلى هذا الحد.
فقام أحياناً بالتخفيف من سرعة خطاه، بل قد همّ بالعودة على أعقابهم. لكنّه
وجد نفسه قد قطع مسافة طويلة وأصبح الآن على المنحدر الميّن، فريض.

يبدو الترابوكو من المكان الذي يقف فيه فرانشيسكو الآن، أشبه ما يكون
بآلات الحرب في العهود الغابرة، على نحو ما هو معروض في رسوم
الأكاديميات. إنّها آلة حرب جبارة منصوبة على رأس اللسان الممتد في البحر،
ومصوبة نحو رتل الغيوم التي يدفع بها الليبيشيو فتحجب الأفق.

أمّا دونا لوكريزيا فهي متأخرة قليلاً عن حبيبها. إنّها تسير بخطى
كبيرة وواثقة فوق درب الشاطئ الصخري، تحجبها الشجيرات عن الأنظار.

لقد اختارت تلك المغارة تحديداً دون غيرها لأنّها تعرف اسمها، فهي
تدعى مغارة التوسكانيين، مُذ أن قدم علماء الآثار من بيتزا، فقاموا فيها
بعمليات حفر وتقيب. وقد افترضوا أنّها استُخدمت ملجأ للبحارة الإغريق من
قبل تأسيس مرفأ أوربا. وكانوا يُمذّون النفس بالعثور على أوان أو نفود
وأدوات. فلم يعثروا إلا على القليل من العظام. لقد حضرت لوكريزيا إلى

المغارة بصحبة زوجها ودون سيزار، حين كان التوسكانيون يقومون بحفرياتهم. تحدثوا آنذاك عن بوليفيم وعن أوليس. كان ذلك بعد زواجهما مباشرة وكانا إذ ذاك يهتمان بتلك الأمور.

أما المغاور الأخرى فهي بلا أسماء، بالنسبة لدونا لوكريزيا على الأقل. فلم نشأ أن نخاطر بجعل فرانثيسكو ينتظرها في مغارة، في حين تنتظره هي داخل أخرى... لذا فقد كتبت: «مغارة التوسكانيين قرب الترابوكو، تلك التي قام فيها علماء الآثار بعمليات التنقيب». ثم وضعت خطأ تحت عبارة «قرب الترابوكو»، وخطين تحت «تلك التي قام فيها علماء الآثار بعمليات التنقيب». وهذه أيضاً عادة اكتسبتها من زوجها بوضع خط تحت الكلمات الهامة، لكنها تتلاءم وميلها إلى الإيضاح الدقيق. ثم أغلقت الرسالة وسلمتها إلى جوزينا.

* * *

كان فرانثيسكو الواصل الأول إلى الشاطئ الصغير عند نهاية الجوين. وبما أن مجرى السيل ينتهي بشكل شديد الوعورة، فقد اضطر لنزول الأمطار المثة الأخيرة مواجهاً للجبيل، بحذر شديد مع الانتباه إلى موطئ قدميه، كأنما يهبط على عوارض سلم خشبي، مستنداً بيده إلى جوانب الصخور البارزة، ومتشبهاً بأعصان نباتات الكابر. وغمغم قائلاً: «لست من متسلقي الجبال». ثم ابتسم ابتسامة مأكرة حين فكر في أن دونا لوكريزيا مرغمة بدورها على المرور من هناك. ثم لأم نفسه على ذلك الخبط الذي لا يليق بهواه.

ذلك الشاطئ الصغير لا يتجاوز خمسين خطوة طوياً وخمس عشرة في العمق. وإذا ما أبحر المرء في زورق ما بمحاذاة الشاطئ، فإنه لا يتبينه ما لم يعرف مكانه مسبقاً. إنَّه هو إلا حزام رقيق من الرمل الأبيض محصور بالكتلة الصخرية في نهاية الجوين.

يُعتبر مدخل المغارة ضخماً إذا ما قورن بمساحة ذلك الشاطئ. فهو يحتل جانب الجوين بأكمله من الجهة المعاكسة لجانب الترابوكو، وكأنه فم الشاطئ الصخري. بل هو الشاطئ فاغراً شديده.

ورأى فرانثيسكو أن نظرة يلقيها رجل واقف مثله على الشاطئ يمكن أن تسمح داخل المغارة مسحاً تاماً. وتذكر أنه يعرف مغاور أخرى أكثر تستراً. ولا بد أن دونا لوكريزيا لم تتمتع بالحس السليم حين اختارت هذا الحلق المفتوح للعيون على مصراعيه. إذ ليس مستبعداً مرور زورق على مقربة من الشاطئ.

ولم يكتشف إلا حين دخل المغارة وجود أعماق جديدة فيها وتجاويف معتمة. ولا بد لعينييه أولاً من أن تألفا العتمة.

أرض المغارة غير مستوية، وهي من جهة اليسار وعرة وملأى بعثرات وندوءات وشُعَبٌ وسطوحات، ومضاءة إضاءة باهتة، كأن بصيصاً من نور يتسرب إليها من قلب الصخر. أما من ناحية اليمين فالأرض جوفاء تكتشف عن قاعة ثانية محفورة بعمق داخل أحشاء لسان الجبل، مغلقة من الأعلى بقبة من الصخور مشوشة الأشكال، أما قمتها فتضيع في الظلمة. وتشاهد أبعد قليلاً فتحة قاعة ثالثة عند نهاية خندق حفرة المنقبون التوسكانيون.

وقف فرانثيسكو في صدر القاعة الأولى واستدار نحو الضوء. شاهد الخليج بأكمله وقد ظهر عبر الفوهة المسننة، غارقاً فيما يشبه الضباب الناجم عن انعكاسات الشمس، كما رأى البرزخ وبساتين الزيتون العائدة لدون سيزار، وأسطحة بورثومناكوري البيضاء يعلوها دير القديسة أورسولا بنت أوريا، ثم الشاطئ وبساتين البرتقال والليمون. ومن قلب هذا الضباب الحار سوف تتبثق دونا لوكريزيا.

كان جو المغارة بارداً. فأرضها رطبة وغير ثابتة تحت الأقدام. وتتبعث من الجدران رائحة مريبة.

اتجه فرانثيسكو نحو اليسار منجذباً بخيط النور الذي يبدو متسرباً من بين الصخور. فتسلق النتوءات والعوائق الناشئة ليبلغ بروزاً ينتمي بسطح صغير جداً. وعندها اكتشف تجويفاً في الجدار الصخري، كان ينبعث منه النور.

وقعت عيناه من تلك الفتحة، الواقعة في نهاية المغارة الى اليسار وأعلى من سطح البحر بقليل، على الترايوكو. إنه قائم على مئتين أو ثلاث مئة متر منه. لقد شاهد من الأسفل مروحة الصواري المنبسطة فوق البحر ومعها آليّة الكابلات والحبال والأمراس. بدا الرجل الراصد واقفاً على منتصف الصاري الأوسط وذراعا متصالبان حول حبل الداعم، ورأسه مائل إلى الأمام، مقتبهاً لكل ما يجري في أعماق المياه.

كما شاهد مساعديّ دوتيين جالسين القرفصاء، فوق الشرفة الخشبية التي تطوّق صخور الرأس، وهما يرصدان أيضاً قاع البحر. أمّا باقي رجال الطاقم فهم وقوف قريباً من الرافعات الرحوية في حالة من الترقّب.

كان بوسع فرانثيسكو الاعتقاد بأنّ الراصد ومساعديّ النوتين بوجودهم المائلة نحو البحر، أي في اتجاهه، إنّما يراقبونه. لكنّه يعرف أنّهم لا يستطيعون رؤيته لأنهم واقعون تحت إشعاع شمس الأسد بينما يقف هو في عتمة المغارة.

كان يُشاهد تحت قدمي الرجل الراصد، خيطٌ متدلٍ ينتهي بشيء ما يتحرك داخل الماء. وتبعاً لحركة هذا الشيء المتثقل في الماء يميل الخيط عن وضعه العمودي يميناً ويساراً، ويرسم فوق صفحة الماء دوائر وأهاليج وزركتشات، ثم يعود الى نقطة مسقطه تحت قدمي الرجل الراصد ليباعد من جديد وهكذا.

لقد تردد فرانثيسكو إلى الترايوكو مراراً وتكراراً، فأدرك على الفور حقيقة ما يجري الآن.

إنّهم الآن يمارسون الصيد بالبورّي الداعي. وتلك واحدة من طرائق الصيد العديدة التي تُزاوَل من أعلى الجيّاب الأرضي. لكنّها دون شك الطريقة الأكثر سحراً، حتى لتأخذ بمجامع القلوب. لذا فقد أولاها فرانثيسكو كل انتباهه.

لا ريب في أن الحظ حالف الصيادين صباحاً أو بالأمس فوجدوا داخل شباكهم واحداً من تلك الأسماك التي تسمى البرذون بالإيطالية والفرنسية والبغل (البوري) على شواطئ المتوسط والمحيط الأطلسي.

أسماك البغل هذه تتجانب فيما بينها. فتكمن الصعوبة الوحيدة في الإمساك بالأول. ويا لحسن الطالع إذا كان سميناً قوياً، مليئاً بالحياة، مليئاً بـ«الدعاء». هذا البغل الأول الذي يطلقون عليه اسم «الداعي»، يعيدونه إلى البحر مربوطاً بخيط طويل، بحيث يسمح له بالتقلّب بحرية داخل الشبكة، وقصير بحيث يمنعه من الاقتراب من الجدران الصخرية.

سبق زفرانثيسكو بريغانتي أن توجه مثل باقي الفتيان في مناكوري مرات عديدة إلى الترابوكو وهو قادر على أن يتخيل بدقة تامة حقيقة ما يجري الآن.

إنّ بغلاً آخر سيبرز فجأة (إن لم يكن قد برز فعلاً) لينضمّ إلى البغل الأول المربوط، إلى «الداعي»، فيلتصق به متأخراً شيئاً ما إلى الورا، بحيث يصبح رأسه على سوية زعانفه الظهرية، تماماً كما يحدث أثناء سباق الدراجات حين يقوم راكب متسابق بإلصاق عجلته الأمامية بالعجلة الخلفية للراكب الذي يسبقه. وسوف يقوم البغل الثاني برسم الدوائر نفسها والأهاليج والزخارف والتعرجات التي يرسمها الداعي غائصاً وراءه نحو الصخور السفلى، راجعاً للتوقف عند مسقط الخيط تحت قدمي الراصد، مخففاً السرعة، ثم منطلقاً مثله، إنه ملتصق به.

ثم يبرز بغل ثالث فينضم إلى الرتل ملتصقاً بالثاني ورأسه على سوية الزعنفة الظهرية، ثم يبرز رابع فخامس، ففصيل كامل من البغال المتسابقة، ملتصقة عجلة بعجلة، سالكة خط الداعي، راسمة، بلا نهاية، الدوائر والأهاليج والزخارف والتعرجات نفسها.

أمّا الرجل الراصد فعليه أن يعرف ليقرر، مكثفاً في حكم كلمح البصر، كل تجربته صياد ترابوكو، متى عليه أن يصيح «شدّوا، هيا، شدّوا» وليس

قَبْلَ أَنْ يَكُونَ الْمُتَأَخَّرُونَ كُلُّهُمْ قَدْ انْضَمُّوا إِلَى الْفَصِيلِ - لَكِنْ أُنَى لَهُ أَنْ يَعْرِفَ كَمْ سَيَكُونُ عِدَدُ أَفْرَادِ الْفَصِيلِ الْكَامِلِ؟ - وَلَيْسَ بَعْدَ أَنْ يَكُونَ الدَّاعِي الَّذِي أُرْهِقَ مِنْ جَرِي بَلَا طَائِلَ قَدْ جَاءَ لِيَسْتَسْلِمَ فَجْأَةً عِنْدَ طَرَفِ الشَّبَكَةِ، بَلَا حَيَاةَ، تَحْتَ أَقْدَامِ الرَّجُلِ الرَّاصِدِ، وَعِنْدَهَا سَيَتَدَدُ شَمْلُ الْفَصِيلِ كُلِّهِ، بِحَيْثُ لَا يَصِيحُ الرَّجُلُ «شُدُّوا هَيَا، شُدُّوا»، إِلَّا وَتَكُونُ الْأَسْمَاكُ كُلُّهَا قَدْ أَصْبَحَتْ خَارِجَ الشَّبَكَةِ.

كَانَ فِرَانْشِيْسْكَو يَتَابِعُ بِاهْتِمَامٍ تَحَرُّكَاتِ خَيْطِ الدَّاعِي، عَبْرَ التَّجْوِيفِ الَّذِي حَفَرْتَهُ فِي قَلْبِ الصَّخْرِ أَمْوَاجَ الشَّمَاءِ. تُرَى كَمْ يَبْلُغُ عِدَدُ أَسْمَاكِ الْفَصِيلِ؟ وَحَاوَلَ بَعِيُونَ الْخِيَالِ أَنْ يَرَى الْأَسْمَاكَ السُّودَاءَ الضَّخْمَةَ اللَّامِعَةَ ذَاتَ الرَّأْسِ الْأَبْطَحِ وَالْفَكِّ الْعَرِيضِ، حَيْثُ يُوْحِي الْخَطُّ الْأَبْيَضُ فَوْقَ رَأْسِهِ بِأَنْ لَهُ شَفَّةٌ مَقْلُوبَةٌ. وَتَحَرَّكَ رَأْسُ فِرَانْشِيْسْكَو مِنَ الْيَمِينِ إِلَى الْيَسَارِ وَمِنْ الْيَسَارِ إِلَى الْيَمِينِ مِثْلَمَا كَانَ يَتَحَرَّكَ رَأْسُ الرَّجُلِ الرَّاصِدِ وَرَأْسُ مَسَاعِدِيِّ الذَّوْنِيِّينَ وَهُمْ يَتَابِعُونَ بِاهْتِمَامٍ بَالِغٍ حَرَكَاتِ الدَّاعِي. أَلَمْ يَنْتَظِرِ الرَّجُلُ الرَّاصِدُ أَكْثَرَ مِمَّا يَنْبَغِي؟

أَدْرَكَ فِرَانْشِيْسْكَو أَنَّهُ يَفْضِلُ لَوْ كَانَ فَوْقَ التَّرَابُوكُو يَتَابِعُ حَرَكَاتِ فَصِيلِ الْأَسْمَاكِ، خَافِقُ الْقَلْبِ، حَاسِباً أَنْفَاسَهُ بِانْتِظَارِ سَمَاعِ الصَّيْحَةِ الَّتِي سَتَجْعَلُ شَدَقَ الشَّبَكَةِ يَنْتَلِقُ. وَكَيْفَ سَيَنْدَفِعُ الرِّجَالُ إِلَى الرَّاغَفَاتِ الرَّحْوِيَّةِ لِيَقُومَ هُوَ بِمَسَاعِدَتِهِمْ، بَدَلاً مِنْ الْإِنْتِظَارِ فِي هَذِهِ الْمَغَارَةِ إِلَى حِينِ مَجِيءِ عَشِيقَتِهِ. ذَمَّ اسْتَبَعَدَ هَذِهِ الْفِكْرَةَ عَلَى الْفُورِ لِأَنَّهَا غَيْرُ جَدِيرَةٍ بِتِلْكَ الْعَاطِفَةِ الَّتِي تَمَلَأُ نَفْسَهُ اعْتِرَازاً.

تَرَاجَعَ مِنْ مَكَانِهِ، وَاسْتَدَارَ. إِنَّهَا دُونَا لُوكْرِيزِيَا. هَا هِيَ تَمْشِي عَلَى رِمَالِ الشَّاطِئِ الصَّغِيرِ، رَشِيقَةً، مَمْتَشِقَةً الْقَوَامَ فِي ذَوْبِهَا ذِي الْيَاقَةِ الْعَالِيَةِ وَالْأَكْمَامِ الطَّوِيلَةِ، غَارِقَةً فِي أَشْعَةِ شَمْسِ الْأَسَدِ. وَنَخَلَتْ الْمَغَارَةَ. هَا هُمَا وَجْهًا لَوَجْهٍ عِنْدَ الْمَدْخَلِ غَارِقَيْنِ فِي انْعِكَاسَاتِ أَشْعَةِ الشَّمْسِ عَلَى الْبَحْرِ، وَارْتَدَادَهَا عَنْ رِمَالِ الشَّاطِئِ الصَّغِيرِ الْبَيْضَاءِ.

تَفَرَّسَ كُلُّ مَنِهْمَا فِي وَجْهِ الْآخَرِ بِصَمْتٍ.

كان فرانثيسكو يرتدي بنطالاً من الكتان الأزرق، ضيقاً من الأسفل، ذا درزات كبيرة ظاهرة على الوركين، بخيط أبيض، على طراز الكابوي، ويلبس قميصاً من أحدث طراز صيفي، بلا زرعلوي عند الياقة، فما من أحد يضع ربطة عنق على شاطئ البحر، لكنه مغلق مع ذلك بواسطة شكل من أشكال الصدر حسب طراز عصور الازدهار الخوالي. أمّا الكمّان الطويلان فمشموران ومرفوعان إلى ما فوق المرفقين، بدافع من الإهمال المتعمّد.

جال في خاطر دونا لوكريزيا أنهما حين يصيران معاً في إيطاليا الشمالية، عمّا قريب، ستجد لزاماً عليهما أن تجعله يتخلّى عن عادة ملاحقة أحدث طراز في الملابس، والابتعاد عن آخر موضحة ظهرت في نابولي بشكل خاص.

أمّا هو فقد استبدّ به الغمّ. إذ جال في خاطره أنّها المرة الأولى التي يجد فيها نفسه مع عشيقته في مكان ناءٍ ومعزول، وأنّ عليه أن يحتويها بين ذراعيه فيغمرها بالقبل. لكنّها تنتظر إليه ساكنة صامتة. وفي أكمل لباس لها. فما عليه أن يفعل؟ وما هو واجبه؟

قال:

- كنت أشاهد الترابوكو.
 - وكيف أمكن لك أن تشاهد الترابوكو؟
 - رؤيته ممكنة من هناك، في الأعلى.
- فسألته قائلة:

- وهم، ألا يسعهم مشاهدتنا؟
- وأنتي لهم أن يشاهدونا؟
- هل أنت هنا منذ وقت طويل؟

فأجابها:

- كلا.

كان واقفاً تجاهها. ناظراً إليها بعينيه الكبيرتين الطافيتين على صفحة محياه.

امتألت نفسها بالرضى حين رأت أنه ليس مثل باقي الرجال في الجنوب، الذين تلتهم نظراتهم فوراً حين يكونون في حضرة امرأة. وإذا كانت في موقف عجزٍ عن حماية نفسها، صارت النظرة صلفاء متعجرفة.

تخيّلته في إحدى صالات تورينو، فبدت راضية عن طبعه المتحفظ المغاير تماماً لكل ما هو جنوبي (إلا في لباسه) حتى يحسبه المرء إنكليزياً.

أما بالنسبة له، فقد بات ذلك الصمت الطويل، وتلك السكينة، أشياء تفوق الاحتمال. إنه مقصّر في أداء واجبه. إذ لم يجرؤ على أن يضمّ حبيبته إليه.

قال:

- إنهم يصطادون سمك البوري بواسطة الداعي.

فقالت مستفسرة:

- بواسطة الداعي؟

فشرح لها كيفية الصيد عن طريق الداعي. كان صوته خفيفاً. حسن الوقع. هادئاً. يصوغ كلامه بعبارات وجيزة، تتخللها فترات صمت.

خطر على بالها زوجها القاضي اليساندرو، الذي لا يعبأ إلا بالمجادلات الفكرية، والأفكار العامة، وأبطال الأزمنة الغابرة. أمّا فرانشيسكو فيتحدّث عن طريقة تقنية، بكل هدوء ومعرفة تامة بالوقائع، إنه رجل حقيقي. تخيّلته ذا مهارات يدوية عالية (في حين أنه ليس كذلك).

فكر من جانبه في أن واجبه رجلاً يقتضي أن يضمّها بين ذراعيه وأن يلقي بها أرضاً وأن يحتضنها. لكن أرض المغارة مبلّلة وفيها خطوط من العفن. وهو لا يجرؤ على أن يجعل الحسناء الفارعة بحلّتها البهية تستلقي على الأرض، كما أربكته فكرة الثوب الملطّخ.

صاح الرجل الراصد:

- شدّوا! هيا! شدّوا!

وطرقت الصبيحة التي أطلقها بملء فيه مسامعها داخل المغارة.

قال:

- إنهم يسحبون الشبكة.

كانت تقف تجاهه، لكنها أبعد من أن تطلها يده. ولم تتحرك كأنما كانت تريد أن تظل بعيدة لتراه بشكل أفضل.

قال في نفسه: «إنها لا تساعدني».

وسألها:

- هل تريد أن تريهم؟ فالمشهد ممتع حقاً.

فكرت في نفسها: «ألا كم هو رقيق!».

ثم قالت:

- أريد مشاهدتهم بكل تأكيد. ولا بد أن يكون ذلك في غاية الروعة.

فأمسك بيدها ليساعدها على تسلق العوائق ليدوغ التجويف الذي حفرته عواصف الشتاء في الجدار الصخري.

سألها:

- ألم تشاهدي قط عملية صيد بالنترابوكو؟

فأجابت:

- من بعيد فقط .

وجلس داخل تجويف الصخرة. فيما وقفت بالقرب منه.

قال:

- رأيتهم مرة وقد اصطادوا خمس مئة كيلو من السمك في رفعة واحدة.

- لا شك في أنهم كانوا سعداء جداً.

- لكن هذا نادرٌ الوقوع.

إنَّ وضعيتهما الحالية لا تيسر لدونا لوكريزيا أن ترى طريقة تشغيل الترابوكو. فهي واقفة وفرانثيسكو جالس. اقتربت كي لا يظنَّ أنها غير مبالية بمآثر الصيادين. فأسندت فخذها الطويل إلى كتف الشاب.

كان طول البروز داخل الصخرة أكبر من عرضه. فهو بطول جسم ممتدد وبعرض جسمين راقيدين جنباً إلى جنب. أمّا أرضه فمفتحة ومستوية نتيجة حتّ البحر في فصل الشتاء. وفكر فرانثيسكو قائلاً: «لا بد لي من أن أحتضنها هنا».

وظهرت على صفحة ذاكرته أحاديث الطلاب، حول كيفية العمل لجنب انتباه المرأة، وكيف يجري إعدادها للمتعة، كيما تفعمها النشوة.

خشى أن يقصّر في تلبية تلك الالتزامات كلها.

كرّر الرجل الراصد بلهجة أكثر فأكثر إلحاحاً:

- شُدّوا! هيا! شُدّوا!

دار الصيادون حول الرافعات الرحوية وأيديهم تشدّ أذرعها، فالبعض يدور في اتجاه عقارب الساعة والبعض الآخر يدور في اتجاه معاكس، تبعاً للروافع. طوّق فرانثيسكو ركبتي لوكريزيا... بذراعه فضمهما إليه وشدّ عليهما.

أزاحت لوكريزيا... ذراع الشاب وقالت:

- لا تتحرك.

ومتّت يدها إلى رأسه وجذبتّه إلى عطفها.

ثم كرّرت قولها:

- لا تتحرك.

بدا مساعدا النوتين وهما يتململان من على الشرفة الخشبية. فترتعاش أطرافهما وهما يصيحان مع الراصد بإيقاع واحد: «شُدّوا! هيا، شُدّوا!».

علا صرير البكرات وصريف الكابلات وحفيف الحبال. فترتفع الشبكة
فوق سطح الماء بكل بطء. وينخرط أفراد الطاقم كلهم في الهتاف:
- شُدُّوا هيا، شُدُّوا!

أصبحت كافة أطراف الشبكة عالية فوق الماء، أمّا حمّتها من السمك
فلمّا يطفّ على السطح.

أسندت لوكريزيا رأس الشاب إلى أحد عطفها.

وتردد فرانثيسكو في تطويق ركبتي عشيقته مجدداً. فذراعاه التي
ابعدتها عنها تربيكه، ولم يجرؤ على البحث عن وضعية أكثر راحة. «لو أنا
تحرّكت لاعتقدت أنني أزيحها عني انتقاماً».

أخذت تمسح على صدغيه وجبينه بملامسة خفيفة جداً. ولم يتخيّل أنّ
التعبير عن نار العواطف المتأججة يكون على هذه الشاكلة. كما لم يكفّ عن
التفكير في التزاماته فأغمض عينيه.

مرت بكفها مروراً خفيفاً على العينين المغمضتين وعلى الجفنين.
شدّها إليه مجدداً برفق. فلم تبعد الذراع عنها. ولم يشعر أنّه ملزم،
بفضل ذلك الفيض من الحنان، بـ «الإفادة من التفوّق الحاصل لتحقيق
مكاسب أكبر على الأرض»، على حد تعبير رفاقه في الجامعة.

لبثا وقتاً لا بأس به على تلك الحال.

قالت لوكروزيا:

- أنت لست مثل الآخرين. فهم لا يفكرون إلا في نساءاتهم. ألا كم
أحبك لأنك صبور في معاملتك لي. أحبك يا فرانثيسكو.

فاستد برأسه إلى عطف المرأة القويّة، إلى عشيقته الحنون. إلى
الكلمات المريحة الطليقة التي تجيد الثفوّه بها. أودع رأسه في رعاية يد
لوكريزيا الملساء لتمسح عليه بخفة ونعومة. أودعه في دفء حضنها. وأحسن
بانحلال عقدة الشقاء الكامن كلّ في أعماق ذاته.

توقف طاقم الترابوكو عن تدوير الرافعات. فقعر الشبكة صار الآن طافياً على وجه الماء. واندفعت الأسماك الكبيرة، وهي ترى مياه الموجة الأخيرة تغور من تحتها، لتؤدي قفزات كبرى فتصطدم بجانب الشبكة المرفوعة. كانت تتلوى في الهواء فيسقط بعضها فوق البعض الآخر وسط حفيف جلودها اللامعة وزعانفها الخفاقة. أخذ الرجال يجفون عرقهم، وعيونهم تقدر كمية الصيد وتخمن الريح. بينما بدأ مساعدا النوتينين بتحريك المنزقة العملاقة.

كان مشهد شبكة الترابوكو فيما مضى، وهي ترتفع من قاع البحر، متعة ما بعدها متعة في نظر فرانثيسكو. لقد ارتعش جسده وهو يافع، واهتز، وهو منهمك بالصياح مع مساعدي النوتينين «شدوا! هيا، شدوا!». أما حين صار فتى فقد شارك مشاركة فعلية في تدوير الرافعات مبادراً لأخذ مكان بحار هذه التعب، ضاغطاً بكل قوته ووزنه على أذرع الرافعة.

أما اليوم، فما هو يغمض عينيه مستسلماً لنفء لوكريزيا، دفء الحسنة المشوقة وهي تحتضن محياه. وطرقت مسامعه جلبة الأسماك الضخمة وهي تتخابط وتتلاطم على جوانب الشبكة، فلم يكلف نفسه عناء شق جفنيه. لقد بات الآن رجلاً. فانقطعت الأواصر ما بينه وبين عصابة الفتيان الأبطال والعابهم العفيفة والعنيفة كلها. لقد تخلّى واستسلم.

إن الصبي الذي تعلّم أن يكون رابط الجأش في «حضرة» والده ماتيو بريغانتني، مسيطراً على حركاته كلها وكلماته وحتى على تعابير نظراته، إن خريج تلك المدرسة الرهيبة، يرخي العنان لنفسه الآن فتتحل عقدة لسانه، وتتطلق كلماته على سجيتهما، غير خاضعة لغرض أو سلطان.

بدأت كلماته هامسة:

- يا قديسة مريم، يا أم الابن الحبيب...

وانحلت عقدة إثنين وعشرين عاماً من الشقاء.

- يا دونا لوكريزيا، أنا أحبك، إيه كم أنا أحبك.....

فقالت بدورها: «أحبك يا فرانثيسكو» وضمت رأس الشاب بقوة الى كبدها. وكررت القول مرات عديدة حتى صار يخاطبها دونما حرج.
- لوكريزيا، أحبك .

كان مغمض العينين، بعيداً في تفكيره عن أي نوع من الالتزام لأول مرة في حياته. مثل رجل بين ذراعي عشيقته.
ظلاً وقتاً طويلاً على ذلك النحو دونما الإتيان بأية حركة، صامتين أو مرددين الكلمات ذاتها. وحين فتح عينيه ثانية رأى الشبكة مغمورة بالماء من جديد، والرجل الراصد راكباً فوق الصاري الرئيس.
قال لها:

- تلقيت الردّ من مدير الشركة في تورينو.
وأعطى لوكريزيا الرسالة التي دارت حولها استفسارات أبيه لتقرأها.
لقد قبل المدير بتوظيفه بناء على المواصفات التي ذكرها له وكيل الشركة في نابولي.

لكنه أبدى رغبة في رؤيته مقدّماً، وطلب إليه الاستفادة من إجازته الصيفية والحضور لمقابلته. وبوسع الشاب، إذا ما تم الاتفاق، البدء بالعمل في شهر تشرين الأول ومتابعة دراسته في الوقت ذاته في جامعة تورينو.
قالت:

- لا بدّ من الذهاب.

فأجاب:

- أجل. وبوسعي الإفلات من عذد خالي في بينيفان لمدة يومين دون علم والدي. لكن لا مال لديّ للسفر.

لقد أوجس خيفة في السابق من قول ذلك لها. أمّا الآن وقد انحلت عقدة
لسانه فبدأ الأمر له عانياً جداً.

قالت:

- أمّا أنا فلديّ المال.

تقرّر أن يسافر إلى بينيفان في اليوم التالي. فاتفقا على أن ترسل إليه
المال مساءً، في مظروف مغلق، مع جوزيينا.

* * *

عند الظهر، جلس ماتيو بريغانتني وبيزاشيو في مكانهما المجهود، على
المنصة الخشبية لمنهل الشاطئ في الهواء الطلق، وأمام كل منهما زجاجة
كوكا كولا. كانت الدفوف المتوضّعة فوق دعائم معطوبة، قائمة على الرمل،
ذات طنين أجوف. وحين يخبط المرء بقدمه عليها، يتسرّب من بين المفاصل
غبار رمادي، مخلّقاً انطباعاً مزعجاً. فماتيو بريغانتني يفضل الأرض الصلبة
مثل بلاط منهل نادي الرياضة ورخام المناهل في فوجيا. إنّ الحياة في
بورتو مياكوري تتمركز شتاءً في الساحة الكبرى. فلا مناص له من ملازمة
منهل نادي الرياضة حيث تتردّد أصدااء كل ما يجري في الساحة الكبرى.
رُبّ صفقة تعقد مثلاً عن طريق إشارة بين رجلين تقابلاً فافتراقاً من دون أن
يلحظ أحد حدوث لقاء بينهما. ولئن تكن أصداؤها غير محسوسة، فإنّ
بريغانتني يلتقطها ويحسن تفسيرها. فالحال معه في الشتاء أكثر يسراً وسهولة.

أمّا في فصل الصيف، ومن منتصف تموز حتى نهاية آب، فليس أمامه إلا
الانتقال إلى الشاطئ ليقوم بالمراقبة ظهراً من الثانية عشرة وحتى الرابعة عشرة.
تقوم إلى جانب المنهل من كل جهة عشر مقصورات. ويتولّى مكبر
للصوت فوق عمود خاص بثّ الأغاني من الإذاعة الإيطالية. وتتوزّع
الكراسي والطاولات الحديدية المطلية بالأخضر على منصة المنهل وقد
أصبحت كلّها مشغولة.

الشاطئي طويل وضيق يحد الطريق المتعرجة نزولاً من الساحة الكبرى. وتعتج رماله على مقربة من المرفأ بقوارب الصيد الصغيرة والشباك المنشورة حتى تجف. وينقطع الشاطئي من الناحية الأخرى، في اتجاه الأسان، حين يعترضه جدار استقادي لبستان يرتقال كبير يمكنه دون أوتافيو. لا يتجاوز عرض الشاطئي عشرين متراً أما طوله فيقارب الألف ومئتي متر. ويقع المنهل والمقصورات في الوسط تماماً. أما المكبر فمن النوع الضخم وصوت الإذاعة مسموع على الشاطئي بين كلا الطرفين.

يمتد نظر الجالس على منصة المنهل فيشمل ذلك الشريط الرملي الساحلي بأكمله دون عائق. بل يتعداه إلى الخليج كله بمياهه الراكدة التي لا تثير اهتمام أحد، ما خلا القسم الواقع بين الضفة والجرف الرملي، فهو بمكانة الحديقة التي يرتع فيها السباحون والقوارب المطاطية ذات الدواسات. وما من أحد يرفع نظره نحو الأفق إلا ليتأكد من أن الليبيشيرو ليس في سبيله لأخذ الغلبة على السيروكو. وإلا، فإن رتل الغيوم سيتقدم باتجاه الشاطئي ليصير مطراً حين يلامس قمة الجبل. غير أن مثل هذا لمّا يحصل في هذه السنة. أما إذا سرح المرء ناظره باتجاه رأس لسان مناكوري الذي يغلق الخليج من ناحية الشرق، فإنه سيميز هيكل الترا بوكو (الذي يدوح بقربه الآن كل من فرانثيسكو بريغانتي ودونيا لوكريزيا بحبه للآخر)، وهو أشبه ما يكون بسفينة كبيرة تتجاوز رأس الأسان. إلا أن السباحين في غالبيتهم لا يعبؤون كثيراً بـ الترا بوكو.

إن ذلك الشاطئي الممتد باستقامة تامة من مكسر الميناء حتى بستان يرتقال دون أوتافيو، معن في الصغر. والمرء الناظر إليه من صوب البحر لا يميزه عن جدران الاستناد لبساتين البرتقال والليمون الواصلة حتى الطريق. ومع ذلك فإن هذا الشاطئي على صغره يضم ثلاث مجتمعات تتجاوز فوقه، ولكل واحد أرضه الخاصة، المحددة بدقة، دون أن نشاهد أي حاجز من أي نوع كان لرسم الحدود.

فبدءاً من المرفأ وحتى مسافة خمسين متراً عن المقصورات، تعود ملكية الرمال لعامة الشعب. إن نزول الشعب إلى الشاطئ أمر بالغ الجدة. وقد بادرت إلى هذا الغزو، بعد الحرب مباشرة، طليعة من الصبية أعمارهم بين الثالثة عشرة والخامسة عشرة، بقيادة معلّم من جنوه، نُقل إلى مناكوري نقلاً تعسّياً، فكان يعلمهم طريقة الكراول في السباحة، والغطس الفني من أعلى المكسر.

وما لبث أن انضم إليهم عدد من الفتيات، بل هي نفس العصابة الطليعية الشجاعة من الفتيات اللواتي تجرأن، وسط الفوضى التي أعقبت الحرب، على ركوب الدراجات رغم تعرّضهن للشتائم الجائرة، ولتذفين بالحجارة من قبل الواليون، بتحريض من الكاهن. لقد فرضن على مناكوري رؤيتهن على دراجات، حقيقة واقعة، رغم الكلمات الفاحشة المقدّعة التي كان يتفوه بها الرجال، الذين شبّهوا سرج الدراجة بكل ما هو مذبّ وشبهوا الدراجة بكل ما هو قابل لأن يمتطي، وأيضاً رغم حمل لواء المعارضة من قبل معلّم آخر، شيوعي، كان يرى ضرورة الاستيلاء على مقاليد الحكم أولاً والقيام بعد ذلك بإصلاح شامل للعادات، مؤكداً أن تطّلع النساء لركوب الدراجات شبيه بتطّلع كلارا زيتكين ودعوتها للحب المتحرّر من كافة القيود، وهو من تطّلعات البرجوازية الصغيرة التي أدانها لينين في رسالة شهيرة.

إلا أن هؤلاء الفتيات، بعد قيامهن بغزو عالم الدراجات، تحولن بهجومهن نحو الشاطئ. فنزلن بالمايوهات التي ما زلن يلبسها حتى الآن، والتي ترتفع حتى الكتفين وتنخفض حتى منتصف الفخذين، بالإضافة إلى صدرية تحت المايوه وتنورة فوقه تنزل من الخصر إلى الفخذين. وتولى الأشقاء مهمة حراستهن طول الفصيلين الأولين. فكنت تراهم على الطريق يمشون جيئة وذهاباً وأيديهم في جيوبهم تقبض على الأمواس، في حين كن يسبحن أو يستلقين على الرمال تحت الشمس، معتزات تحدياً، ومنشيات جرأة.

مذ ذلك الحين وموجة الحرية تتقدم بخطى عملاقة. فأصبحت الأمهات الآن ينزلن إلى الشاطئ مع بناتهن، منحدرات من المدينة القديمة، يجرن وراءهن أولاداً عديدين، متعلقين بأذيالهن. فيتحقن مجموعات يثرثرن وهن

جالسات فوق الرمال. وتدفع بهن الرغبة أيضاً للنزول أحياناً والاستحمام في البحر وهن الأمهات، فيتقدمن بخطى وجلة وثيدة حتى يبلغ الماء أفضأذهن، وهن بأذوابهن الطويلة البيضاء، يتحركن مثى أو ثلاث، ضاحكات تثيراً لحريتهن، لكن بشيء من العصبية، متبادلات الضرب بالأكف على الظهر، وأيديهن مبللة بالماء تأكيداً على شجاعتهم، وهن الأمهات، ململات باليد الأخرى أطراف الذوب الأبيض لترتفع وتلتف حول الساقين، فينتفخ الثوب عند الأوراك ويخفي بروز أردافهن.

يحتل أفراد الشعب إنن من أمهات وفتيات وأولاد ذلك القسم من الشاطئ، الذي يبدأ عند حدود المرفأ (حيث تجف الشباك بين القوارب المسحوبة إلى ما فوق الرمال) وينتهي قبل المقصورات بخمسين متراً تقريباً. أما الرجال من عامة الشعب فلا ينزلون إلى البحر، سواء كانوا متشغلين بأعمالهم أو كانوا عاطلين وباقيين في مراكزهم وقوفاً بمحاذاة الجدران حول الساحة الكبرى. كما يفضلون قضاء يوم الأحد في صيد السمك أو اللعب بكرة القدم أو الجلوس في الحانات حيث تجذبهم لعبة «القانون». أما الرمال الممتدة حتى جانبي المقصورات، فهي خاصة بأعيان بورنو مناكوري وبالمغتربين الأثرياء، القادمين لقضاء إجازتهم فوق أرض الوطن. وهناك اتفاق ضمني بترك قسم فارغ، هو بمكانة أرض محايدة تفصل ما بين رمال عامة الشعب ورمال الأعيان.

ترى النساء، في قسم الأعيان، مستلقيات فوق مقاعد طويلة تحت المظلات، وقد ارتدت الأمهات والزوجات منهن الأذواب الخاصة بالشاطئ، أما الفتيات فيلبسن مايوه السباحة. ويجلس الرجال فوق منصة المنهل وأمامهم كأس شراب. وبين وقت وآخر ترى هذا أو ذاك منهم وقد نهض وتوجه ليبادل النساء الحديث، واقفاً قرب الكراسي الطويلة.

إن الحياة الاجتماعية على درجة عالية من النشاط في هذه المنطقة، التي لا تمتد إلى أبعد من خمسة أمطار عن كل جانب من المقصورات، والتي

تتقسم داخلياً مع ذلك إلى عدة «أقاليم» تبعاً لكل جماعة وعصبة، وبالإضافة لوجود حلقات محصورة وانقسامات فيها انقسامات داخلية، إلى جانب نزعات انضمامية تحت المظلة الواحدة. وذلك عائد للانتماءات السياسية والدينية والمعارضة للدين، والأفكار الأكثر أو الأقل «تقدمية» فيما يتعلق منها بالعادات، وبكل أنواع الأشياء المتداخلة والمتشابكة مع الظروف الاجتماعية وتلوثاتها التي لا تحصى.

وترى هنالك خمس نساء أو ستاً من عصبة الأفكار الطليعية لابسات المايوه مثل الفتيات، وهنّ يسبحن أو يتاولن كأساً من الشراب على منصة المنهل إلى جانب أزواجهن. فيما النساء الأخريات ينظرن إليهن بغيرة أو بازدراء، فالنظرة تابعة للمفهوم الذي يحملنه عن الأخلاق والعادات والتقدم.

ويبقى من الشاطئ قسمه الثالث المنتمي بجدار الاستناد لبستان برتقال دون اوتافيو، وهو من نصيب المصطافين، من عائلات المستخدمين والتجار القادمين من مدينة فوجيا، ومن نساء موثقي العقود والمحامين والصيدلة وأطفالهم المقيمين في المدن الجبلية الصغيرة. إن هؤلاء يفضلون التوجه إلى الشواطئ الحقيقية، المدونة أسماؤها في أدلة المنتجعات البحرية الشهيرة. حيث تتاح للمرء رؤية الأجانب بالثياب القصيرة وهم يرقصون في المنتديات الليلية. لكنّ كثرتها الباهظة جداً تجعلهم ساخطين، لا سيما الفتيات. وعلى هذا تراهن يتجمعون هنا تجمعات عائلية أو عشائرية، فيتعرون تحت خيام رقيقة من الكتان أو في سياراتهم المصطفة على حافة الطريق. ويمكن تصنيف هؤلاء قوماً رحلاً بلا مراتب أو طبقات اجتماعية، غرباء عن حياة بورثو مناكوري. إنهم حادث صيف ليس إلا.

ويمتلك دون اوتافيو شاطئاً خاصاً، فيه قليل من الرمل الأبيض يحيط بجوئ عند نهاية بستان البرتقال. لكنه لا يتوجه إليه البتة.

ويروح أبناء الأعيان ويغدون على الطريق راكبين دراجاتهم النارية معنيين بحثاً وفتيشاً عن مصطافاة تقبل بأن تصبحنهم في جولة. إلا أنهم لا يقعون عليها إطلاقاً. ذلك أن المصطافات أيضاً لهنّ أمهات وأخوة وأخوات وخاطبون.

أما الفئة الوحيدة التي تقطع الشاطئ من أقصاه إلى أقصاه غير عابثة بالحدود، والتي يطأ أفرادها رمال المناطق الثلاث دونما تمييز، عابرين ركضاً، باحثين عن غنيمة ما، فهي فئة الواليوني.

وترى على الدرب الذي يحد الشاطئ، رجال الشرطة البلدية وهم في حركة دائبة، ذهاباً وإياباً، وعيونهم على الواليوني.

وتشاهد هنالك سيارات الأجانب الكبيرة عابرة. لأنهم لا يتوقفون عند هذا الشاطئ الذي يعجّ بالايطاليين. بل يتابعون السير بعيداً، متجاوزين شياقوني نحو الأجوان والخلجان الصخرية التي يأملون في أن يجدوها خالية. لكنهم يقعون عندها على مخيمات الألمان والسويديين والسويسريين وجميع أبناء الأقوام الشمالية، القادمين بحثاً عن السماء الزرقاء والذكريات الرومنسية وأربع ساعات من الاستحمام يومياً وعن بشرات محمرة مقلية، متشقة من نوح الشمس. وإن قدرة المرء على أن ينعم بالعزلة باتت ترفاً يزداد ندرة فوق أرض رجال منصرفين لصنع الأطفال.

في تمام الثانية عشرة والنصف، أوقف المفوض أتيليو سيارته الألف ومئة مقابل الشاطئ، وإلى جانبه زوجته أنا بينما احتلت جوزيينا المقعد الخلفي بجانب الأولاد الثلاثة. نزلت المرأتان والأولاد. أما المفوض فقد استدار بالسيارة في نفس المكان فتقدم خطوتين وتراجع خطوتين والعجلات متوجهة الجهة السليمة بدقة، ثم صف السيارة على مستوى المنحدر تماماً. فيا له من رجل. وبدوره ترجل من السيارة.

حين رآه بيزاشيو أعلن قائلاً:

- المفوض قادم إلى الشاطئ.

من النادر رؤية المفوض على الشاطئ، في غير يوم الأحد. وهذا ما دعا بيزاشيو إلى الإعلان عن قدومه.

دخلت أنا وجوزيينا والأولاد المقصورة المستأجرة طول فصل الصيف وأغلقوا على أنفسهم الباب. وتخلّف المفوض عنهم قليلاً فوقف على منصة

المنهل وأخذ يتنقل بين طاولة وأخرى وهو يتحدث مع أصدقائه. وحيّاه بريغانتي عن بعد بحركة من رأسه. فردّ له التحية من غير أن ينظر إليه، ورفع يده حتى مستوى كتفه فقط، دونما زيادة. فهما لا يُظهران علناً مدى الصداقة المتينة التي تربط بينهما في واقع الأمر.

كان ماتيوبريغانتي يمعن التفكير في فحوى التقرير الذي رفعه إليه بيزاشيو قبل قليل: لقد توجّه بيبو زعيم الدواليوني في ساعة مبكرة من صباح اليوم للقاء ماربيت في مستودع أحد بساتين دون سيزار. وليس بيبو وبالبو وزمرتهما ذوي أهمية أو اعتبار ليصبحوا شغله الشاغل، فقد سرقوا له الموسيقى عند انتهاء الحفل، وهو يرغب في أن يلقّنهم درساً، ليس إلا. وحين كلف بيزاشيو آخر الليل بمراقبة بيبو، فإنما فعل ذلك سعياً وراء اختيار الفرصة الملائمة، ويتأثر الغضب الذي استولى عليه عندئذ أيضاً. وها قد جاء اقتفاء الأثر من جانب بيزاشيو ليكشف عن واقعة جديدة: إنّ ماربيت لم تبت ليلاً في الدار ذات الأعمدة. فهي مختبئة في مستودع البستان. وهنالك استقبلت بيبو في الصباح الباكر. ولا يعتقد بريغانتي أنّ ماربيت على درجة من الغباء لتتخذ من بيبو عشيقاً لها. فهي فتاة نبيهة. وكلّما وجد بريغانتي مبرراً للتوجّه إلى دار دون سيزار لاحظ أنّها، وهي تغصّ الطرف، تنظر إليه نظرة باردة وقاسية تستأثر بإعجابه. ولو كانت له ابنة، لتمنى أن يرى في وجهها وعلى محياها، تلك النظرة الذكية العنيدة، والفتنة الخفية، مع رباطة جأش مذهلة من فتاة السابعة عشرة.

كان يبحث جاهداً عن تفسير صحيح للموعد المبكر ما بين ماربيت وبيبو. فهو يشعر بأنّ في المسألة شيئاً مميّزاً يجدر الكشف عنه. وأخذ يدور بفكره حول الواقعة فيقلّبها من كافة جوانبها. ويتركها ليعود إليها مدّحّصاً بكل صبر وأناة، وبشروء متعمّد أحياناً، مظاهرها وخفاياها. لقد اعتاد أن يفكر على هذا النحو، لحين العثور على صلة ما بين الأحداث، أو على تشابه من نوع ما. وعندها تضاء أمامه فجأة كل الوقائع الفريدة والمعزولة أو الخارجية

عن المؤلف. تلك هي طريقته غير المبالية ظاهرياً في تحليل الواقع، والتي نتيج له أن يكتشف من الأشياء، ما يفوق بكثير، كل ما يحمل إليه معاونه بيزاشيو ومخبروه الآخرون من تقارير.

خرج أبناء المفوض أتيليو من المقصورة ثم تبعتهم أنا وجوزينا. كانت هذه الأخيرة تلبس مايوه اللستكس الذي بدأت تظهر به في الأيام الأخيرة، مذ أن أهدتها إياه دونا نوكريزيا (ما من أحد يعرف مصدره باستثناء بريغانتي الذي عذم بالواقعة من فيديليا، فدوتها في ذاكرته إذ يُحتمل أن تفيدته يوماً ما). ثم كان أن ظهرت زوجة المفوض بالمايوه أيضاً، ليصبح ظهورها حدث اليوم دون منازع. فما قد انقضت عشر سنين وهي تقيم في بورتو مأكوري. وظلّت ترتاد الشاطئ لعشرة مواسم بلا انقطاع، وترتدي دوماً ثوب الشاطئ، أمّا المايوه فلم يرها أحد قط تلبسه إلا اليوم. إنها قنبلة الموسم حقاً. فهل يُفهم من ذلك أن المفوض أتيليو يبرهن على ولائه لعصبة ذوي الأفكار الطليعية؟

لابدّ للأمراء لكي يتوجّه من المقصورات إلى الشاطئ من أن يجتاز المنهل. وعليه فقد مشّت أنا وجوزينا فوق المنصة.

اتجهت الأنظار كلها نحو أنا. ولم يقوَ حتى الرجال الذين كان المفوض يتحدث إليهم على إخفاء دهشتهم.

قال المفوض:

- جاء دوري أنا لأخلع ملابسني. ولن أتأخر...

وضحك ضحكة الرجل الوثائق من نفسه، فهو الوسيم والرياضي الأنيق. ثم أغلق على نفسه باب المقصورة.

شعرت أنا بنظرات الرجال كلهم مصوبة نحوها. ورأت أن الأولاد قد ابتعدوا فلم يتبق لها ما تتمسك به. فحُتّ الخطى كي تبلغ الدرجات الثلاث المؤتية من منصة المنهل إلى الشاطئ. بيد أن جوزينا حصرتها في الممر الضيق بين الطاولات.

قالت لها هامة:

- يا مدام آنا، لا تحمري خجلًا. ارفعي رأسك قليلاً. لا تُظهري لهم
أُنتِ خجلى... فليست أول امرأة متزوجة تلبس المايوه... إنك سيدة حسناء فلا
تخشى شيئاً... أثبتني لهم أنك غير خائفة منهم.

السيدة آنا سميحة وبيضاء، أما جوزينا فنحيفة ومحروقة بالشمس،
لتعرضها لها يومياً من ساعة الظهيرة حتى الثانية بدءاً من أول الموسم.

لقد لبست آنا المايوه الأحمر الرُماني، الذي اشترته بمناسبة شهر
العسل، الذي أمضته قبل عشر سنين على أحد شواطئ توسكانيا. ولم تتوجه
بعدها إلى شاطئ حقيقي قط. وهي لم تكن في توسكانيا بصفتها زوجة لأحد
الأعيان بل كانت مصطافاة عادية. والمشكلة على كل حال غير مطروحة في
الشمال من أساسها.

لقد اكتنز جسدها لحماً وشحماً في بحر عشر سنين، على أثر ثلاث
أمومات. وجاء المايوه ليبرز انتفاخاتها الدهنية. لم يخطر هذا الوجه من
المسألة على بالها مطلقاً، طول الأيام والأسابيع الفائتة، التي أمضتها في إلحاح
شديد ودائم على زوجها، كي يسمح لها بأن تنزل إلى البحر بالمايوه، مثلما
تفعل خمس نساء أو ست من عصابة الأفكار الطليعية. غافلة تماماً عن حقائق
عدّة، منها أنها لم تكن تمارس أية رياضة مثلهن، وأنها تأكل بإفراط، وأنها
مترامية وكسلى. بل باتت مترهلة بلا شكل وهي لما تنزل في الثلاثين من
عمرها، مثلما مثل نساء ما قبل الانبثاق الوجل لطرز جديدة في اللباس
وطرائق حديثة في الحياة. حين تزوجت آنا، أحضرت معها ضمن جهاز
العرس، مثلما تفعل كافة بنات البرجوازية الميسورة في الجنوب، مجموعة من
الملابس الداخلية المضبوطة على مقاسها آنذاك، فتاة رقيقة مشوقة لا تحتاج
ملابسها إلى غبن أو ثنية. لكنّها لم تعد الآن قابلة لأن تلبس من قبل الأم
البدينة، ولا المرأة الضخمة المسنة التي ستصير إليها، حين يبدأ درب العمر
بالانحدار. وما انفكت جوزينا تؤجج في نفسها نار الرغبة في النزول إلى

الشاطئ بالمايوه، فتزيدها اشتعالاً، حتى باتت لا تفكر إلا في التطلع إلى الإنعتاق، الذي تتوق إليه كافة النساء، بما فيهن بنات الجنوب، لأنه مغروس في أعماقهن. ولم تحسب أي حساب لما آلت إليه الآن، وهي معروضة كأنها عارية تماماً، أمام أنظار المدينة بكاملها، داخل جسم لا شكل له، جسم مترهل ومشوه.

قاوم المفوض في البداية مقاومة عنيدة، بالضحك والمزاح أحياناً، على طريقته المعهودة، رجلاً يألّف النساء، وبهجة قاطعة أحياناً أخرى: «لا فائدة ترتجى من الإلحاح»، وبسلطة رجل تعود إصدار الأوامر باسم الحكومة. ولم يتحزح عن موقفه إلا في اليوم السابق مساءً بعد أن اقتنع فجأة على يد جوزينا. ولم تعرف أنا أن ثمن موافقة زوجها المباغتة، كان قبلة وبضع ملامسات دفعت له في أحد ممرات السراي. إلا أنها ليست بعيدة عن الشك في شيء من هذا القبيل. لأن أتيليو أخذ يردّ منذ عدة شهور، على استفزازات جوزينا، بنظرات وخلجات في الصوت، وإيماءات خاصة به صاحب غزوات. ولم تغفل عين أنا عن شيء، فهي تدب حظها حين تكون وحدها، زوجة لوزير نساء. إلا أنها لا تكف عن توجيه الدعوة لجوزينا، مخافة أن تغيب أتيليو إذا ما جافتها أو أبعثتها، فيسعى إلى لقائها في مكان آخر. إنها تفضل إن الاحتفاظ بغريمتها تحت مراقبتها. لا بل يراودها الأمل في نزع سلاحها منها إذا ما أهدقت عليها ظاهراً اللطف والنية. وتعتبرها في الواقع أقل خطورة من أخريات، فهي تراها تمتلئ غروراً ساذجاً من إطراء المفوض إياها، أي أنها بالتالي دون قيمة حقيقية بالنسبة له. لذا لم يراود فكرها أي شك في أن هذه العذراء الحمقاء هي التي تملي أوامرها على هذا الـ دون جوان.

إن جوزينا تحصرها الآن بين الطاولات فوق منصة منهل الشاطئ، تحت أنظار عليّة القوم، فتزيد من شدة خجلها وهي تطلب إليها ألا تبديه.

همست أنا وقد احمرّت خجلاً وغضباً:

- دعيني أمرّ.

والتهب جسدها كله بالخبث والغضب حتى بلغ الاحمرار كثيفها (حيث
حفرت شرائط المايوه أخدوداً عميقاً).

شدّت ببطء شديد طريقاً بين الطاولات، وجوزينا متعلقة بذراعها،
كابحة سرعتها قدر المستطاع، صائحة بملء فيها: «لن يسودّ لونك فوراً تحت
شمس الأسد، لكن ستصبحين بعد ثلاثة أيام سوداء مثلي، يا مدام آنا».

خرج المفوض من المقصورة بسرّوأل أسود. إنه رجل طويل القامة،
وسيم ومفتول العضلات، شديد السمرة أصلاً، حتى ليظنّ المرء أنّ الشمس
لوحته، رغم أنّه لا ينزل إلى الشاطئ سوى مرة في الأسبوع، يوم الأحد.

شاهد آنا تتعثّر فوق الدرجات المؤدية إلى الشاطئ وقد احمرت حتى
كثيفها، ومعها جوزينا تساعدان فتدفع بهما أو تكبح حركتهما. وتحوّلت
الأنظار نحوه. إلا أنّه موظف تعودّ التحكّم في قسّات وجهه وضبط انفعاله
فلم يبدِ استياءه.

قال بيزاشيو:

- كانت جوزينا في الليلة الفائتة تتولى أمر مدير مصرف نابولي.

فصحّ له بريغانتي قوله:

- بل مدير فرع المصرف.

تقدّم المفوض بسرعة ففصل بين السيدتين ممسكاً بكل واحدة من تحت
ذراعها دافعاً بهما إلى البحر بسرعة، قائلاً بصوت عالٍ وبلهجة مازحة:

- سيداتي، إلى الماء، هيا إلى الماء فوراً.

وانتهت نحوهم أنظار نساء الأعيان وبناتهم، وهنّ مستنقيات فوق
الكراسي الطويلة تحت المظلات.

صاحت جوزينا:

- هذا هو المطلوب، سنعلّم السيدة آنا السباحة!

وانفصلت عنها وركضت إلى الأمام. ارتسم جسدها جميلاً. فالنساء في
مناكوري أمّا ثقيلات الجسم أو هزيلات مشدودات كالخيوط. أمّا جوزيينا
فمستديرة الأرداف رقيقة الخصر. وقد كبر نهذاها بحشوة متينة أحسن إخفاؤها
تحت مايوه اللستكس. إنها بديعة القوام حقاً ورشيقة مكنتزة.

قطعت بضع خطى راكضة ثم استدارت رافعة ذراعيها نحو السماء
وقد برز الرأسان (الصناعيان) للنهيين المشدودين تحت المايوه.

صاحت:

- تعالّي، يا مدام آنا، تعالّي! سوف نعلّمك السباحة.

ثم تابعت الركض إلى البحر فخاضت فيه بخطى خفيفة، وظلت تركض
حتى غمرها الماء لمنتصف الفخذين فتوقفت فجأة، وارتفعت على رأس قدميها
وضمت يديها فوق رأسها وقامت برهزة قوية وغطست. ولقد شوهد جسمها
وهو يتقوّس فوق الماء. وانسلّت لتظهر على بعد خمسة عشر باعاً عند طرف
الجرف الرملي الأول، حيث يستطيع المرء الاستناد بقدميه على الأرض.
برزت من الماء ووجهها إلى الشاطئ باسطة فوق مياه البحر (وهي واقفة
فوق بساط الرمل يغمر الماء ساقيها فقط) جسدها الطويل الرشيق وهو يقطر
ماء، لامعاً بتأثير الشمس والبحر.

تابع المفوض، تحت أنظار الأعيان - رجالاً حول موائد المنهل ونساءً
تحت المظلات فوق الرمل - دفع زوجته آنا بقوة نحو البحر. لقد شدّ على آنا
بقوة حتى رسمت أصابعه أثلاماً، كخطوط بيضاء حمر الحوافي، فوق الذراع
السمينة، تماماً كما فعلت شرائط المايوه فوق الكتفين السمينتين. إنّ عيون
مناكوري المدرّبة على عمليات مراقبة نفاذة، لا تعد ولا تحصى، قد أبصرت
ذلك. فارتفع الهمس والغمز وشاع الانشراح.

قالت آنا:

- دعني، أريد أولاً أن أتعرض للشمس تحت مظلتنا.

فانتهرها أتيليو قائلاً:

- لا يتعرض أحد للشمس وهو تحت المظلة. تقدّمي.

- تمهلّ. دعني أعود على الماء فأنا أشعر بالبرد.

- الماء دافئ. تقدّمي.

وخاضا في الماء حتى منتصف الساق. قالت:

- أشعر بالبرد وقد نفذ إلى عظامي. دعني التّقط أنفاسي.

- ألم يكفك الوضع المضحك الذي أنت فيه ؟ ارفعي ظهرك وتقدمي.

غمر الماء جسمها حتى الوركين. فقالت:

- أفضل أن أغطس في الماء دفعة واحدة.

فتوقف وأرعى ذراعها وأخذ ينظر إليها. ثم قال:

- اغطسي، اغطسي. لا تخافي فالشحم سيرفعك.

رجعت جوزينا سابحة على ظهرها ورأس النهدين على مستوى صدفحة

الماء. وتوقفت على خطوتين منها وصاحت:

- اغطسي دفعة واحدة يا مدام آنا. الماء رائع. إيه يا قديسة مريم، يا شفيعة

كابو، ما أروع الماء!

نقلت آنا ناظريها بينهما من واحد إلى آخر. ثم قعدت فجأة فوق القاع

الرملي فغمرها الماء حتى عنقها.

صاحت جوزينا:

- مرحى لك، يا مدام آنا، مرحى. فأنت رياضية حقاً.

وبدا رأس آنا الأبيض كأنه طاف على وجه الماء. فقال لها المفوض

بصوت هادئ:

- هل أنت راضية أخيراً ؟ كان بودك أن تسبحي، وها أنت الآن في

الماء. ظلّي حيث أنت، فيا لها من متعة...

وانطلق سابحاً بكل يسر مبتعداً إلى عمق البحر.

فصاحت به جوزينا:

- سيدي المفوض، أين الكياسة؟ لا يصح أن تترك مدام أنا وحدها....

ثم توجهت بحديثها نحو رأس أنا الأبيض الطافي على سطح البحر قائلة:

- لا تتحركي، يا مدام أنا، سوف ألحق به لأقول له رأينا فيه.

وانطلقت تجد في إثر المفوض سباحة الكراول. وهي، إذا ما شعيت، تسبح أسرع منه. ولا يعوزها التدريب، فهي تسبح الكراول يومياً منذ بداية الموسم. فوضعت في حسابها أن التعب حين يدركه سيقفل راجعاً، وعندها تكون هي في المقدمة فيبدو هو كأنه يلاحقها.

نهضت السيدة أنا واقفة، تقطر ماء، ورجعت متناقة نحو الشاطئ تحت أنظار الأعيان.

قال بيزاشيو:

- لو كنت أنا المفوض أتيليو، لما كنت لجوزينا غير الصفعات.

فقال ماتيو بريغانتني:

- أمّا أنا، فكنت منحتها الوشاح الأصفر.

- لماذا الوشاح الأصفر؟

- مثل الفائز الأول في دورة فرنسا.

- لماذا الفائز الأول؟

- لأنها بطنة.

قال بيزاشيو:

- إنها تسبح جيداً. هذا صحيح.

فقال ماتيو بريغانتني:

- يا لك من غبي.

يستقبل المفوض عشيقاته في برج فريديريك الثاني دو سواب، الذي يؤجره ماتيو بريغانتني للبلدية. ويمكن الدخول إليه بثلاث طرق. فعند إحدى زوايا سطح قصر البريد المواجه للسراي تماماً، يقوم باب يؤدي إلى الطابق الثاني حيث تقع قاعة كبيرة ثمانية الأضلاع، ترك بريغانتني لعناصر المفوضية حرية استعمالها. فأصبحوا يودعون فيها ملفات القضايا المنسقة، فليس من تتولاه الدهشة إذن لرؤية المفوض داخلاً إليها أو خارجاً منها. وهناك باب آخر في قسم من السور، يفتح على درج حجري يؤدي إلى الطابق الثالث، حيث تقوم الشقة الصغيرة الخاصة والمشاركة بين المفوض وماتيو بريغانتني. ويمكن بلوغها أيضاً من بيت بريغانتني نفسه عبر ممر يتفرع من حجرة الدرج، تحت سقف قسم القصر، المبني في عصر النهضة والواقع فوق البلدية.

أما الطريق الثالثة فيبدأ من كنيسة القصر الصغيرة. ومفاتيح هذه الطرق الثلاث بحوزة بريغانتني. فعلى المفوض أن يأخذ منه هذا المفتاح أو ذلك من أجل لقاء عشيقاته.

الطابق الثالث من البرج عبارة عن قاعة ثمانية الأضلاع مائلة لقاعة الطابق الثاني. لقد سَطِمت نوافذها المقنطرة، وبقيت كوة في أعلى القوس من أجل التهوية. وعُزلت إحدى زوايا القاعة بسجاجيد جدارية تم شراؤها من عند أحد الباعة في فوجيا، وجُمِرت بسرير حديدي مدهون بزخارف من الورد، تقليداً لزخارف الأسرة الخشبية الفينيسية، وبطاولة للزينة عليها كل المستلزمات، وراء حاجز قماش من الكريتون. وعلى الجدار وراء السرير مرآة كبيرة. وفرشت على الأرض بجانب السرير سجادة مغربية الزخارف، شبيهة بالتي كان يحضرها ضباط الصف العاملون في «جيش ليبيا»، كما وُضع شمعدان زجاجته مزينة باللائي الصناعية فوق منضدة صغيرة من طراز السجادة الليبي نفسه.

تؤم النساء عامة هذه الشقة عن طريق الكنيسة المفتوحة للصلاة. فيسكن الدرج اللولبي القائم داخل السور القديم والذي يؤدي إلى قمة البرج حيث يأتي السواح عادة. وعند دورة الطابق الثالث يجدن الباب الذي أعطاهن المفوض مفتاحه، بعد أن استعاره من بريغانتني.

ويأتين أحياناً عن طريق بيت بريغانتني نفسه. لأن زوجة هذا الأخير كانت تقوم فيما مضى ببعض أعمال الخياطة. وهذا مبرر بذاته لدخول بيتها. وترسخت لدى الجميع ثقة في تكتنها. لا سيّما والكل يعرف أنها تعيش في حال رعب دائم من أن يتهمها زوجها ذات يوم بخيانة أحد أسرارها التي لا تحصى. حتى أنها لا تبوح بشيء لأحد.

وعلى هذا النحو فإنّ علاقات المفوض الغرامية تقع تحت مراقبة ماتيو بريغانتني (مثلاً تقع علاقة لوكريزيا ضمن علم جوزيينا). إنّ العلاقات الغرامية غير المشروعة يستحيل قيامها في المدن الصغيرة، كثيفة السكان، دون تواطؤ ووساطة. (وهذا ما يفسّر دور القوادات وسماسرة الهوى في الأندب الإيطالي).

ولا يبقى غير كبار المالكين الذين بوسعهم القبول بمبررات مكلفة جداً حتى لا تخدع أحداً. فإن كانت الفتاة، أو المرأة، فقيرة استدعوها لبعض الوقت خادمة. وإن كانت زوجة لأحد الأعيان وجهوا دعوة للاثنتين لزيارة القصر أو الفيلا. فينظّمون رحلة صيد يشارك فيها الزوج، أو يطلبون إليه الذهاب لمراقبة معصرة الزيتون أو لتسوية أية مسألة مزعجة لا بدّ وأن تعود عليه بريح وفير.

إنّ الشقة الفاصلة بين كبار ملاك الأراضي، من أمثال دون سيزار أو دون أوتافيو وبين الأعيان، مثل تلك التي تفصل ما بين الأعيان وبين عامة الشعب. وإذا مضينا إلى أبعد من ذلك نجد أن ماتيو بريغانتني قد التقى بإداريي شركة مونتيكاتيني، الذين فاوضهم على بيع أراضيهم من ماغريتا دي سافويا،

أو إداريي شركة مناجم البوكسيت الذين يتعهد بعض نقلاتهم. إن بوسع كل من هاتين الشركتين شراء جميع أملاك دون سيزار أو دون اوتافيو دون أن يطرأ أي تعديل، مهما يكن طفيفاً، على مخططها لنهاية العام.

والعالم مخلوق على صورة الأسطول الملكي حين كان ماتيو بريغانتي منخرطاً في سذكة برتبة عريف بحار. البحارة : عامة الشعب. ضباط الصف: بريغانتي نفسه ورجال الأعمال في فوجيا. أمّا الضباط من المراتب الدنيا فهم أعيان بورثو مناكوري أو فوجيا ورجال الأعمال المسجلين في غرف التجارة أو الصناعة. وكبار الضباط هم: دون سيزار ودون اوتافيو. أمّا هيئة الأركان العليا فهي: شركة المونتিকা تيني وشركة البوكسيت. وفوق كل هؤلاء يأتي الملك الذي لم يعد له اسم معروف من حين قيام الجمهورية. فليكن اسمه الشركة المغفلة لسلطة الدولة. وفي أقصى الأعالي: يستوي الله.

إن ماتيو بريغانتي، الذي يعيش دائماً في حالة الخطيئة المميّنة باستثناء ليلة واحدة في السنة تبدأ من لحظة اعترافه أمام الكاهن يوم سبت النور، وتنتهي بتناوله القربان المقدس (في اليوم التالي) صباح أحد عيد الفصح، يؤمن رغم ذلك إيماناً راسخاً بالله وبالكنيسة المقدسة. والمجتمع الإنساني على نحو ما يعرفه، وبشكله المنسّق تسلسلاً، وبتدرّجه الشديد، يقدّم في نظره برهاناً قاطعاً على وجود الله، الذي يتوّج كل شيء ويختّمه. مثلما تتوج شمس الأسد خليج مناكوري عند الظهيرة وتختّمه.

ولئن كان ماتيو بريغانتي مرغماً على ارتكاب العديد من الخطايا المميّنة، فإنّما ذلك لأنّ الله أتاح له أن يصبح ضابط صف ومراقباً لبورثو مناكوري، ولأنّه يمنعه من الارتقاء إلى طبقة أعلى (طبقة المحامين وموتقي العقود والأطباء والقضاة والمفوضّين، ومرتبة السيد الدكتور والسيد الأستاذ وكافة ذوي الألقاب الجامعية). إلا أنّ هذا مخصص لابنه. أي كأنّه يدفع بخطاياها، ثمّن المقام الرفيع الذي سيحتله ابنه. فكل شيء له ثمن. ذلك هو القانون.

ولا يقدّم المال وحده تفسيراً كافياً لقسوة التفاوت وصلابة التمايز بين الطبقات. فماتيو بريغانتى يملك من المال أكثر مما يملك المفوض بكثير. بل لا مجال لهذه المقارنة أصلاً. فالمفوض يسدّد ثمن سيارته الألف ومئة بالنقسيط، أمّا بريغانتى فلو اشترى سيارة لما كلفه الأمر أكثر من توقيع شيك على حسابه في مصرف نابولي. وإذا كان لم يشتّر سيارة فذلك كي لا يخسر فوائد رأس المال الذي تمثله السيارة، زدّ أنّه يجد متعة أكبر في استخدام سيارات الأشخاص الذين يراقبهم. وبشكل خاص حين يبدو عليهم التبرّم. والمفوض موظف. وقد صار بريغانتى على درجة من الغنى تجعله يلفظ بهذه الكلمة 'موظف' بشيء من الاستهانة. ولكن مهما يبلغ بريغانتى من الغنى، بفضل الفوائد المركبة لرأس مال يُدار ويوظف بمهارة، ومهما تكن قيمة الخدمات التي يقدمها بشكل أو بآخر للمفوض، فسوف يظلّ يخاطبه بقوله «سيدي المفوض» أو بلفظة «ليي». (وليي هذه بالإيطالية تشبه قول أنتم بالفرنسية أو حضررتكم.) في حين أنّ المفوض سيرد عليه بقوله «يا بريغانتى» أو بلفظة «أنت». فينبغي على ماتيو بريغانتى، من أجل أن يتمتع بامتيازات كبار الضباط، وقد صارت ثروته تؤهله لذلك، أن يرتحل عن بورنو مناكوري. وهذا ما قد ينوي القيام به حين بلوغه سن التقاعد، من بعد أن يكون ابنه قد صار محامياً وواحداً من أصحاب الأماك، وبعد أن يكون قد تدرّب على يديه ليعرف كيف يحمي ثروته. ولو كان يعيش في مقاطعة أخرى غير مقاطعة فوجيا، في الشمال مثلاً أو في الخارج، لحصل على امتيازات المنزلة الاجتماعية، التي سيُرسّخ المال الذي ينفقه، الاعتقاد بأنّه ينتمي إليها. لكن هل هذا الأمر مؤكد ومضمون؟ فهو من ناحية ينظر بعين الشك والريبة، إلى الأجانب الذين يعبرون بورنو مناكوري في سيارات كبيرة، أميركية (أو ألمانية أو فرنسية)، فيتوقّفون أحياناً لتناول الفطور في استراحة رصيف المرفأ. وقد لا يكونون أكثر من عرفاء بحريين في بلادهم، إلا أنّهم يجوبون إيطاليا في سياراتهم الكبيرة، فيزورون المتاحف، وتفتح لمقدمهم أبواب الكنائس، ويتصبّب منهم العرق مدراراً وهم يدورون حول الكاتدرائيات

الضخمة في حرّ الظهيرة، تحت لميب شمس الأسد، وينزلون في الفنادق
 الفخمة التي من حقّ كافة نزلائها التمتع بالقدر نفسه من الاحترام. وقد لا
 يفعلون ذلك كلّهم إلا ليؤهّموا أنفسهم بأنهم من كبار الضباط. ويجلس ماتيو
 بريغانتني في زاوية من الاستراحة يراقبهم ويرصد حركاتهم ولهجاتهم، وقلّة
 الانطلاق والمرح، أو الإفراط في الانطلاق حتى الوقاحة، فتقدّم له تلك
 الأشياء كلّها الدليل والبرهان على أنّ هذا الأجنبي أو ذاك مخادع غشاش.
 مثمّما سيكون بدوره غشاشاً فيما لو اختار المنفى الطوعي، لأنّ الذي سيكون
 قائماً بدور بريغانتني في المكان الذي سيختاره منفى، سوف يكتشف على الفور
 أنّه غشاش. وإنّ المرء الذي يجوب رحاب دنيا الله، لا يقوى على الإفلات من
 أعين المراقبين الذين غرسهم الله في كل مكان تقريباً، والذين باقتطاعهم
 ضريبتهم على حساب الفوضى، يساهمون بطريقتهم الخاصة في إحلال
 النظام. هذا ما كان ماتيو بريغانتني مستغرقاً في التفكير فيه، انسجماً مع
 طبيعته التأملية، وهو الذي أعدّه مهنته مبتزاً، إعداداً خاصاً للتأمل في الفروق
 الاجتماعية. كان يفكر بذلك وهو يواصل مراقبة المفوض وجوزينا وهما
 يسبحان وراء حدود الجرف الرملي الأول.

إنّ جوزينا، سباحة ماهرة، أسرع حركة من المفوض، ومهما يكن نوع
 المخاتلة التي يلجأ إليها، تجدها قد تدبّرت أمرها لتكون متقدّمة عليه قليلاً،
 كيما يستطيع الأعيان وزوجاتهم، الذين يراقبونهما من على الشاطئ، الاعتقاد
 بأنّ المفوض هو الذي يلاحق جوزينا. فهي تلتفت إليه في الماء بين وقت
 وآخر وتطلق ضحكة قوية جداً حتى تُسمع من على الشاطئ. إنّها ضحكة
 فتاة لرجل يحاول إغراءها فلا ترفض إغراءه تماماً، لكنّها تلهو به وتتسلّى
 باستجراؤه لملاحقتها، فتجعله يسير على أعقابها، تجعله يمشي.

أمّا أنا فقد عادت إلى الشاطئ وتمددت فوق الكرسي الطويل تحت
 مظلتها، ناشرة منشفة على فخذيها، لتخفي تكتلات اللحم النافرة عند حوافي
 المايوه الضيق. وقد حبست، بكل ما أوتيت من قوّة، الدموع المتراخمة لتسيل

من مآقيها، فيما كافة النساء يرصننها بترقب. وحين شعرت بأنها باتت عاجزة عن احتباسها أكثر، ذهبت لتحبس نفسها في مقصورتها. أمّا الآن وهي جالسة على مقعد خشبي وراء الباب المغلق، وبعد أن أرخت شرائط المايوه لتحرّر منه نهديها الكبيرين الأبيضين، فقد أطلقت لدموعها العنان باكّة بصمت. استمرّ المفوّض يسبح بعيداً عن الجرف الرملي الأول، مختلاً من هنا وموارباً من هناك، متبوعاً من جوزينا وبادياً أنّه يتبعهما. ربما كان يشتمها. لا ريب في أنّه شتمها بادئ ذي بدء. أمّا في هذه الساعة، فإنّه يتوسّل إليها دون أدنى ريب، لتأتي في يوم قريب إلى شقته الصغيرة الخاصة، في برج فريدريك الثاني دو سواب. وتجيبه جوزينا والحال هذه بكل تأكيد: «أرجع السيدة أنا، بادئ الأمر، إلى بيت ذويها في لوتشير». ولا يسعّ من على الشاطئ سماع ما يقولان، إنّما يسمّع فقط ضحك جوزينا المتحدّي والاستفزازي.

إلا أنّ الأعيان الذين يتناولون المشروبات، جلوساً فوق منصة منهل الشاطئ، وسأوهم المستقيبات تحت المظلات فوق الكراسي الطويلة، لا ينخدعون. فهم يعلمون حق العلم أنّ المفوّض ليس هو الذي يلاحق جوزينا، بل ربما يكيّل لها الشنائم، إنّما الفتاة هي التي تستغلّ رشاقتها في السباحة لتبدو كأنّها المطاردة من قبل المفوّض. إنّ جوزينا، والحال هذه، تلعب لعبة مكشوفة أمام أعين جمهور عالم بخفايا الحياة الاجتماعية كلّها. وهي تعرف هذه الحقيقة مثمّا يعرفها جمهور المتفرجين. لكنّ عناصر الإثارة والمتعة لأعيان بورنو مناكوري تمثّلت في المفوّض أتيوليو، وقد حوَصِر وضيق عليه الخناق حتى:

١ - سمح لزوجته السمينّة، للسيدة أنا المحترمة والجديرة بالتقدير، بأن تنزل إلى الشاطئ بمايوه السباحة.

٢ - بظهوره علناً على الشاطئ وأمام الجميع، بين زوجته التي ستصير من الآن فصاعداً أنا البشعة (المشوّهة بسبب الأمومات والشراهة)، وبين

الشقية الهيفاء جوزينا (التي ازدانت نحفاً بسبب الملاريا) والأكثر تهتكاً بين كافة عذارى مناكوري.

٣- أن يتحوّل على صفحة الماء، وراء الجرف الرملي الأول، وأمام عيون الشاطئ كلّها، إلى مجرد ألعوبة بيد جوزينا الخفيفة الحركة، المتعمّدة الإثارة. إنه يؤجل لحظة رجوعه إلى الشاطئ. فيواصل المخالطة هنا وهناك بين ضحكات جوزينا، لأنه لما يقرر مواجهة نظرات الأعيان الساخرة (ونظرة بريغانتى الباردة). وإن انطلقه رجلاً تعود أن يروق عيون السيدات، لن يعود عليه بأية فائدة، في هذه المباراة، التي ألغيت فجأة، لأنه قبل على وجه التحديد، أن يجعل من نفسه أضحوكة أمام نساء الأعيان، وبينهن عشيقات الماضي، وبينهن، كما تراوده الآمال، عشيقات المستقبل، وذلك كلّه على يديّ العذراء الأكثر وقاحة وجنوناً بين فتيات بورنو مناكوري.

ليس الفضول إذن هو الذي يبقي عيون المتفرجين مفتوحة على المشهد، إذ ليس لدى جوزينا من جديد بالنسبة لغالبيتهم العظمى. فمذ وقت طويل والكل يعرف أن المفوض يسعى لينال جوزينا، صديقة زوجته المفضلة، وأنه يفرض على زوجته أن تستقبلها على أنها صديقتها المفضلة. لكن الإثارة التي تبدو في عيون المتفرجين من نوع آخر، إنها أعمق أثراً وأكثر عنفاً. إنها شبيهة بمتعة حضور جلسة مثيرة في محكمة الجنايات أو الذفرج على مصارعة الثيران. إنهم يتفرّجون على صراع المفوض أتيليو مع المصارعة البارعة جوزينا ابنة بائع الخرداوات في شارع غاريبالدی وكيف خرّ على يديها صريعاً.

أخيراً فهم بيزاشيو، فقال:

- إن جوزينا لتفرض إرادتها على المفوض.

فأجاب بريغانتى:

- لا مناص للنهاية من أن تكون كذلك.

- لماذا؟

- لأنّ قسوته مزوّرة.

إنّ الشّقة الصغيرة الخاصة المشتركة بين المفوّض وماتيو بريغانتي سبب دائم لتبادل الأحاديث فيما بينهما عن العشق، وهما جالسان في مكتب المفوّض المغلق أو في الشّقة نفسها حين يتبادلان المفاتيح. ويتكلمان في هذه الحالات بكل حرية، كلام رجل لرجل، ساقّت الظروف كلّ منهما إلى عدم إخفاء أي شيء عن الآخر. حين يتحدثان عن العشق، وحدهما، وفي هذه الحالات حصراً، يدعو بريغانتي المفوّض باسمه فقط، أتيليو، مجرداً من أي لقب. ويقول له المفوّض بدوره «عزيزي» ماتيو. ويحمل الرجلان عن العشق فكرة متماثلة في خطوطها العريضة: فقيمة العشق كلّها تتمثل في أن تفرض إرادتك على الطرف الآخر، امرأة كانت أم فتاة.

(أمّا فيما يتعلق بالمتعة، فإنّ بنات بعض الدور، ودور المتعة منها بشكل خاص، تلك اللواتي تتراوح قيمة نصف ساعتين بين ألفين وخمسة آلاف لير، وساعتين بعشرة آلاف، أكثرُ تجربة وخبرة من أية عشيقة. لكنّها متعة من نوع آخر، وهي أقل إثارة في نهاية الأمر من متعة فرض الإرادة على العشيقة، وإن تكن هنالك حالات تتفوق فيها فتاة الدار على كل عشيقة. وإنّ العلاقة في الواقع بين الفتيات وبين هواة الفتيات على شيء من التعقيد. فدفع المال للفتاة فيه سيطرة وفيه فرض إرادة. لكن حين تفرض هي دفع المال، تتولى هي السيطرة وفرض الإرادة. وبوسعها والحال هذه أن تمنح المتعة المزدوجة بفرض السيطرة والخضوع لها في آن معاً. وهذا هو أوج الحرية في العشق. والنجاح هنا متعلق بمهارة الفتاة - وفي كل حركة - على توضيح هذه التبعية - الحرية لكل من الشريكين تجاه الإرادة التي يتبادلان فرضها، وسيطرة كل منهما على الآخر. أمّا إذا كانت الفتاة غير حاذقة في ممارسة هذه اللعبة التي تشكّل جوهر مهمتها، فإن الإرادتين في هذه الحال يبطل مفعولهما أي تلغي الواحدة منهما مفعول الأخرى (بدلاً من مضاعفته نحو درجة متفوّقة لتأثيرهما المتبادل). ولا تبقى والحال هذه غير متعة الامتطاء

التي لا تعود الوسائل ذات قيمة معها ولا الأوضاع، فهي من أكثر أنواع المتع
بلادة ونفاهة، حتى ليحصل عليها البعض مع الماعز أو في العزلة أو مع
الزوجة، التي ألقت منذ وقت طويل الخضوع لفرض الإرادة، حتى بات
فرضها عليها دون قيمة تذكر. وهذا على وجه التقريب رأي ماتييو بريغانتي
بالتفنيات ضمن صيغ أخرى، لكن بوضوح شديد بسبب ممارسته لعبة القانون،
ورأي المفوض أيضاً لكن بغموض أكبر وببعض التشويش).

ويتفق ماتييو بريغانتي والمفوض على أن فرض الإرادة هو الذي يعطي
العشق أهميته. لكنهما يتوجّهان نحو أهداف مختلفة.

فالمفوض أتيليو حين يبدأ بمغازلة زوجة أحد الأعيان، يحيطها بالعناية
ويسعى للإيقاع بها في شركه، فيمانيقها ويُداهِنها ويُلطفها ويُدلِّها، وبجهد
لإقناعها بزيارته في شقته الصغيرة الخاصة، في برج فريدريك الثاني دو
سواب. ثم يرهق نفسه في طرق مطارحة الغرام، مقتنعاً بأنه يحقّ من
المتعة، للمرأة التي تشاركه الزنى، ما لا تقع عليه، حسبما تقول، عند زوجها.
ويحقّق انتصاره بقوله: «أنت لي». إن الرجال في البلدان المسيحية يتوهّمون
بسهولة أن المرأة حين تقول: «أنا سعيدة» إنما تقصد أن تقول: «أنت دمغتي
وطبعتني بطابعك فصرتُ ملك يمينك». إنهم ميتافيزيقيون دون أن يدروا،
وملاكون وقانونيون بالجواهر، يتصوِّرون متعة الحب بعبارات المطلق:

إنّه الحديد الأحمر يدمغ الماشية التي تمتلكها أدياً. وحين يقتنع أتيليو
أخيراً بأن عشيقته باتت تخصّه دون تحفظ، يعلمها أساليب بنات فوجيا
وحركاتهن وسكناتهن قائلاً في نفسه: «إنني أخطئ من مقامها». ويقطع بعدئذ
كل صلة بها فينتقل إلى أخرى.

الإغواء والسيطرة والإفساد والقطيعة، تلك هي الوجوه الأربعة
لفجور المفوض أتيليو، الذي ينصرف إليه بممارسة دينية أكثر مما يظن.
وها هو قد وقع في نهاية المطاف تحت سيطرة جوزيينا. فيتهلّل بريغانتي
فرحاً، منشراح الصدر.

أما عن ماتييو بريغانتي فأنه يفضل اغتصاب الأبكار.

انتهت مباحث النشاط في حدود الساعة الثانية بعد الظهر. وعاد الجميع إلى مناكوري للغداء والراحة فترة القيلولة. وأعاد المفوض في سيارته الألف ومئة زوجته آنا وجوزينا والأولاد الثلاثة. وفي اللحظة ذاتها افتרכת دونا لوكريزيا عن فرانثيسكو عند رأس لسان الجبل قرب «الترابوكو». سار كل منهما في غابة الصنوبر، فاتجه هو ناحية المكان الذي خبأ فيه فيسبا دون روجيرو، وتوجهت هي إلى بوابة المنتجع الصيفي، مردداً كل منهما في نفسه كلمات الحب التي سمعها من الآخر.

نام ماتييو بريغانتي حتى الساعة الخامسة في بيته، داخل مسكنه في قصر فريدريك الثاني دو سواب. ثم استحم بماء بارد واعتنى بمظهره فهو شديد الحرص على أن يكون في أحسن شكل وأكمل هندام. واختار لهذه الفترة الثانية من النهار، التي تبدأ بعد القيلولة، ستره من المخمل الأزرق البتروئي، وقميصاً أزرق فيروزي اللون، وزين ياقته بعقدة فراشة زرقاء سماوية. صحيح أن عقدة الفراشة لم تعد تستخدم كثيراً في إيطاليا، لكن بريغانتي اعتمدها مذ أن دخل عالم الابتزاز، على أثر تسريحه من الجيش مباشرة. وقد رأى آنذاك أن عقدة الفراشة تسبغ على الشخصية طابعاً من المهابة والأبهة، أكثر من ربطة العنق. أما الآن فقد ينكر نفسه إذا كان بدون عقدة الفراشة.

سأله السيدة بريغانتي:

- هل ستعود للعشاء؟

فأجابها:

- لست أدري.

وانعطف عند زاوية الساحة الكبرى وشارع غار بيالدي. كان السجناء في طابق السراي الأرضي وراء قضبان الكوى المفتوحة نحو الأعلى يغنون:

«توري، يا حلوة، توري...»

لكنْ أصدواتهم لم تطرق مسامعه أكثر مما يطرق مسامع الصياد دويّ
محرك زورقه. ثم توجه نحو أولى دعائم الجبل حيث تبدأ منطقة بساتين
البرتقال والليمون.

سلك درياً مغايراً للدرب الذي سلكته مارييت ليلاً، ثم سلكه بيبو
صباحاً، وبيزاشيو يلاحقه دون أن يدري.

وهكذا وصل إلى بستان مجاور لبستان دون سيزار (حيث تخبئ مارييت)
لكن من طريق آخر، على الجانب المناظر للوادي ذي الينابيع الثلاثة.

كان الوقاف على البستان، وهو واحد من أصدقائه، يراقب حوالي
عشر نساء يقمن بعزق الحفر المحيطة بجذع كل شجرة وتعشيبها.

تحدثا معاً لبعض الوقت إلى أن قال الوقاف:

- إنهن مجموعة من التنازل. ولو أغمضت عيني لتوقفن عن العمل.
فقال بريغانتي:

- إن لم تلتفت بنفسك إلى رزقك، فأخرون لن يهتموا به بدلاً عنك.
قال الوقاف:

- إنهن يأكلن مالي.

فأجاب بريغانتي:

- وما بوسع اليد أن تفعل بدون العين....؟

وتابع الاثنان لبعض الوقت تبادل تلك العبارات المنمقة التي يداولها في
العادة ضباط الصف.

ثم قال بريغانتي:

- سوف أرتاح قليلاً.

فأجابه الوقاف:

- إفعل ما يروقك.

ما من أحد يلقى أسئلة على بريغانتني قط. وإذا ما توقف في هذا البستان فمعنى ذلك أن لديه ما يراقب في مكان قريب. وهذا من شؤونه الخاصة.

ومضى فجلس في ظل شجرة تين بانتظار انصراف الوقاف والعاملات. كان والد بريغانتني عاملاً زراعياً يشتغل مياومة (ما لم يكن عاطلاً عن العمل). وكانت أمه تعمل مياومة في عزق البستان أو في فتح الماء من البئر للسقاية. كانت تمضي فترات عاطلة عن العمل أكثر من الأب. وكانا إلى جانب ذلك يقومان بكل أنواع السخرة دون مقابل لصالح الوقاف أو المرباع الذي كان يتلطف باستدعائهما للعمل.

كان لدى ايتالو باربوني، وهو أحد الوقافين عند دون اوتاني، شيء من العطف على والده فيشغله في أغلب الأحيان. كان يقطن منطقة البساتين، على بعد مئتي متر من الطريق. فيسلك درباً فرعياً يقطعه عدد من الدرجات. وحين يذهب إلى بورتو مناكوري كان الأب ينتظره عند زاوية الطريق حاملاً بيده فانوساً، بدءاً من هبوط الظلام وحتى ساعة رجوعه، ليقوده عبر الدرب الفرعي. فيسير أمامه متحياً قليلاً، مثلما يمشي السرطان، كي لا يشكل حاجزاً بين الفانوس وبين قدمي باربوني. والوقاف من أكبر عشاق لعبة القانون. وغالباً ما يعود قبيل الفجر. فكان والد ماتيو ينتظر طول الليل، دون أن يجرؤ مرة على أن يقول للرجل الذي كان يتعطف فيشغله: «سأترك الفانوس عند طرف الدرب وأذهب لأنام». والواقع أنه لو ترك الفانوس هناك لوجد بالتأكد من يتطوع لسرقته. والفانوس ذو قيمة لا يستهان بها في بلد للعاطلين عن العمل. ولو أنه خبأه (كان بوسعهما الاتفاق على مخبأ) فإن باربوني الذي يرجع مخموراً بصورة شبه دائمة، ما كان سيعثر على المخبأ، ولا كان بوسع إضاءة الفانوس. فلم يكن أمامه من حل آخر غير الانتظار، جالساً على الأرض عند زاوية الطريق، ريثما يقرر الوقاف العودة إلى بيته.

وباربوني أيضاً كان ينتظر. فدون اوتافيو تعود أن يمضي أذذاك القسم الأكبر من السنة في روما. ويحصل أحياناً أن يكتب لوقافه قائلاً: «انتظرني

يوم الاثنين في محطة فيلانوفافا». فيقوم باربوني بإسراج العربية ذات الجوادين، وينطلق مبكراً لانتظار سيده في محطة فيلانوفافا، التي تبعد عشرين كيلو متراً عن بورنو مياكوري. وغالباً ما كان دون اوتافيو يتأخر. فلا يأتي يوم الاثنين حسبما أعلن، ولا يوم الثلاثاء ولا الأربعاء. وحدث مرة أن انتظر الوقاف قدومه أسبوعاً كاملاً أمام المحطة. فكان ينام الليل فوق رزمة من القش يضعها في صدر العربية. لم يعد دون اوتافيو يركب القطار الآن، فذبه عدد كبير من السيارات. لكن ايتالو باربوني العجوز، ما انفك ينتظره في مناسبات عديدة، لأسباب متنوعة، وفي أماكن مختلفة.

كان دون اوتافيو يُرغم وقافه على الانتظار وهذا بدوره يرغم العامل الزراعي لديه على الانتظار. لاشك في أن الملك كان يُرغم دون اوتافيو على الانتظار والله يفعل الشيء نفسه مع الملك. كانت تلك أول فكرة يكوئها القوي ماتيو عن التسلسل الاجتماعي. فكل واحد ينتظر آخر ويجعل ثالثاً ينتظر. إنما الله وحده لا ينتظر أحداً والعامل الزراعي وحده لا يجد من أحد أدنى منه فيجعله ينتظره. وهكذا تحدّد بالنسبة له المطلقان عند كل من طرفي التسلسل (علماً أنه لم يستخدم هذه التعبيرات):

الله والعامل الزراعي. فأصبح وضع العامل الزراعي، يمثل في نظر ابن العامل الزراعي هذا، تُعسّ العيش المطلق.

إن أناساً آخرين من أمثال ماريو البناء (ذاك الذي رفض المفوض منحه جواز سفر لأنه رفض أن يمزق بطاقته الحزبية) يريد نفس البنيان من أساسه وإقامة مجتمع آخر يرتكز التسلسل الاجتماعي فيه على اعتبارات مختلفة (بل إن الفوضويين الذين ما زالوا كثيراً في الجنوب يريدونه دون طبقات على الإطلاق)، إلا أن مثل هذه المفاهيم تتطلب مطالعة الصحف والكتب، أو مخالطة قراء الصحف والكتب على أقل تقدير، وهو مالا يمكن توفره. بل هي أشياء يستحيل أن تتوفر للشباب ماتيو (لا سيما في المرحلة الفاشية). إلا أنه اتخذ قراره وهو في سن العاشرة بأن يتخلص بأي ثمن من تُعسّ العيش

المطلق، أي من وضع العامل الزراعي. فالانتظار لا بأس به، إذا لم يكن منه بد، على أن يكون قادراً فقط على أن يجعل آخر ينتظره. ولا بأس من أن تُفرض عليه الإرادة، لكن ينبغي أن يكون قادراً بدوره على فرض الإرادة على غيره. وعلى ذلك النحو تمثلت في ذهن الولد صورة الكرامة الإنسانية.

وهكذا فقد رفض بإصرار، رغم العقوبات الزجرية، أن يذهب ولو مرة واحدة للعزق والتعشيب مع النساء أو لمتح الماء من البئر والصعود به، سطلين فسطلين، على طرفي عصا الميزان، لسقاية البساتين غير المروية، مثلما يفعل أبناء العمال الزراعيين، حين ينقسم لهم الحظ فيطلبهم الدوقاف لتشغيلهم. ويرى اليوم أن ضربات والده جعلته صلباً كالسقاية للمعادن. وتمتلى الآن نفسه رضىً حين يفكر بذلك لأنّ أباه كان يضربه ولأنّه لم يرضخ على أثر الضرب. وبهذا أصبح على القساوة التي يتباهى بها الآن. وبدوره قام، لتسبب عينه أيضاً، بضرب ابنه فرانثيسكو، ليس غضباً مثلما كان يفعل أبوه به، إذ يقلل ذلك من أثر العقاب، فيضيف عليه قسوة الكوارث الطبيعية كالعواصف والزلازل والأوبئة، بل بكل برود، فينهال عليه ضرباً بالسوط الجلدي وهو يعدّ السياط أو يرغم فرانثيسكو على عدّها. وكان ينتشي فرحاً لرؤية الولد يصيرُ بأسنانه دون صراخ، ولشعوره بأن الولد بات يكرهه. إلا أنّه أصبح على درجة كافية من السيطرة على نفسه تجعله لا يصرخ غيظاً، بل إنّهُ ليكظم غيظه فلا يبدو له في عينيه من أثر. وعلى هذا النحو يزداد صلابة ويقسى كالفولاذ ويصير رجلاً.

ما إن استندَ عود ماتيو بريغانتني حتّى بدأ يعمل مع الصيادين مساعدَ نوتي. والصياد إنسان بائس أيضاً له العنود من الأسياذ: هنالك صاحب زورق الصيد، ثم تاجر السمك، وهنالك الريح والبحر وهجرة الأسماك. لكن بوسعه أن يتدرّج بالريح أو بالبحر أو بهجرة الأسماك. وبوسعه أن يراهن على المنافسة بين التجار ليرغمهم على الانتظار. إنّها مهنة تتطلب ذكاء وتزیده تمرساً.

فعملية استخدام الريح للتوجّه ضد جريان الريح، ليست مجرد تعريف للملاحة الشراعية، ولكنها تعريف لتلك السلطة التي يمنحها الذكاء للإنسان، بحيث يُخضع القوانين الطبيعية والاجتماعية لخدمة أغراضه، ولإظهار مدى حريته. وإذا كان الصياد في أغلب الأحيان على الدرجة نفسها من الفقر مع العامل الزراعي، إلا أنه ليس مثله في حالة تَعَسُّ العيش المطلق. فالصياد يبيع سمكه، والناس يشترونه منه. فلا تعود العبودية مطلقة بوجود التجارة. وتنعكس الحرية النسبية لكبير الصيادين على البحار وحتى على مساعد الذوتي، وهي ثمن لاشتراكهما معاً في الصراع ضد الطبيعة وضد الإنسان.

حين بلغ ماتيو بريغانتى الخامسة عشرة كان يسبح سباحة جيّدة ويغطس غطساً ممتازاً. فالمدبيات^(١) التي يقتلها الآخرون بواسطة الكلاب، ينزل هو إليها بنفسه، فيغطس فاتح العينين باحثاً عنها بين صخور البحر، ثم يصعد حاملاً إياها بكنتا يديه وعلى ذراعيه. فيحصل على مكافآت صغيرة عينية أو نقدية لكنه كان أكثر تأثراً بالمديح والإطراء. وما لبثت شهرته أن ذاعت على ساحل مناكوري بأكمله حتى لم يعد يعرف إلا بنقب: ماتيو سيد البحر. إن صبيّاً في الخامسة عشرة، يحمل نقب سيد البحر، لا يمكن اليوم أن يبقى ليعمل مساعد نوتي على زورق صياد معلّم. فهو قد يذهب إلى الجزر، ليكون دليلاً للأجانب من هواة الصيد تحت الماء. وقد يصير مدرباً للسباحة أو الغطس. كما سيجد الباب مفتوحاً على مصراعيه للقيام بأشكال المغامرات كلّها، ليس فقط على صعيد السباقات الوطنية والدولية للصيد تحت الماء، بل يمكن أيضاً أن يتقدم أحد الأثرياء الأجانب ليتبنّاه فينقله إلى مجالات جديدة يصعب التكهّن بأبعادها.

إلا أن ماتيو، سيد البحر، لم يغادر بورتو مناكوري، فتلك المناسبات كلّها لما تكن قائمة. وحين بلغ السادسة عشرة قام غلام باعتماد على عفاف إحدى شقيقاته ثم رفض أن يتزوجها. فطعنه ماتيو بالموسى. ورأفت المحكمة

(١) المدبية أو بلح البحر، نوع من الأصناف. (م)

به، مثل حالها عامة تجاه جرائم الشرف، لا سيما أن الغلام، وهو من شيفافوني، بقي على قيد الحياة رغم إصابته بطعنة نجلاء. فخُكم على ماتيو بالنسج لحين بلوغه الثامنة عشرة. وسمح له من بعد بالتطوع في سلاح البحرية الملكية.

أمّا في هذه الساعة فما يزال جالساً تحت القينة في بستان صديقه الوقّاف. لقد خلع سترته المخملية بلونها الأزرق البترولي فطواها بكل عناية ووضعها بالقرب منه. وجال ببصره في اتجاه البحر ودقق النظر في الشمس المنحدرة ناحية الجزر وفي رتل الغيوم، التي ساقها الليبيشيو فردها السيروكو، فأخذت تتراجع القهقري نحو الغرب. وشعر بأنه على أتم الاستعداد. فبات ينتظر انصراف الوقاف والمعشبات كي يقفز من فوق الجدار وينتقل إلى بستان دون سيزار. لقد قرّر أن يغتصب مارييت.

كان قد وصل في الساعة الثانية، واحد من الواليوني، بتكليف من بيبو، حاملاً لمارييت نيطلاً فيه زيت، وشيئاً من الخبز والبندورة. فتوجّهت إلى النبع القريب من المستودع لتجدّد ماء الجرة. فقد أصبح طعامها مؤمناً. ثم نامت حتى الساعة الخامسة.

كانت جالسة فوق الأكياس مستغرقة في إعداد المشاريع، وقد جعد التفكير جبينها. وعبثت، وهي في زخم التفكير، بعيدان من القش وفتنتها فتساقطت متناثرة فوق ركبتيها، ثم أخذت تحركها وتناور بها كحجارة على رقعة شطرنج. وتنقلها كشخصيات وهمية ترمز للعوائق والتسهيلات. ثم خططت لمشروع طويل المدى مستخدمة قطع القش مثلما يستخدم المحاسب العدّادة. ونفنت أشعة الشمس المائلة نحو الغروب من كوة الجدار فغمرتها بنور أشقر.

غادر الوقاف والمعشبات البستان المجاور، متوجّهين إلى مناكوري عبر الدروب الجوفاء بين الأسوار العالية.

وقفز ماتيؤ بريغانتي من فوق الجدار بمهارة، دون أن تعلق سترته المخلية ذات اللون الأزرق البترولي بشيء. وبدا خفيف الحركة رشيقاً، مثلما كان أيام الغطس على الميديات، أو التسلق إلى أعلى الصواري فيما بعد على ظهر السفينة المدرسية. اقترب من كوة المستودع فأبصر بمارييت التي لم تره. وتأخر قليلاً، لا ليضع مخططه بعناية فهو عادي يتكرّر على حاله دائماً في حالات مشابهة، ولا ليتلذذ مسبقاً بمتعته، لأنها متعة آنية مطلقة لا يمكن التمتع بها مسبقاً (إلا في حال روايتها أمام الملأ بحضور شخص ما يعاني منها، مثلما فعل أمام طونيو. فمعاناة الشخص الآخر تسبغ على الفعل الخيالي طابعاً واقعياً) لقد تلكأ برهة قبل أن يدفع الباب ويدخل المستودع، لأنه فكّر، وهو يوشك أن ينقضّ على فريسته، في المفوض أتيوليو، وهو الآخر من الطيور الجارحة وشريكه في الجريمة غالباً، وكيف شاهده قبل ساعات قلائل رازحاً تحت نير جوزيينا. فأجرى مقارنة سريعة بين سلوك المفوض أتيوليو المخزي وسلوكه الذي لا غبار عليه.

إنّ المفوض أتيوليو، فائن النساء الأكبر، الذي أغوى فأحضر إلى شقتيها الصغيرة الخاصة والمشاركة، أكثر نساء الأعيان في مناكوري، قد قبل أخيراً بالهزء والسخرية، أي رضي بالهوان، حين رضخ لإرادة جوزيينا أمام أعين عشيقات الماضي، وأمام عشيقات المستقبل حسبما تحدوه الآمال. ولو كانت لبريغانتي في جوزيينا من رغبة نالها. لكنّ العذارى الحمقاوات لا يجتذبنه فهو يهوى العاقلات ويأخذهن عنوة. ويعتبر نفسه أكثر فحولة من المفوض أتيوليو. وحين يتحدثان معاً عن العشق، في مكتب المفوض كان ذلك أم في شقتيها المشتركة، فإنّ وجهات نظرهما تتعارض غالباً.

ويتظاهر بريغانتي بتصديق مآثر صديقه التقنية فيقول له:

- لكنني لا أفهمك، فأنت تعلمين فنون الحب كلّها، فتجعل منهن ملاطفات مدهانات مغناجات، وعاشقات ممتازات ثم تلفظهن. فتعود منافعك والحال هذه على الأزواج.

فيهدف المفوض قائلاً:

- بل سأفوز بدونا لوكريزيا.

- لن يكون تفكيرك الجديد عنها بالأمر السهل.

فقال المفوض منتشياً:

- إنها مثل الأخريات.

ثم أغرق في الضحك ليضفي على زهوه مظهراً من الاستخفاف وقال:

- ينبغي على الأزواج في مناكوري أن يقيموا لي نصباً، عرفاناً بالجميل.

إنه لا يفهم ميول بريغانتى ولا رغباته. ولا يبرر له قيامه فيما مضى بطعن الذي أغوى شقيقته. فالاعتصاب، والثأر له، يصدران كلاهما حسبما يرى، عن توله صنمي واحد وعبادة أشياء واحدة.

وحين تقع جريمة أخلاقية في القطاع الواقع تحت سلطة المفوض القضائية تسمعه يقول لبريغانتى:

- وهذا غبي آخر مثلك ذاهب إلى السجن بسبب بكاره أخته.

أمّا في فكر بريغانتى، فليس من تناقض بين الاعتصاب والطعن، لأن المسعى واحد. فهو يقوم بالتنفيذ.

عندما خدم في البحرية كان الضباط من طبقة أتيليو (الضباط الكبار والصغار) يرسمون الخطط ويصدرون الأوامر. فيقوم ضباط الصف بالتنفيذ (مستخدمين البحارة قبضة الأداة). والجلاد أيضاً يتولّى التنفيذ. إذن، ليس استخدام التعبير ذاته اعتبارياً.

ويقوم المفوض من جانبه فيوقع بـ «الأظناء» والمشتبه بهم في حبائل أسئلته، بعد أن يستدرجهم نحو شرك أدلته. وهو يُقدّم على إغواء نساء الأعيان وإغرائهن. إنها تخطيطات مدروسة من ضابط محنك.

لكنّ الضابط يبدو أحرق تماماً حين تدفع به الظروف للقيام بالتنفيذ. وبريغانتى على قناعة بأنّ المفوض أتيليو لا ينفذ على سرير الواقع كل المآثر التي يتباهى بها. حتى انتهى به المطاف أخيراً إلى الوقوع تحت سيطرة عذراء حمقاء.

أَمَّا هو، بريغانتي، فيقوم بالاعتصاب والطعن. فيحقق ذاته، ويبرهن بقيامه بالتففيذ على ذاته. ولهذا السبب يعتقد أنه أكثر فحولة من المفوض أنيليو. ويتحول إلى الناحية الجسدية ليتباهى بأنه أكثر فحولة من المفوض. فهذا الأخير له هيكل مصارع روماني بقامته الأفارعة وعضلاته المفتولة. أما ماتيو بريغانتي فقصير مكترز مبحتر. فحاجباه خط أسود، وشارباه نقطة سوداء. وهو عريض المنكبين، ضيق الوركين. إنه خنجر مسئول.

راقته رؤية ماربيت جالسة فوق الأكياس مستغرقة في تخطيط المشاريع، وهي تقل نف عيدان القش فوق ركبتها، ساردة في تفكيرها. إنها عذراء عاقلة.

دخل المستودع وأغلق الباب وراءه دون أن ينطق بكلمة. ولم تلق ماربيت عليه سؤالاً. بل نهضت فاحصة فألصقت ظهرها بالجدار ويداها في جيبها قميصها، قاسية النظرة، مثل نظرة بريغانتي. امتلأت نفس بريغانتي غبطة لنظرتهما تلك.

خلع سترته المخملية الزرقاء البترولية، بكل تروؤ وثقة، فنشرها بعناية على ظهر الكرسي، منتبهاً إلى وضعية حشايا الكتفين... ثم تقدم صوبها بخطى صغيرة، وقال لها:
- استلقي.

فلم توات بحركة ولم تنبس ببنت شفة. ظلت تسدد إليه نظرتهما القاسية إياها، دونما خوف. وأمتعته ذلك.

تقدم أيضاً خطوتين وصفعها بكل قوة، صفعه على كل خد. تلك هي طريقته المعهودة. وليس من طريقة سواها لنيل عذراء معاندة شمس ما لم ينهل عليها بالضرب.

لم تتحرك إلا بمقدار الاهتزاز تحت كل صفعه، ولم تطأطئ الرأس أو تخفض البصر. فكرر قوله:

- استلقي!

تقدّمت مارييت خطوة، فذهل. هل ستستلقي؟ إنه لم يتوقّع منها ذلك.

خطت خطوة ثانية أيضاً فأصبحت ملاصقة له.

قالت:

- موساك!

ولم يتح لبريغانتني الوقت الكافي ليفهم. لقد انتضت الفتاة الموسيقى بيدها من جيب قميصها، وشطبت بنتوء ظهر النصل خده مرتين متواليتين بخطين متصالبين. ثم تراجعت خطوتين إلى الوراء وأسندت ظهرها للجدار.

مرّ بكفه على وجهه وبسطها فإذا بها تقطر دماً. وفي ذات اللحظة سمع طريقة مأدوفة. لقد فتحت مارييت الموسيقى، مطبقة بيدها على قبضتها بكل عزم.

شاهد النصل المشحوذ والمرهف كموسى الحلاقة ورأى النتوء (الذي يبعد بين طرفي القشرة بعد شقها للتطعيم) على ظهر النصل كالمهماز، أحمر مصبوغاً بدمه. فتراجع مسرعاً نحو الباب.

مشت إليه مارييت بخطى وثيدة والموسى ييدها. ومنحته بدق صير خطاها، الوقت الكافي لفتح الباب، مع مواصلة التقدم نحوه، مائلة الجبين، متحفزة للانقضاض، مرفوعة الذراع أفقياً باحتراز كملاكم خبير، والموسى في قبضتها، مصوبة النصل على مستوى العنق.

أدار بريغانتني ظهره وعبر الباب راكضاً. فأرتمت مارييت الباب وراءه بسرعة كبيرة وأدارت المفتاح في القفل. وذهبت لتكن واقفة وراء الكوة. رأتها جانباً على ركبتيه أمام النبع يغسل الدم عن وجهه. ثم نهض فرأت، وبكل وضوح، الخطين المتصالبين اللذين دفرتهما في خده. إتهما خطان واضحا يتقاطعان بزوايا قائمة، وعميقان لدرجة تكفل بقاءهما ما بقي ماتييو بريغانتني على قيد الحياة.

تركت مارييت الكوة وذهبت لتتفحص الباب. إنَّ قطع الإطار الخشبية المحيطة به متأكلة، قد أعمل السوس فيها نخرًا، والمفصلات يكاد يأكلها الصدا. في حين يمكن رؤية السماء عبر الشقوق في ألواح الباب، التي يمكن خلعها من مكانها، بأية رافعة كانت، كواحدة من المذاري المرمية بإهمال فوق أرض البستان. فاستردت موسى من فورها بعد أن وضعتها على الطاولة.

كانت قطرات الدم التي سالت من خد ماثيو بريغانتني على الأرض، ما تزال بلونها الأحمر القاني الجميل، ذلك أنها لمّا تجف فوق أرضية المستودع الترابية المرصودة. ورأت السترة المخملية الزرقاء البترولية ما تزال موضوعة على مسند الكرسي.

لم يطل بها التفكير مطلقاً. بل تصرّفت بسرعة تكاد تسبق التفكير. فأخرجت من تحت كومة الأكياس محفظة جلدية لونها أصهب، نُفِشت عليها حروف مذهبة، وسحبت من جيب سترة بريغانتني الداخلية محفظة جلدية سوداء، فأبدلتها واضعة ذات الحروف المذهبة في جيب السترة والمحفظة السوداء تحت كومة الأكياس. ثم رجعت إلى مكانها قرب الكوة ووقفت تنتظر.

عاد بريغانتني نحو المستودع فتوقّف أمام الكوة. كانت مارييت واقفة متحيرة قليلاً. تفرّس كل منهما في وجه الآخر لبعض الوقت. لقد توقّف النزف من الصليب المحفور على الخد بصورة شبه تامة. كانت هنالك بضع قطرات فقط تتدفق ببطء شديد بين شفاة الجرح كفقاعات صغيرة حمراء.

شتمها بريغانتني قائلاً:

- يا مجرمة، لقد وسمتني طول الحياة.

فالتمع بريق خفيف في عينيها كأذنه الشماتة.

قال:

- سوف أذكّك.

قالت:

- فعلتُها بموساك، بالموسى من علامة الثورين...

فشتمها مجدداً بقوله:

- اللعنة على يهوذا، أنا لم أرَ مثل هذه الشريرة قط.

قالت:

- سأحتفظ بها. ربما أستخدمتها ثانية .

قال:

- دعيني أدخل لأخذ سترتي.

فرفعت نصل الموسى إلى مستوى عينيه وقالت:

- سأحزُّ بها رقبتك إذا ما حاولت الدخول.

قال:

- إنَّك لقادرة على أن تفعلي مثل ذلك.

ورازها بطرف مخفوض مثملاً تفعل هي عادة. فقالت:

- حاول، ترّ.

قال:

- سأتركك وشأنك. دعيني أدخل فقط كي آخذ سترتي.

قالت:

- أرى أنك قادم ثانية.

فقال:

- مم أنت خائفة ؟ فيداي فارغتان. ثم قام بقلب جيوب بنطاله.

- جيوبي كلّها فارغة. حريّ بي أنا أن أخاف منك...

قالت:

- حسناً تفعل.

وراح كل منهما يتفرّس في وجه الآخر بصمت.
قال:

- يجدر بنا، نحن الاثنين، أن نكون صديقين...
- يجدر بك أن تمسح خدك.

ظهرت عدة قطرات كالنفثات فوق شفاه الجرح. وبدأت خيوط دقيقة حمراء تسيل على خده. فمسح مانيو بريغانتني خده بالمنديل الذي غسله عدة مرات في حوض النبع.
قال:

- أصغني لي...
وعانت لصوته نبرته القاسية.
-... لقد وسمتني، وعليك أن تدفعي الثمن. وليس لديك إلا طريقة واحدة لنيل الصفح. دعيني أدخل، وأستلقي..
وضحكت بصمت.

- افتحي الباب.
قالت:

- سأعطيك سترتك.
ومضت فأخذت السترة من على مسند الكرسي ثم اقتربت من الكوة.
كانت تمسك السترة بيد وتقبض باليد الأخرى على الموسيقى المفتوحة.
قالت:

- سأعطيك إياها. لكن حذار. إن تمذد يدك أقطعها.
وناولته السترة عبر الكوة فأخذها دون أن يحاول القبض على ذراعها.
قالت:

- ها قد بدأت تفهم.

وارتدى السترة.

قال:

- لو شئت فقط...

وبدا صوته متهذجاً.

- ... أنا لم أر قط مثل هذه الشريرة.

وازداد الصوت ليونة فصار شبه رقيق.

- ... لو وضعنا يداً بيد... وارتحلنا معاً صوب الشمال. إن فتاة من

معدنك... العالم كله سيكون ملك أيدينا. أنا غني كما تعرفين... هل يتبقى من شيء نعجز عن تحقيقه؟...

وضحكت بصمت. ثم قامت بكل هدوء فأغلقت الكوة بمصراع خشبي
يُدفع من الداخل.

دق بريغانتني بطرقات خفيفة على المصراع الخشبي.

- أنا غني، كما تعلمين. أنا غني، يا مارييت، أنا غني جداً.

ولمّا يأتته من جواب. فانصرف.

* * *

عند الصباح، خرج دون سيزار لصيد نجاج الماء في السبخة. مشى
طويلاً بخطاه الكبيرة الصامته، يتبعه طونيو، حاملاً الجعبة، وهو يتصبّب
عرقاً. وحين يرتفع الطائر من بين القصب، يطلق عليه النار غريزياً، كأنه
يرمي البندقية. فهو يباشر حركة الرمي، فيرسم رأس السبطانة خطأً منحنياً،
ثم يثبت لتنفذ رشقة الخردق، لا بتأثير انفجار البارود داخل العبوة، على
ما يبدو، على قدر ما هو بتأثير الحركة السريعة المقتضبة بدقة وبمنتهى
الأناقة، فتندفع في الهواء وكأنها خاضعة لإرادة دون سيزار نفسه أكثر من
خضوعها لقوانين الحركة. فتصفع الطائر مباشرة، فيواصل الطيران برهة
أيضاً، لكن هبوطاً نحو القصب. فيوالي التصفيق بجناحيه إنما بتخليق متعثر،

كأنما هو أقلّ تأثراً بتلك الصفعة المباشرة من رشقة الخردق، من تأثره، بل من خضوعه لإرادة دون سيزار، المتحوّلة إلى قوة مادية متمثلة في حركة الذراع المفاجئة تلك، رافعة البندقية حين تشبّثت بعنق الطائر، وبالخوافي تحت الجناحين الكبيرين المبسوطين، فأطبقت عليه وأحكمت الخناق شيئاً فشيئاً، فأرغمته على الانحدار ثانية إلى الأرض السبخة.

حين أطلق دون سيزار النار ليقتل نجاخته الرابعة، أحسّ في اللحظة نفسها بذراعه كأنما قد انعقدت. سبق أن أصابه مثل ذلك مرات عدة في بحر السنين الأخيرة. فكان ينسب الأمر إلى طريقته في الرمي الغريزي، السريعة المقتضبة الحاسمة والتي هي في منتهى الأناقة، إذ يمكن أن يكون أسلوبها قد ازداد مبالغاً مع التقدّم في السن، فصار الاقتضاب قسوة وتشنّجت العضلة. كانت الذراع والكف والورك تظل مخدّرة لبضع ساعات أحياناً. فتلفّها إلفيراً بكمادات ساخنة. أمّا العجوز جوليا فهي على قناعة بأن كل ما يُربط ويُعقد لا يكون إلا من إصابة عين. وإنّ فكّه لا يكون إلا برّقيّة. فتحضّر طاسة فيها ماء وزيت.

- أنظر الى العين، يا دون سيزار.

ثم تشرع في تلاوة الرقيّة التي سترغم العين الشريرة على الخروج على شكل عين واحدة أو عدة عيون لتطفو على وجه الطاسة.

لا يؤمن دون سيزار من جهته بالإصابة بالعين ولا بالرقيّة. رغم اقتناعه بأنّ السحر يبقى نسبياً، وفقاً لما يقول في الغالب، أكثر عقلانية من الدين والطب. ولهذا فإنه يحدّق في السائل داخل الطاسة حتى تتشكل العين، إرضاءً لجوليا ولكي يدخل السرور على قلبها، وأيضاً بشيء من التحدي للدين والطب، وشيء من التكريم لذكرى مدينة أوريا القديمة، حيث كانت تمارس فيها هذه الطقوس. ولو لم يكن جاحداً من حيث المبدأ بتلك الخرافات، لخضع لها تمشياً مع تقاليد حاضرة أوريا القديمة، بوصفه واحداً من آخر الأسياد فوق تربتها، أكثر من خضوعه لخرافات الدين وأوهام

السياسة. وتنحلُّ عند المساء أو في اليوم التالي عقدة التشنُّج أو التقلُّص العضلي، في الذراع والكف، ليعود إلى عهده عجوزاً متين البنية، وأعظم الصيادين مهارة ورشاقة.

وصل إلى الدار ذات الأعمدة مع حلول الظهيرة (في نفس الساعة التي بدأ فيها كل من فرانثيسكو بريغانتي ودونا لوكريزيا يردّد كلمات حبه على مسامع الآخر في المغارة عند رأس بورتو مأكوري، قرب الترابوكو). ونزل بعد القيلولة إلى القاعة الكبرى ليستوي على الكنبه النابوليّانية من القرن الثامن عشر، ذات المساند الخشبية المحفورة المذهبة. وقد لفت كمادات على ذراعه ووركه تحت ثوب الراحة الفضفاض الذي لبسه، وهو من الحرير الأزرق السماوي (ظهرت من الجيب الصغير على الصدر زاوية مذيل من الحرير الأبيض)، تحفّ به النساء الثلاث من أهل داره، هنّ العجوز جوليا وماريا زوجة طونيو وإلفيرا، شقيقة ماريا، عشيقته حالياً.

قرع المهندس الزراعي الباب المفتوح ودخل.

حنّت ماريا الخطى باتجاهه لتفادي اقترابه من دون سيزار والتحدث إليه.

قال المهندس:

- أتيت لأرى إن كنتم ما زلتم موافقين بالنسبة لمارييت.

أجابته ماريا:

- نحن دوماً على اتفاق .

واقتربت العجوز جوليا بدورها وسألت:

- من أجل ابنتي؟

كان واقفاً في مواجهة المرأتين، بخفيه المتدورّين الغضّيين لرجل من الشمال، وذلك الانطلاق الخاطيء، وهيئة تتنازعها الثقة بالنفس وعدمها، تميّز المهندسين الزراعيين، الذين يحيطون بمعارف عن العمل الزراعي ومهنة التعامل مع الأرض لا يمكن للأفلاح أن يبلغها، لكنهم يعرفون في الوقت ذاته

أنّ الفلاحين واقفون لهم بالمرصاد. وأنّهم ينتظرون أقل هفوة وأصغر كبوة
للتشكيك بعملهم وإعادة النظر فيه. وهذا ما يجعل كل تصرفاتهم مطبوعة
بطابع التسنّج، بما فيها تلك التي لا تمت إلى عالم التّقنيات الزراعية بصلة.

قال:

- جئت لأرى إن كنا ما نزال على اتفاق.

فقلت جوليا:

- نحن على اتفاق وبالشروط نفسها.

قال:

- حسناً، بوسعها البدء هذا المساء. وسأحمل حوائجها في سيارتي.

فقلت جوليا:

- إنّما اليوم...

فقلت ماريا:

- ذهبت إلى عند خالتها... في فوجيا...

فعقبت جوليا قائلة:

- خالتها في فوجيا مريضة.

فقال المهندس:

- لا بأس، لا بأس، سوف تبدأ غداً. وسأحضر لآخذها في فترة بعد الظهر.

قلت جوليا:

- قد لا تكون رجعت غداً مساءً.

فأضافت ماريا:

- لأنّ خالتها مريضة.

واقتربت إلفيرا بدورها لتقول:

- قَدْ يَكُونُ مِنَ الْمُسْتَحْسِنِ أَنْ لَا تَبْدَأَ مَارِييتَ إِلَّا فِي الْأُسْبُوعِ الْقَادِمِ.

فارتفع صوت دون سيزار، مهيمناً على الأصوات الأخرى كلها صائحاً:

- تعال اجلس هنا.

ولانت النساء بالصدمة. ونظر المهندس الزراعي إلى ماريًا مستفسراً فقالت:

- يريد التحدث إلى حضرتك .

فكرّر دون سيزار طلبه:

- قُلْتُ لَكَ أَنْ تَأْتِيَ فَتَجْلِسَ هُنَا.

فقالت إلفيرا بحيوية:

- دون سيزار راغب في التحدث مع حضرتك.

تقدّم المهندس الزراعي نحو الكنبه. فهو لا يرتاح لطريقة كبار الأسياد في الجذوب وهم يتحدثون إلى الموظفين الشباب بتعالٍ وفوقية، كأنهم من رجالهم أو أهل دورهم.

دله دون سيزار على المقعد الخشبي ليجلس عليه في مواجهة الكنبه.

قال له:

- اجلس.

وجلس اللومباردي، والنساء يتبعنه.

فصاح بهن دون سيزار:

- اتركنا وشأننا، يا حريم.

ابتعدت كل من ماريًا وجوليا حتى نهاية القاعة، عند الموقد. فقال دون

سيزار لإلفيرا:

- وأنت أيضاً.

فمضت إلفيرا لتتضم إلى الاثنتين الأخريين.

قال دون سيزار:

- كم عمرك؟

فأجاب اللبardi:

- ثمانية وعشرون.

- ألم تدرك أنهم نبرن دسيمة لإرغامك على الزواج من مارييت؟

- قيل لي ذلك.

- أنت لا تعرف الجنوب. ولن تقدر أن تتخلص.

- سوف نرى.

- لم لا تتزوج؟

- لست رافضاً الفكرة.

- ألدك المال؟

- لدي مرتبي.

- ليست الحكومة، على كل حال، هي التي مولت القصر الذي بنيته من

أجل عزائك.

- حصلت على إرث صغير. وأنفقت كل ما أملك على التجهيزات.

- هل أنت مقتنع بذلك؟

- إنني أحب مهنتي.

- بوسعك أن تتزوج ابنة أحد أصحاب الأملاك.

- لا أفكر في ذلك.

- لا يصلح أبناء ملاك الأراضي عندنا، إلا للمحامة أو ليصيروا ذواً.

هذه هي حال الجنوب. إن المهندس الزراعي يمكن أن يقدم نفعاً لمالك

الأرض. وأعتقد أن دون اوتافيو يوافق على إعطائك إحدى بناته. فهل ترغب

في أن أتحدث إليه بالأمراً؟

فقال المهندس الزراعي:

- أنا لا أسعى وراء البائنة.

تفرّس فيه دون سيزار: حنق بالجبين المحدث والوجنتين المتورنتين لرجل من الشمال. وتلك الطلعة العنيدة والطفولية لفتى قام بدراسات عليا.

قال دون سيزار:

- كان لدينا مهندسون زراعيون في القرن الخامس قبل الميلاد. وتلال الماعز الواقعة في الجانب الثاني من البحيرة كانت مرويّة آنذاك...

فرد عليه قائلاً:

- لست أرى من علاقة.

فكر دون سيزار في نفسه: «أيها الفلاح الذي يعتقد أنّ علمه فلاحاً يؤهّله لاكتساب حق المواطنة عندنا. لكي تصبح مقبولاً بيننا، نحن أقدم الحضريين في العالم، لا بدّ لك من أن تجيد آداب السلوك». ثم فكّر أيضاً: «لقد غاصت آداب سلوكنا في السبخة، وغارت في الكثيب، مع حضارة أوربا النبيلة في وقت واحد. فلم يبق لنا إلا الخرافات». ولم يشأ الانتفاص من قيمة الشاب فقال:

- أنت على حق.

وسأله المهندس الزراعي بلهجة تهجمية:

- حضرتكم لا توافقون على دخول ماربيت بخدمتي؟

- إنّها تفعل ما تريد.

- إن كان هنالك من معارض، فالأجدر أن تكون أمها، لا حضرتكم.

فسأله دون سيزار:

- وما مدى معلوماتك عن واقع الأمر؟

- إنّ حق التفضيز قد صار باطلاً^(١)

(١) هو حق السيد الإقطاعي في التمتع بالعروس في الليلة الأولى. (م)

وفكر دون سيزار: «يا لك من لومباردي غبيّ جداً».

ثم سأله:

- إذن أنت تفكر في الزواج منها؟

- لا يتعلق هذا الأمر إلا بها وبها وبها وبها إلى حد ما.

- لقد فهمت. فأنت تفضل أن تتألم دون زواج. لكن إن أُلزمتك بأخذها إلى عند الكاهن فسوف ترضخ وتذهب إلى الكاهن.

قال اللومباردي:

- هذا من شأني.

ونهض قائلاً:

- أعتقد أن حديثنا قد انتهى.

فقال دون سيزار:

- أقعد.

واعترض اللومباردي قائلاً:

- لم يبق لدي ما أقول لحضرتكم.

إلا أنه جلس.

فكر دون سيزار كيف أنه حين كانت تأخذه الرغبة في بكارة إحدى فتيات داره كان ينالها دون إثارة أننى اعتراض. وأنه إذا منح مارييت لهذا اللومباردي، فإن أهل بيته سيعتبرونه صاحب حق، إذا ما فرض بأن تمضي بادئ الأمر ليلة معه أو ما يشاء من الليالي. ومن ثم تقوم نساء داره باصطناع بكارة للفتاة من أجل الأجنبي (تماماً مثلما حصل مع القديسة أورسولا بنت أوريا). أمّا وأنه رجل ذقافة فقد ذهب بفكره، في الوقت عينه، إلى كافة التفسيرات التاريخية والاجتماعية والبيولوجية والمتعلقة بالتحليل النفسي، التي يمكن أن تُعطى لذلك التبجيل الذي تحاط البكارة به، والرغبة في اغتصابها في ذات الوقت. وكيف يشكل ذلك عملية استحواذ على الفكر في الجنوب.

وكيف أنه لا يشاطر أبناء الجنوب هذه الخرافات. وكيف أنه لم يخصص نفسه ببكارة كافة الفتيات في داره. كان يأخذ الفتيات أو النساء حسبما يرغب دونما حرص على متعته، أبكاراً كن أم لا. وأن لا فائدة تترجى من إطالة الشرح مع المهندس الزراعي، الوثائق من تفوقه المزدوج، تقنياً ورجلاً من الشمال، حول التشريع الحاسم وغير المكتوب في الجنوب، بلد المشرعين. وأن هذا الموظف الديمقراطي المسيحي سيغتاظ بحدّة، معترضاً على واقع أن تشريع النبلاء من العهد الإقطاعي ما يزال سائداً في الجنوب ومعترفاً به ضمناً وبشكل مطلق. وأنه مهما يكن من أمر رغباته وآرائه في مسألة العذرية، فقد قرّره، دون سيزار، استخدام ذلك الامتياز بشأن مارييت.

عيل صبر اللومباردي وهو جالس في مواجهة عجوز تجول في ذهنه كل تلك الأفكار بصمت.
فسأله:

- ماذا لدى حضرتكم لتقول لي؟

تذكر دون سيزار أنه في صباح هذا اليوم نفسه ، اتخذ وهو في الصيد، وقبل انعقاد ذراعه تحديداً، قراره بأن تكون بكارة مارييت له. فقد تذكر وهو يمشي مترصداً الطيور الثقيلة، أحداث الليل، ومارييت وهي جالسة عند قدميه فوق مقعد خشبي صغير ترصد أمها وشقيقتها من فوق ركبتيه، وتذكر غناء الفتاة وهي تدور حول الدار. وأحسن فجأة بأن قراره قد اتخذ.

فردّ على اللومباردي قائلاً:

- ليس لديّ ما أقول لك.

- حضرتكم طلبتم مني الجلوس.

- مارييت لا تريد الذهاب لتعمل عندك.

- لكن ها هي أمها تقول لي عكس ذلك.

- اسأل الصغيرة.

- أين هي؟

فأجاب دون سيزار:

- ما من أحد يعرف عنها شيئاً.

ومضى اللومباردي بخطي كبيرة مغمماً، نادياً حظته الذي أرغمه على العيش بين فلاحي الجنوب المتخلفين، والملاكين الكبار الأكثر تخلفاً منهم أيضاً.

وصاح دون سيزار:

- إلفيرا.

فاقتربت إلفيرا.

- بذلي كماداتي.

أسرعت إلفيرا إلى الموقد حيث يسخن الماء على ركابة فوق النّـفـم.

اقتربت جوليا وماريا من الكنبه. وعاد طونيو ليُشرف على عمل النساء وحسن تأديتهن للواجب. وظهر أولاد طونيو وماريا فأقبلوا يشكّلون حلقة. وشعر دون سيزار بأن عضلات فخذيه قد بدأت تتقلّص أيضاً، فلم يقل لأحد شيئاً. وجرى تبديل الكمادات.

قال دون سيزار:

- يا إلفيرا، سوف تتأمين بدءاً من هذا المساء في غرفة جوليا.

كان زوال النعمة في الدار يجري دائماً على هذا النحو. وامتنع لـون إلفيرا. كان لابدّ لذلك الأمر من أن يحدث. وهي تعرف هذا على الدوام. لقد انحدرت إلى مستوى الخادّـمـات مثل أمها، العجوز جوليا.

قالت جوليا معترضة:

- لم يعد في غرفتي من مكان.

- إلفيرا تتأم في سرير مارييت.

- مارييت ستعود.

فقال دون سيزار:

- مارييت لم ترحل البتة. إنها مختفية فقط لأنكم تخيفونها. وحين ترونها قولوا لها أن تأتي لثرائي.

ونهض من مجلسه فوق الكنبه النابوليتانية معتمداً على مسنديها من الخشب المحفور والمذهب. فبنت عضلات فخذيه وقد تقلصت بدورها.

قال:

- عكازي.

هرع طونيو لإحضار العكاز ذات القبضة النهمية. وانتظر دون سيزار معتمداً على مسند الكنبه، محدقاً في وجوه النساء بنظرة أفقنتهن الجراءة على الكلام.

قال:

- أنا ماضٍ لأعمل. لا أتحمل أي إزعاج.

وبلغ الباب القائم في صدر القاعة، متوكئاً على عكازه. وسمعوا مطوئاً وقع خطاه وطرق العكاز على أرض الممر وفوق الدرج، ثم في قاعات العاديات.

* * *

توجّه ماتيو بريغانتني نزولاً نحو بورتو مناكوري، عبر الدروب الجوفاء، بين الأسوار العالية المحيطة ببساتين البرتقال والليمون.

كان موسوماً. وأخذ يفكر في كونه موسوماً، واقعةً جديدةً ومستبعدة الحدوث سابقاً، إلى حد أنه لم يواجه قط مثل هذه الإمكانية، وهي خارقة على قدر ما تتعلّق به. حتى أنه كان بعيداً كل البعد عن قياس نتائجها كلّها، حين وقع له ذلك قبل قليل، على يد مارييت، وبموساه الخاصة ذات علامة الثورين. فهذا الصليب ثابت ومحفور فوق خده، ولن يمحي.

قلائل جداً هم الرجال الذين سيجرؤون على طرح أسئلة عليه، ناهيك بمجرد التلميح الذي يكشف أنهم قد رأوا الوسم. لكن هنالك الذين سوف

يجرؤون. كيف سيكون حياله، على سبيل المثال، سلوك شركاء الأمس في لعبة «القانون»؟

لن تطاوع الجرة طونيو ولا الأميركي، أمّا الأسترالي فسوف يسأل بكل تأكيد، دونما رغبة في إهانته طبعاً. وستظهر في لهجته رنة اعتبار، إلا أنه سيسأل. وبيزاشيو أيضاً سيسأل، على طريقته الخاصة، عارضاً مساعدته: «إن كانت تعترضك مضايقات، فأنا لها»، «وإذا كان لا بدّ من الضرب، فأفضل ألا تقوم أنت بذلك، سأضرب أنا بدلاً عنك»، وسوف يبتهج سراً بكل مكر. سيردّ بريغانتى على سؤال الأسترالي بقوله: «إنّ الرجل الذي فعل بي ذلك قد مات».

كلا، إنّها إجابة سيئة ولن تخدع أحداً. بلى، إنّها إجابة حسنة وسوف تقضي على الرغبة في طرح أسئلة أخرى. أمّا بخصوص بيزاشيو فحسبه أن ينظر في وجهه حتى يشلّ لسانه. لكن ما العمل إذا رآه دون روجيرو وقال له ضاحكاً:

- لقد أصبت بخدوش إذن، أيها الديك؟

فيمّ يجيبه؟ ستملكه الرغبة في قتله. لكنّ رجلاً يملك ثروة طائلة، مثل ماتيو بريغانتى، لا يقتل هكذا لأتفه الأسباب، ولو ردّ على دون روجيرو بأنّ الرجل الذي فعل ذلك قد مات، كما ينبغي أن يكون، فإن دون روجيرو سيضحك بوقاحة أكبر قائلاً:

- إنّ ذلك سينكشف.

«إنّ الرجل الذي فعل ذلك، إنّ الرجل الذي وسم ماتيو بريغانتى...»

لكنّها في واقع الأمر بُنيّة غير راضدة ولا بدّ لها من أن تتباهى بفعلتها. وتسمّر في مكانه جامداً أمام هذه الفكرة التي لم تخطر منه على بال حتى الآن، وفي تلك الصورة. لقد وسم بيد عذراء صغيرة ستمضي لتفاخر المدينة كلّها بمأثرتها. لا مناص له من العودة إلى البستان والطلب إلى مارييت

كتمان السر، والتأكيد عليها، تحت طائلة التهديد بالقتل، ألا ترهو بأنها وسمته، بل الدوسل إليها واستدرار عطفها وتقديم المال لها وتنفيذ كافة متطلباتها. لكنه رأى بعين الخيال جواب مارييت في ضحكة صغيرة وبريق تهكم في العينين. إنها مثله، فلا يسعها أن ترضخ.

سوف تعرف المدينة كلها على هذا الأساس، ومعها المقاطعة كلها، أنه قد وسم من قبل عذراء. ومهما يكن غنياً، وحتى لو قرّر أن يقتل ليسترده اعتباره، يظل التساؤل قائماً: بمن سينفذ حكمه؟ لا يسعه أن يقتل بنية صغيرة ولا واحداً من الواليوني، فحجم الضحية والحالة هذه، لا يتناسب أبداً مع كرامة ماتيو بريغانتني.

لم يبقَ أمامه سوى الرحيل. عليه أن يغادر مناكوري للتو. ولنسوف يسهر بالمراسلة على قيام ابنه بحماية ثروة العائلة. وسوف يُعامل، أينما ذهب بفضل ما يملك من مال، بوصفه أحد أبناء الطبقات العليا. لكن لا، فهو موسوم. إن الصليب المحفور على خده، والذي لن يمحي، ليس ندبة من أي نوع كان، ولا هو ندبة مشرقة خلفها النزال في مبارزة، مثل النوع الذي يظهر على بعض السواح الألمان الذين يقصدون موانئ الجنوب بحثاً عن الغلمان، وإنما هي وصمة خزي وعار، تشبه الأذن المشقوقة للغشاشين في بلد لم يعد يتذكر اسمه.

واصل السير متفكراً في المشكلة من كافة وجوهها. إنه ماتيو بريغانتني، إنه الرجل الذي كزّ دوماً على أسنانه. ويوم دخل السجن، تلقى ضربات الحراس دون أن يطرف له جفن. ولم يردّ على استفزازات السجناء الآخرين. وطول فترة إقامته في السجن، وضع عزة نفسه على الهامش، لأنه قرّر أن يطلق سراخه مع انتهاء مدة محكوميته. انخرط في سلاح البحرية ليخرج من السجن قبل انتهاء المدة. ومن جديد وجد نفسه مرغماً على وضع عزة نفسه على الهامش حتى صار عريقاً بحرياً، حينئذ فقط تعارك بالسيف، وبحجة واهية، مع عريف بحري آخر كان قد أهانه وهو ما يزال بحاراً.

كانت الذريعة الظاهرية للعراك تتماشى وقانون الشرف العسكري، مع أنها مزرية في نظره، إلا أنه اختار ذريعة من هذا النوع كي يغضّ الضباط النظر عنه تسامحاً، متساهلين حيال ضابط الصف هذا، والذي يحاول الارتقاء إلى مصافهم. صحيح أنها محاولة يائسة إلا أنها تُبذل بمجهود مستلطف، يستدرّ العطف. فبأنّ الجهد يخاطر بتعريض نفسه للقتل على يد زميله، أو بقتل زميله، في سبيل الظهور أهلاً لاعتناق مفهومهم عن الشرف. إلا أنّ السبب الحقيقي (والضباط يجهلونّه) يتعلّق بمفهوم الشرف الماكوري.

فالعريف البحري أفرط في استخدام السلطة التي تمنحه إياها رتبته، بفرض سلطته على بحار عادي، حين قام قبل عامين بامتهان كرامة بريغانتي بوصفه ابناً وعاشقاً، فشقّ أمه وشتم عشيقته (التي صارت زوجة له فيما بعد حين حملت بفرانثيسكو)، وذلك على مرأى ومسمع من كافة أفراد الطاقم المصطفين على ظهر السفينة. ولقد وُسم الرجل مدى الحياة بشروخ عريضة في وجهه وصدره، فأودع بريغانتي المعتقل دون أن يفقد رتبته، أي مثملاً توقع تماماً.

أمّا الآن فهو الموسوم، ويبدد عذراء. تلك هي الفكرة المميّزة التي تحترق قلبه طوال فترة نزوله نحو بورنو ماكوري.

قال في نفسه، بعد أن تذكّر واقعة مبارزته بالسيف: «أمّا الآن فليس ثمة من تكافؤ بين إهانة جاءت من عذراء وبين كرامة رجل مثلي». وهو سيعرف، بالإضافة إلى ذلك، كيف سيرغم من يضع عدم التكافؤ الكبير هذا موضع شك، على الرجوع في كلامه، بل إنّ الفارق بين المّهان والإهانة كبير إلى حد إبطال الفعل وجعله لاغياً. ليس عليه إذن إخفاء مصيبته، بل القيام خلافاً لذلك، بإظهارها والإعلان عنها بكل صلف وتبجح، لتصير تافهة دون أدنى قيمة.

فقرّر دخول حيّز التجربة على الفور. وبدلاً من اللجوء إلى بيته، توجه إلى منهل نادي الرياضة، مثملاً كان مقرراً في البداية.

توقف عند منتصف الممشى الأوسط وأخرج مذيذه الملطخ، ومسح بهدوء
قطرات الدم التي انتفخت فوق شفاء الجرح المزدوج. ودار في الوقت نفسه بحثاً
عن أنظار الزبائن. فكانوا يشيخون بنظرهم عنه حين تستقرّ عليهم عيناه.

اقرب من المذهل وطلب كأس كونياك فرنسي. وترقب عيني الخادم
جوستو ثم لمس بإصبعه طرف الجرح ليثير لديه تساؤلاً. ورفع جوستو
حاجبيه مستفسراً.

فقال بريغانتني:

- إنها عذراء. لقد وسمتني وأنا أغتصبها.

قال ذلك بصوت عالٍ حتى يسمعه الجميع.

فقال جوستو:

- دمّ بدم. ليست إهانة يا سيد بريغانتني.

فكرّر ماتييو بريغانتني قائلاً:

- دمّ بدم .

ثم استدّار نحو القاعة وأجال نظره على رواده.

بعدها أضاف:

- دمّ بدم. ذلكم هو شعاري.

فسأله جوستو:

- هل يسعنا أن نعرف من هي تلك البكر؟

أجاب بريغانتني:

- كلا. فأنا رجل شهيم.

وضحك ثم أضاف:

- لكن من المحتمل أن تتباهى هي بذلك.

ومدّ يده فأخرج محفظته ليدفع.

لكن تلك لم تكن المحفظة الجلدية السوداء الشهيرة، المعروفة لدى جوستو وكافة رواد ملهى الرياضة، والتي ما من أحد من مناكوري إلا وقد أودع فيها نصيبه، من ضريبة أو غرامة. فالمحفظة من جلد بلون أصهب نُقِشت عليها حروف ذهبية.

وعلى الرغم من رباطة جأشه المعهودة، التي تدرّب عليها طويلاً، بدءاً من السنين التي كان يكرّز فيها على أسنانه، وانتهاءً بمرحلة الابتزاز الحالية، فقد قلب المحفظة الغريبة بين يديه طويلاً وهو يتفحصها، ثم فتحها. كانت إحدى جيوبها فارغة، ووقع في جيب آخر على أوراق لم يعرف كنهها، ولاحظ أنّ جوستو قد حول نظره عنه، لكنّه كان يراقبه في المرأة، فأعاد المحفظة بهدوء إلى جيب سترته المخملية بلونها الأزرق البترولي. وقال للخادم:

- سجّل هذا على حسابي.

فأجاب جوستو:

- عفوك، يا مسيو بريغانتي.

* * *

جلست مارييت قرب حوض النبع تنتظر قدوم بيبو.

وقبيل غروب الشمس فيما وراء الجزر، ظهر فجأة من بين الأبنية الترابية حيث تجري المياه الصافية.

قالت بكل اتزان:

- لقد وسمتُ ماتيُو بريغانتي.

وروت له الواقعة كلها باستثناء تبديل المحفظتين. فأصغى إليها وعيناه تحت ضفائره السوداء المنسدلة على جبينه تتوقدان شرراً. ثم قال:

- هذا حسن. هذا حسن...

ونحلا إلى المستودع لتربيته ميدان المعركة. ودلّته على قطرات الدم التي حال لونها إلى البني، ثم صارت بلون الصدا.

طُرِحَتْ أَسْئَلَةٌ عَدِيدَةٌ عَلَى بَسَاطِ الْبَحْثِ فَنَاقَشْنَاهَا مَعًا.

منها مثلاً: كيف اكتشف بريغانتي مخبأً ماربيت؟ كان بيبو يرفض بإصرار أن يكون ذلك بوشاية من أحد الواليوني المكلفين بصيانة الأبنية الترابية. فسبق لماربيت أن تنازعت مع أمها جونيا ومع شقيقتيها ماريا وإليورا مراراً وتكراراً وغادرت البيت على إثر ذلك لتلجأ إلى مستودع بستان دون سيزار هذا، إلا أنها كانت تلجأ إلى مستودعات بساتين دون سيزار الأخرى، وأحياناً إلى الأكواخ الحجرية القائمة فوق تلال الماعز التابعة له، وأحياناً أخرى إلى الأكواخ الخشبية في بساتين الزيتون أو إلى بيوتات القش في السبخة. ومرة أمضت الليل في برج شارل كان فوق رأس البرزخ، وهو ضمن حزام الأبراج التي أقامها الإمبراطور على شواطئ الجنوب، ليصير فيما بعد مستودعاً للأعلاف. وإذا كانت قد توجّهت إلى هذا البستان عينه فإنما فعلت ذلك لأنها كانت متفقة عليه مسبقاً مع بيبو، الذي كان واقفاً من الواليوني المكلفين بأعمال الصيانة. أيمن أن يكون الغلام المكلف بجمع الحليب قد وشى؟ هذا مستحيل لأنه لا يعرف دلالة الرمز المرسوم على الحجر الكيلو متري (دائرة وفي داخلها صليب). فقد كان من المذقق عليه مسبقاً أن تحيط ماربيت بواسطته بيبو علماً، إذا ما نشأ نزاع جديد بينها وبين أمها وشقيقتيها، أو أي حادث طارئ آخر يمكن أن يؤثر على سير الخطط التي قاما بوضعها معاً، ويدفع بها إلى الهرب من الدار ذات الأعمدة.

كانا يناقشان تلك المسائل كلها بجدٍ وحرارة، وفورة فرحٍ ضمني تنعكس على كل ما يقولان، لأنهما حقاً النصر على ماتييو بريغانتي.

قال بيبو:

- من الممكن أن يعود. لا ينبغي أن تبقي هنا.
- لا أخشى شيئاً والموسى معي.
- حتى ولو كانت الموسى معك، إنه ماهر، وسيجد الوسيلة لانتزاع سلاحك.

فقلت مارييت:

- ابقِ معي.

لم تكن الفكرة قد خطرت بباليه.

قال:

- بكل تأكيد.

ولزما الصمت. جلسا فوق الأكياس، يداً بيد، مثلما كانا عند الصباح جالسين يداً بيد، على حافة حوض النبع، وبيبو يروي المآثر الليلية التي قام بها الواليدوني. أمّا الآن فإنهما جالسان بصمت، وكل منهما يفكر في هذه الليلة التي سيمضيانها بطولها معاً، جنباً إلى جنب. لم تكن قد فكرت مسبقاً في أن تطلب إليه البقاء. لقد تفوّهت بذلك في سياق المناقشة.

وما هما لأول مرة يترددان في جعل نظراتهما تتلاقى.

سبق لهما أن التقيا مراراً في النهار وفي الليل، في السبخة وفوق التلال وعلى الكثبان وفي البساتين وحتى في غابة الظل نفسها. كانت تلك اللقاءات لتنظيم عمليات السلب والذهب. كان دوماً يستشيرها ويطلب إليها النصيح، قبل الانطلاق في أي مشروع مع الواليدوني. وعلى الرغم من أن بعض المشاريع كان أحياناً على جانب عظيم من الأهمية، مثل سرقة فيسبا الدركي، أو السرقة الأخرى التي تفوقها أهمية، والتي كان من نتائجها (لما يدر بيبو بذلك) تبديل محفظة ماتيو بريغانتني بمحفظة من الجلد الأصهب. إلا أن اللهجة التي كانا يتحدثان بها كانت دوماً لهجة الطفولة.

لقد صرّح كل منهما بحبه للآخر. ولن يفترقا مطلقاً، فهذا الأمر مسلّم به. ولنسوف يتزوجان، وهذه نتيجة طبيعية. وقبل فترة قصيرة قررا الهروب معاً من مناكوري، وجاعت المصادفة مع شيء من سعة الحيلة لتهيء لهما الوسيلة. فهما ليسا على عجلة من أمرهما. إلا أنه لم يسبق لهما أن تبادلوا الملاحظات ولا حتى القبل فماً فم. ولم يجدا نفسيهما يكبحان الرغبة في ذلك،

إذ ليسا من المتشددتين المتزمتين. ولو أنهما وجدا في نفسيهما الشوق لتبادل القبل على الفم وتاقا إلى ملاطفات العشق والوصل، لفعلا ذلك دونما تردد ولا حيرة، نظرا لأنهما زعيما عصابة الوالايوني ومعتادان على خرق القوانين كلها. إلا أنهما لم يجدا نفسيهما راغبين في ذلك حتى الآن.

ولم يكن يببو جاهلاً بحركات الحب التي مارسها بصحبة الفتيان الآخرين مع الماعز أو وحده أو لمرات متعددة مع فتيات دار بورفو البائيزي بعد الاحتياال على شرط السن. وعرف شيئاً من المتعة في أغلب الأحيان، زيادة أو نقصاناً تبعاً للظروف، لكن النقصان كان أكبر. فالفتيات دوماً على عجلة من أمرهن، إلا مرة واحدة توفر فيها لديه المال اللازم لنصف ساعة، فعلمته الفتاة أثناءها الكثير من طرائق الحب وفنونه. إلا أنه لم يُقَمَّ حتى الآن أيّ رابط بين ملذات ذلك الحب وبين حبه لمارييت. كان يستمتع بصحبتهما ويجعلها المؤتمنة على أسرارها، وغالباً ما تكون الموجّهة لمنجزاته ومآثره، ومن المتفق عليه أن تصير زوجته. سوف يستمر التواطؤ بينهما إذن بلا نهاية. إلا أنه لم يكن يطابق بين فكرة أن تصير زوجته وبين الفكرة الأخرى بأن تكون هي نفسها شريكة ملذاته في الحب. كان يعلم أنها ستصير إلى ذلك. دون أن يطيل التوقف عند تلك الفكرة. لا بل كان يتحاشى التفكير فيها.

كان ضرورياً، بوصفه زعيم الوالايوني وفي حالة صراع دائم مع كافة البالغين في مناكوري، أن يراقبهم بعمق وعن كثب. فالأغنياء يستولدون نساءهم أولاداً، لكنهم يتوجّهون من أجل ملذات الحب إلى الدور في فوجيا، أو إلى عشيقه متخصصة في أساليب المتعة، مثلما ستصبح جوزينا بالنسبة للمفوض أو لأحد ما غيره. وليس إلا الفقراء يقتصرون في ممارسات الحب على نسائهم، لعجزهم عن الإنفاق على غيرهن. وعلى الرغم من أنه لم يفكر البتة في تطبيق مثل ذلك على نفسه، فإنّ عالم الرفاهية تمثّل لديه حتى الآن في استبعاد مارييت، شريكته الحالية، وزوجته المقبلة، عن حركات العشق وأساليب المتعة.

أما مارييت، الفتاة البالغة منذ أربعة أعوام، والحسنة ذات النهدين المتكورين تحت قميصها الرقيق، فكانت مرغمة دائماً على حماية نفسها من احتكاك الرجال بها وملامساتهم لها، ورغبتهم غير الخفية في نيل عذريتها، حتى تحولت لديهم إلى شكل من الاستحواذ. وفاجأت أكثر من مرة، دون سيزار نفسه متوجهاً نحوها بنظرة ثقيلة، غير وقحة ولا ملتبسة، لكنها أحست بكل عبثها، ولم تغفل في نفسها الثورة لفكرة وجوب منحه عذريتها إذا ما رغب فيها، لا سيما أن هذا هو قانون الجنوب، الذي اعتادت أن تجده طبيعياً. وإذا ما تفكرت في الأمر - وهذا ما يحصل نادراً - فليس بوصفه انحطاطاً مخزياً ومرعباً، وإنما واحدة من تلك المنغصات الصغيرة التي لا تحصي، والتي لا يمكن دوماً تفاديها، ولا بدّ بعد تجاوزها من الاهتمام بشؤون الحياة الأخرى.

ها هما هذا المساء يفترشان الأكياس في مستودع بستان البرتقال والليمون جنباً إلى جنب. أمامهما ليلة كاملة يمضيانها معاً. تُفعم قلوبهما فرحة غامرة بالمعركة الظافرة ضد ماتيو بريغانتني، فباشرا بالعناق.

ما إن شرعا يتعانقان حتى صار قانون الجنوب وعادات الجنوب وكل ما فكرا به مسبقاً، بشيء من الوضوح أو الغموض، عن الحب وتبعات الحب، نسياً منسياً. أما وليس الدين بالنسبة لهما أكثر من عالم خرافة من خرافات كثيرة غيره، فلم يخطر ببالهما أنهما يرتكبان الخطيئة. والأخلاق التي لا تقوم على أساس نظري تتهاوى دفعة واحدة. فكانا على شبه تام وكامل بقدماء الرعاة فوق التلال المجاورة أيام حاضرة أوريا المزدهرة.

لم يبق إلا أن امتزجت أنفاسهما وتلاصقت كل أجزاء جسديهما واهتصر كل واحد رفيقه ليذوب فيه نارا تلتهب بحثاً عما يهدئ من تأججها. ففقت مارييت عذريتها دون أن تشعر بذلك، مثلما يحصل في أغلب الأحيان للفتيات المنصرفات إلى التمارين الرياضية العنيفة.

ولم يستولِ عليهما أي أسف أو تبكيت للضمير. فهذا الإحساس غريب تماماً عليهما. ومزّت الساعات من الغسق حتى الفجر في وصال دائم.

ولا يعوزهما سوى تجديد اللقاء في عالم بهجة متعظمة. فلم ينطقا بكلمة واحدة بل اقتصر حديثهما على همسات الحب وتأوهات وتنهائات. وما إن يركن الواحد منهما إلى الهدوء هنيئة حتى يجتذبه رفيقه. وعند الفجر استسدا للذوم فوق الأكياس، الساق ملتفة بالساق، والأيدي متشابكة والقلبان يخفقان بإيقاع واحد متناغم.

افترقت دونا لوكريزيا وفرانشيسكو بريغانتني فوق الشاطئ الصغير المغطى بالرمل الأبيض قرب الترابوكو. فشرع هو يمشي صعوداً وهبوطاً في غابة الصنوبر متوجّهاً نحو السياج الذي أخفى وراءه فيسبا دون روجيرو. فيما سلكت من ناحيتها درب القمة الصخرية، فتقدمت طويلة مشوقة في ثوبها المحتشم ذي الياقة العالية والأكمام الطويلة، ومشّت ببطء وبخطواتها الكبيرة المطمئنة، هانئة تحت لهيب شمس الأسد التي لم تبدأ بعد طريقها المنحدر إلى المغيب وراء الجزر.

لم تبدّ منها الثقافة واحدة صوب خليج مناكوري المحصور بين الجبل الشامق، تكلل هامته غابة الظل، ورنل الغيوم التي ساقها الليبتشييو، والتي أضحت بعيدة الآن حين أرجعها السيروكو. فهذه الأماكن لم تعد تستهويها على نحو ما كان منها قبل عشر سنين، فقد أحببتها مذ أن حضرت إليها بصحبة زوجها الشاب القاضي أليساندرو. إلا أنها لم تكن تكرهها مثلاً آلت إليه الحال فيما بعد. فقرار الرحيل اتخذ، والشروط المادية، حسب اعتقادها، تحققت، فباتت تشعر بأنها غريبة عن تلك الأرض. مثلها في ذلك مثل أية امرأة من تورينو جاءت لتمضي إجازتها الصيفية، وسوف ترتحل عنها عما قريب، لا بل إنها ارتحلت. لأنها تعرف أن حبيبها هنالك بحاجة إليها.

وصلت وهي على هذا النحو، لا يشغل فكرها إلا المستقبل، إلى رواق المنتجع الصيفي الفارع. فعثرت بسرعة على المدير الذي اعتقد أنها تأخرت

في قرية الخيام لانشغالها مع المرشدات والأطفال. عرض عليها أن يوصلها بسيارته إلى بيتها فقبلت راضية. واغتبطت وهي تلمس أن حيلتها قد انطلت على الجميع رغم طابعها الصبياني. فرأت في ذلك فألاً حسناً.

قالت لزوجها القاضي أليساندرو: «لقد تغديت بصحبة المرشدات». ودخلت غرفتها على الفور وأغلقت الباب. استلقت على السرير، مستقيمة الرأس مفتوحة العينين. واستغرقت في تفكير طويل حول كيفية تنظيم حياة فرانثيسكو في تورينو حتى يكون سعيداً.

في الساعة الخامسة - حين استأذف السجناء غناءهم، وبدأ الغناء يصعد مباشرة من كوى السجن إلى نافذتها نصف المفتوحة - كتبت لفرانثيسكو. فأعطته عنوان صديق لها ولعائلتها تذكّره للتو، مرفقاً بكلمة توصية. كان هذا فيما مضى موظفاً في مفوضية شرطة فوجيا، ويشغل حالياً منصباً إدارياً في تورينو، وبوسعه أن يؤدي خدمة له إذا لزم الأمر. ونصحته بأن يستفيد من سفره ليحجز الغرفة أو بالأحرى الشقة الصغيرة المفروشة التي سيقطنانها في تشرين الأول. أوصته بارتداء قميص أبيض وربطة عنق غامقة اللون قبل الدخول على مديره المقبل. ولم تشر إلى حبهما إلا إشارة عابرة إذ بات عندها أمراً مسلماً به. وختمت الرسالة بقولها: «شكراً لأنك كنت غايّة في الشّهامّة»، متفكّرة في كل الدّعاءات التي كان بوسعه أن يطلبها منها في المغارة، والتي ما كان بوسعها أن ترفضها له. وضعت داخل الغلاف، حسب الاتفاق بينهما، ثلاثين ألف لير ذفقات سفر. ثم مضت لتبحث عن جوزيينا كي تتولى إيصال الرسالة.

توجّه ماتيؤ بريغانتني من نادي الرياضة إلى عند صديقه الصيدلي لتضميد جرحه. لم يُلقَ هذا عليه أي سؤال. وبعد الانتهاء من وضع ضماد مستطيل الشكل فوق الخد وتثبيتته بشريط لاصق من طرف الأنف إلى أعلى الوجنة قال له:

- من المحتمل ألا تكون مُلماً بما حققت الجراحة مؤخراً من تقدم...
هنالك الغرزات والمعالجات الكهربائية... والمسألة أولاً وأخيراً مسألة مال...
ولسوف أرافقك إلى نابولي لتعود من هناك ببشرةٍ شابةٍ فتية .

فسأله بريغانتي:

- ومتى؟

- ينبغي انتظار حدوث الاندمال الأول.

لام بريغانتي نفسه لأنه لم يفكر، فور تعرّضه للإصابة، بمعجزات
الجراحة التجميلية. لقد جزع وهو في طريقه إلى بورتو مأكوري، وجرحه
الشائن المحفور بيد مارييت على خده ما يزال نازفاً. فكَرَّ تفكير طفل، بجهل
وغباء، بل أوشك أن يعود ليستجدي من الفتاة صمتها. وأبدى تعجبه لفقدانه
رباطة جأشه بهذه السهولة، فذلك ليس من شيمته.

عاد سريعاً إلى بيته، وقلبه عامر بارتياح مزدوج. فالوسم على خده هو
دمٌ بدم على حد تعبير خادم المنهل. والذنب ستزول كما وعده الصيدلي. بقي
عليه أن يحلّ المشكلة المطروحة عليه من جراء تبديل المحفظتين.

سأله زوجته:

- هل جُرحت؟

فأجاب:

- إنه مجرد خدش بسيط. دعيني. لديّ عمل .

أغلق على نفسه باب قاعة الطعام ووضع أمامه ذلك اللغز من الجلد
الأصهب وقد نُقِشت عليه حروف ذهبية. إنّ الشكل مطابق تماماً للوصف
الذي قدّمه السويسري بعد سرقة الخمس مئة ألف لير. وقلّب المحفظة على
جانبيها بكل حذر.

ثم فتحها وتخلص كل محتوياتها بمنتهى الدقة. كانت جيوبها فارغة إلا واحدة تحتوي على إيصالات تأمين وورقة جمركية باسم السويسري، وصورة لامرأة مع أولاد على الثلج، وورقتين من فئة عشرة فرنكات. وشرع يفكر وتلك الأشياء موضوعه أمامه.

لا يمكن إلا أن تكون مارييت قد قامت بالمبادلة.

مارييت إذن على صلة بالسارقين، والأرجح أنهم الواليوني.

يُحتمل أن تكون هي نفسها السارقة. إلا أنه لأمر مذهل أن يكونوا هم (أو تكون هي) قد انخرطوا في عملية بمثل تلك الضخامة. لقد خبأت المال. إنها لما تنفق منه شيئاً. ويتوافق هذا والنضج الفكري الذي يظن أنها تتمتع به والمستحوذ على إعجابه.

لكن ما المقصد من قيامها بعملية المبادلة هذه؟ أتكون قد خططت لتتأثر منه عن طريق اتهامه بالسرقة؟ لكنها لا تملك الدليل على أنه لن يتخلص من المحفظة، قبل أن تجد الوقت الكافي لتوجيه الاتهام إليه.

ثم انساق وراء الإغراء بتفسير عمل الفتاة على أنه غمزة، ونداء ضمني من جانبها طلباً للمساعدة. وهو يعني ما يلي: «أنا سرقت السويسري. المال مخبأ. سرت بالعملية حتى الآن على أكمل وجه. لكنني صرت بعدها بحاجة ماسة لمساعدة رجل ناضج وخبير.» لكنه عاد فاستبعد هذا التعليل الذي أملاه عليه ميله الشديد إلى مارييت، ورغبته فيها التي ازدادت حدة بعد أن دافعت عن نفسها بكل تلك الأذية الشرسة. فالأذية حسبما يعتقد، هي الينبوع الذي نهل منه قوته الخاصة، لذا فإنها توحى له دوماً بالاحترام، صادرة عنه كانت أم عن الآخرين.

أما وقد أضيف الاحترام إلى الرغبة، فقد باتت على حافة الوقوع في الهوى، دون أن يكون قد عرف حقيقة هذا الأمر. فهو الآن يحاذر من هذا الميل المتطرف الذي يشعر به نحو مارييت. لقد ألف عادة الوقوف في وجه

ميوله، وهو دوماً يركز على أسنانه. وكان أن دفع مسألة إيضاح قصد مارييت إلى أجل لاحق. وحصر اهتمامه الآن في مسألة واحدة ألا وهي حيازتها، المباشرة أو غير المباشرة، على النصف مليون لير المسروقة من السويسري، وهذه المسألة تقع ضمن اختصاصه مراقباً، ولا بد له من العثور على وسيلة تؤمن له تحصيل ضريبته.

لم يخش اعتباره متورطاً بحيازة المحفظة، حتى وإن حاولت مارييت أن تلقي عليه تبعة عملية السطو التي قامت بها بنفسها، أو قام بها أحد غيرها بالتواطؤ معها. بل لم يعتقد أن تلجأ إلى اتهامه. وجد صعوبة في تخيلها واثية، لا سيما أنه لم يرَ من فائدة يمكن أن تجنيها من وراء ذلك. كما لم يعتقد أنها لا تزال حاقدة عليه بسبب اعدائه، الذي جاءت نتيجته مرضية لغورها، فمكنت من الانقمام وزادت الطين بلةً فوسمته. أمّا جوستو، خادم نادي الرياضة، فمن المؤكد أن يقدم تقريراً للمفوض أتيديو الذي أعطى وصفاً دقيقاً جداً للمحفظة إلى مخبريه كافة (وإلى ماتييو بريغانتني). فالحروف الذهبية ظاهرة استثنائية في مناكوري. قد يكون عليه في هذه الحال، التلميح أمام المفوض، بأنه أصبح على طريق الإمساك بالخيط، وأنه عثر على المحفظة لكنه لمّا يعثر على المال، وأنه لا يستطيع حتى الآن الإدلاء بأكثر من هذه المعلومات. وهو على كل حال لا يخشى المفوض أتيديو، الذي لن يلح طالباً المزيد من المعلومات. ومع ذلك فقد قرر بدافع من الزيادة في الحيلة عدم إبقاء المحفظة في بيته. إلا أنه بقي راغباً في الاحتفاظ بها. فالمرء لا يتخلص من العريون. والمحفظة هنا تعتبر شكلاً من أشكال العريون يخص مارييت ويقع ضمن حيازته الآن. فصعد ليخفيها في الطابق الثالث من برج فريدريك الثاني دو سواب، داخل الشقة الصغيرة الخاصة التي يتقاسم استخدامها مع المفوض، لكن المفاتيح في حوزته. تثبتا بشرطين من اللاصق تحت الوجه الدائري للمنضدة الخشبية المرصعة. وتغضن جفناه لبادرة ابتسامة. ورأى اختياره لمثل هذا المخبأ الماكر غاية في الأناقة (وإن لم يتلفظ بهذه الكلمات في نفسه).

وفيما هو نازل إلى بيته عبر الممر الواقع في حجرة الدرج، تحت سطح القسم المشاد في عصر النهضة من القصر وفوق البادية، لمح جوزينا صاعدة إلى بيته على الدرج المكشوف، عن طريق باحة القصر الداخلية. كانت تحمل عدداً من الاسطوانات تحت ذراعها.

يتألف مسكن بريغانتني من أربع حجرات متوالية هي في الأصل جزء من منظومة الحاشية القديمة التي تلتف حول الأبنية. تقع غرفة النوم في الصدر ومن ثم المطبخ حيث يتناول آل بريغانتني طعامهم، وبعده قاعة الطعام التي جعل منها ماتييو مكتباً له وقاعة دراسة لفرانشيسكو، والقاعة الأخيرة هي بهو الانتظار على الطراز القديم، وفيها ينام فرانشيسكو، وينسّق اسطواناته وكتبه فوق رفوف خشبية تُثبت على الجدران. فباب الدخول (المطل على شرفة حجرية ينتهي عندها الدرج المكشوف) وباب الممر الواقع في حجرة الدرج يندمجان معاً جنباً إلى جنب، في شقة جدار بهو الانتظار نفسه. الباب الأول ذو مصراعين والثاني مصنوع من لوح واحد من الخشب الصلب، وله قفل من الحديد المزخرف (يحتفظ ماتييو وحده بمفتاحه).

خرجت زوجة بريغانتني لتوها من أجل شراء مستلزمات العشاء. دون أن تغلق الباب ذا المصراعين بالمفتاح.

سمع رنين الجرس، ثم أدارت جوزينا القبضة ودخلت. وانتظرت برهة في البهو.

- فرانشيسكو.

سمعها ماتييو بريغانتني وهو ما يزال في الممر الواقع في حجرة الدرج تنادي «فرانشيسكو». فأسرع بخطى صامتة ليتوقف وراء الباب دون أن يفتحه. أصغى لحركة جوزينا تجوب الحجرات الأربع ثم تعود إلى البهو. وسمع صرير كنية من الخيزران موضوعة بجانب الحاكي. ثم ساد الصمت.

دفع بريغانتني الباب بهدوء. كانت جوزينا جالسة على كنية الخيزران ويدها فوق كدسة الاسطوانات، التي كانت تحملها تحت ذراعها وهي تصعد

الدرج، والموضوعة الآن فوق طاولة الماكنة الموسيقية. إنها تنتظر وعيناها نصف مغمضتين. فسألها بريغانتي:

- ماذا تفعلين هنا؟

فأجفلت وجذبت كدسة الاسطوانات بعصبية إلى حضنها وقالت:

- أنتظر فرانثيسكو.

وعذلت من جلستها فانتصبت بجذعها مصدوبة نحو بريغانتي عيين برأقتين، زائغتين قليلاً، دليل إصابة بالمalaria.

- ماذا تريد مني؟

- أحضرت له الاسطوانات التي أعارني إياها.

- دعيها هنا وسيجدها بنفسه.

قالت:

- ذلك أني كنت أود أن أستعير منه غيرها.

- تعودين فيما بعد.

أغرقها بنظرة متيقظة شاملة. إنه يرى التفاصيل كلها دائماً. لم تكن كدسة الاسطوانات متوازنة. فالقسم العلوي ليس موازياً تماماً للقسم السفلي. والاسطوانة الثالثة غير منطبقة على الرابعة تمام الانطباق. فهناك جسم غريب مخبأ بينهما.

قالت:

- أجل، سأعود.

وبقفزة هبت واقفة وتوجهت نحو الباب والاسطوانات تحت ذراعها.

وحين صارت بقربه وضع بريغانتي يده على الكدسة.

فقالت:

- دعني.

فضحك بتغضن من الأجفان وشفته مزمومتان.

قال:

- سأدعك، سأدعك.

واستل بحركة سريعة خاطفة، الاسطوانة التي اجذبت نظره والتي لم يكن أحد سطحها مستوياً.

-... لكنتني سأخذ هذه.

واكتشف تحت غطاء الاسطوانة مغلفاً أبيض، بلاعنوان، فيه شيء سميك.

قالت جوزينا:

- هذا لي، إني أمنعك.

ومن جديد ضحك نصف الضحكة المعهودة لديه.

- إن الفتاة التي تمنع شيئاً عن ماتيو بريغانتني لما تُخلَق.

قلب المغلف بين يديه مرات عدة، وطفق يجسّه ويفحصه من جوانبه كلها منمّا تعود أن يفعل دوماً ثم فتحه محاذراً، حريصاً على سلامة محتوياته. فأخرج منه عدة صفحات مكتوبة بخط دقيق وثلاث أوراق نقدية من فئة العشرة آلاف لير.

توجّهت جوزينا مجدداً صوب الباب. فقطع عليها الطريق مسنداً ظهره إلى المصراعين.

قال:

- لم تكوني في عجلة من أمرك. كنت تنتظرين فرانثيسكو..

ودفع بها حتى أقعدها على كرسي في الطرف الآخر من البهو.

قالت:

- دعني أمضي.

فقال:

- ابقِي هنا وأغلقِي فمكِ.

جلس فوق كنبه الخيزران ويسط الأوراق ونظر أولاً إلى التوقيع،
لوكريزيا، ثم شرع يقرأ بانتباه. ذلك البوح الرقيق الواضح الطويل لعشيقة ابنه
على ما يبدو.

ودخلت السيدة بريغانتي تحمل سلة في ذراعها.

فانتصبت جوزيينا واقفة.

وقالت:

- يا مدام...

- قلت أغلقِي فمكِ.

وقال لزوجته:

- هيا إلى المطبخ وأغلقِي الأبواب. فلي كلام مع جوزيينا.

دخلت السيدة بريغانتي إلى قاعة الطعام وأغلقت الباب وراءها. وسمعت
وهي تغلق باقي الأبواب. استأنف بريغانتي قراءة رسالة دونا لوكريزيا إلى
ابنه، ثم قعد يفكر، وقرأها ثانية وفكر من جديد. وقام فاندقل إلى غرفة الطعام
(تاركاً الباب مفتوحاً كي يراقب جوزيينا) فأخذ غلفاً أبيض من خزانة الأواني
حيث يضع أوراقه، ثم طوى الرسالة مجدداً وأعادها إلى الغلاف ومعهما
الأوراق النقدية الثلاث من فئة العشرة آلاف لير وأغلق الغلاف.

رجع إلى البهو فأعاد الرسالة الجديدة، المماثلة للسابقة بكل شيء إلا
بالغلاف، إلى مكانها السابق تحت غطاء الاسطوانة، والاسطوانة إلى مكانها
داخل الكدسة.

قال لجوزيينا:

- رأيْتِ أنه لم يحصل شيء على الإطلاق.

وأخذ يقرئ محدقاً في وجهها.

- أنا لم أفعُ على الرسالة ولم أقرأها، وأجهلُ كل ما يتعلق بها. هل فهمت؟
 - أجل، يا سيد بريغانتى.
 - سوف تنصرفين الآن برزمتك هذه، لن يأتي فرانثيسكو إلا للعشاء.
 حينئذ سوف تعودين لتسليمه الرسالة خفية عني. فأنا لا أعرف شيئاً
 وسأغض عيني عن كل شيء.
 وكررت جوزيينا القول:
 - حضرتك لا تعرف شيئاً.
 ثم اقترب منها وهي لا تزال جالسة ومدّ يديه الاثنيتين إلى صدرها
 فقبض بكل إبهام وسبابة على رأس النهد. وشدها فأرغمها على الوقوف. غير
 أنّه لم يشعر إلا بملس حشوة الصدرية تحت أصابعه. فقال:
 - هذا تزييف.
 لكنّه لم يتركها. بل قرصها بعمق أكثر حتى تأوّهت.
 «لا بد أن يقع المرء على شيء ما في النهاية...»
 ورأت عن قرب شديد، العينين الصغيرتين والنظرة الصارمة والضماد
 فوق الخد. إنّ أيّ خلل في التناظر، كضمد على العين أو ندبة جرح عميق أو
 لصيقة، تجعل نظرات الوجه القاسي رهيبة مرعبة.
 أصيبت نظرتها المحمومة المريضة بالهلع. وبدأت جفونها ترفّ بسرعة
 مثلما يخفق الوطواط بجناحيه إذا ما داهمه النور على حين غرة.
 جال بكفه فوق جسمها. كانت ساقا الفتاة ترتعدان. ثم أخذ يجسّمها
 ويتحسّس أجزاء جسدها بانتباه شديد كما يفعل طبيب يطرّي يفتحص عجلة.
 قال:

- صحيح إذن أنك نجحت في المحافظة عليه..
 وأوغلت يده إلحاحاً. فتهاوت. فتركها تقعد على الكرسي.

ابتعد عنها بضع خطى وعاد يدقّ فيها النظر متغضّن الأجفان
بنصف ابتسامة.

- لا أريد أخذه منك عنوة. فماتيو بريغانتي يأخذ العذاري لا
العوانس... أمّا إن وشيت بي، أو أنذرت فرانشيسكو أو نوكريزيا، بأنّي قرأت
هذه الرسالة فحذار: سأزوجك من بصل الكراري. أتعرفين ما بصل الكراري؟
فتمتت جوزينا:

- أجل.

- هل أخبروك عن اللبيب الذي يحدثه؟ هل قالوا لك إنه ليس من دواء
البنة ليشفي تلك الحرارة؟
فهمست قائلة:

- أجل

- أتعرفين أنّ الفتاة إذا ما زوجها من بصل الكراري تصبح تالفة،
ومستهلكة، وفاغرة أكثر من أية بغي عجوز؟ أجيبيني؟
- أعرف ذلك، يا سيد بريغانتي.

- إذن انصرفي. احملّي الاسطوانات ونفّذي ما قلت لك.

حاولت جوزينا النهوض فلم تطاوعها ساقاها لشدة الارتجاف فسقطت
ثانية على الكرسي.

ذهب إلى غرفة الطعام وعاد يحمل زجاجة عرق وكأساً صغيرة.
فسكب وقال لها:
- اشربي.

فشربت. وحاولت النهوض مجدداً، لكنّ ساقَيْها كانتا ترتجفان أيضاً.
فمأ لها كأساً جديدة، وقال:

- هذا يشدّ العصب حتى لواحدة كسيحة.

فشربت ونهضت وحملت الاسطوانات ومشيت مترنحة صوب الباب.

أفصح بريغانتي لها المجال وراقبها من على الشرفة وهي تنزل الدرج الحجري ببطء ثم بسرعة متزايدة. وقطعت الباحة بخطى ثابتة.
ثم دخل فسكب لنفسه أيضاً كأسين من العرق وكرعهما كرعاً واحدة إثر واحدة.

عند المساء جاءت جوزبيينا ساعة العشاء تعيد إلى فرانثيسكو الاسطوانات التي استعارتها منه. فتحدثا هنيئة داخل البهو ثم رجع فرانثيسكو ليحتل مكانه على المائدة. وقيل انتهاء الطعام سأله ماتيو بريغانتي:

- ما زلت إذن على قرارك في السفر غداً إلى عند خالك في بينيفان؟
- أجل.

قالها فرانثيسكو وألقى على والده نظرة كئيبة من عينيه الكبيرتين الطافيتين على صفحة محياه.

- في أية ساعة ستسافر؟

فكر فرانثيسكو برهة دون أن يحول نظره عن والده ثم أجاب:

- في باص الساعة التاسعة.

- سأرافقك حتى فوجيا... ينبغي أن أذهب للقاء أحد رجال الأعمال.
وسوف أصطحبك للغداء في فندق سارتي...

وظلّ يراقب ابنه الذي لم يطرف له جفن. ثم أضاف:

- أن الألوان لأن تتعرف، وقد صرت في هذه السن، على كيفية تناول الطعام الحقيقي في مطعم ممتاز.

قال فرانثيسكو:

- شكراً، يا أبي.

- وسوف تجد بعد الظهر باصاً للسفر إلى بينيفان.

أجاب فرانشيسكو:

- سأجده بكل تأكيد.

في تمام الساعة التاسعة إلا عشر دقائق من صباح اليوم التالي ومع وصول الباص الذي يعمل على خط بورتو البانيزي - بورتو مئاكوري - فوجيا، كان جوستو، خادم منهل نادي الرياضة، في مكتب المفوض أتيليو. فالمفوض المعاون اصطحبه إلى عدد رئيسه.

توقف الباص عند زاوية تقاطع شارع غاربيالدي مع الساحة الكبرى أمام السراي. نزل عدد من الفلاحين يحملون السلال والأكياس والأقفاص. وانتظر المئاكوريون استعداداً للوثوب واحتلال الأماكن عنوة، فأخر الصاعدين يسافرون وقوفاً. أما سائق الباص ومعاونه فيقف أحدهما على سطح الباص والثاني على السلم الخلفي ويناول الأول الثاني الحقائب والحوائج فينزلها على الأرض.

ترك العاطنون عن العمل مركزهم بمحاذاة الجدران وأقبلوا يتحلقون فضولاً، وكل واحد يأمل في أن يكون أول من يقع عليه نظر وقاف قدم إلى المدينة بحثاً عن عامل. (يؤمن الباص المواصلات بين بورتو البانيزي ومئاكوري لقرى الجبل ومنطقة البساتين).

يتجمع أبناء الأعيان عند مدخل نادي الرياضة ليكونوا بالمرصاد لكل فلاحه فتية تنزل إلى المدينة للقيام ببعض المشتريات، فيلاحقونها من شارع إلى شارع. ولا أمل لهم في لمسها إلا عن طريق اللجوء إلى التقاطع معها في اتجاه معاكس والذراعان تتأرجحان ومن ثم الاحتكاك بها كأن الأمر سهواً. (يمكن التوصل عن طريق أرجحة الذراع بمهارة إلى ملامسة ما بين الفخذين، ويطلقون على هذه الطريقة اسم: اليد الميتة). والذي يفعل ذلك يتحى قائلاً: «عفوك يا آنسة»، لتدفجر من ورائه عصابة الفتيان في ضحك شديد صاخب. إلا أن الطريقة الأكثر إمتاعاً بالنسبة لهم، والمربكة أيضاً، هي أن يلاحقوها وهم يهمسون بكلمات نابية مقدعة. ويستبدّ بهؤلاء الريفيات خوف شديد حتى

لا يجرؤن على زجر معذبهن ذاك، ولا على الشكوى إلى أحد رجال شرطة البلدية. فتحمرّ منهنّ الوجوه خجلاً ويسرعن الخطى. ليتولى أمرهنّ شاب ثانٍ وهكذا بالتداول من واحد الى آخر.

ويدور الواليوني حول الجمهور المحتشد، متبهمين جاهزين للاستفادة من شرود راج نزل من الجرود إلى المدينة ليتسوّق. ورجال شرطة البلدية يراقبون الواليوني والعصي في أيديهم. والسجناء يغنون من وراء نوافذ السجن، في الطابق الأرضي من السراي، آخر أغنية سمعوها من الإذاعة. على ذلك النحو تجري الأمور لدى وصول كل باص إلى الساحة.

المفوض أنيليو قادر، وهو في مكتبه الواقع فوق السجن مباشرة، على متابعة هذا المشهد في مراحله كلّها. وإذا كان يجده أحياناً مليئاً بالإرشادات، فهو ممتع دوماً وخاصة في المساء، حين يصل باص فوجيا الذي انتظر وصول القطارات القادمة من روما و نابولي، والذي يأتي عادة بالمصطافات الجديّدات (في اليوم التالي يعرف المفوض عن طريق أجهزته في أي فندق نزلن ولمنزل أي شخص توجّهن. إنّ منتهى الأحلام لزيّر نساء من طبيقته، الحصول على مكتب ذي موقع ممتاز، وأن تساعدّه أجهزة حسنة التنظيم. فعلى هذا النحو يكون دوماً أول من يستدل على الطريدة وعلى مكنها. أمّا الآن وقد باتت جوزينا تفرّض سيطرتها عليه، فإنّ المفوض فقد ميّله للتصيّد فقداناً شبه نهائي، فلم يُبقَ إلا على ما يثبت له تجاه نفسه أنّه ما زال رجلاً).

شدّد جوستو على القول:

- لون الجلد أصهب والأحرف: ام. ب. مرصّعة على الجلد بالذهب.

فأوضح المعاون قائلاً:

- إنّها محفظة السويسري.

فردّ المفوض أنيليو قائلاً:

- هراء باطل، أولاً لأنّ بريغانتي لا يمكن أن يتورّط في عملية من هذا النوع. ثانياً لأنّه كان في فوجيا يوم حادثة السرقة. ثالثاً لا يمكن أن يتمسك بالمحفظة فيبرزها أمام وجهك.

وعاد جوستو يؤكد بالإحاح:

- أقول لكم إنّني رأيتها بأّم عيني، من مسافة بعد طرف الطاولة عن طرفها الآخر، أي من مسافة أقرب مما أراكم الآن...

انتهى الفلاحون كلّهم من النزول. وجاء دور المناكوريين في الهجوم على الأماكن واحتلالها. وخرج ماتييو بريغانتي وابنه من الباحة الصغرى تقصر فريدريك الثانيي دوسواب فتوجّها ببطء نحو الباص.

ارتدى فرانثيسكو بزة رمادية فاتحة، هي الأكثر اعتدالاً بين ملابس، وتحتها قميص أبيض وربطة عنق سوداء. ولم تخف والدته دهشتها من ذلك المظهر الزاهد. فأوضح لها أنّ «بينيفان مدينة حقيقية، لا يلبس الناس فيها كأنهم ذاهبون إلى الشاطئ». أمّا تفكيره فكان في حقيقة الأمر منصرفاً إلى لوكريزيا التي ستترقب رحيله من نافنتها وقد رغب في أن يسعدها بإظهاره اتباع تعليماتها وإطاعة إرشاداتها سلفاً. ولما كان بوّده زيارة تورينو، بعد انتهاء اللقاء مع مديره المقبل، والتجول تحت قناطرها التي سمع أنّها تعجّ بالحركة، فقد وضع في حقيبته، ملابس وقمصاناً أكثر تلاؤماً مع الأنافة حسب مفهومه.

مشى بريغانتي إلى جانب ابنه، فهو أقصر منه قامّة وأكثر انكماشاً، في بنطال أبيض نظيف جداً وسترة زرقاء مخططة وعقدة الفراشة المعهودة. إنّهُ يحافظ على مظهره المألوف الذي استوحاه من ذكرياته في البحرية، حين يذهب لمقابلة رجال الأعمال.

قال جوستو:

- أنتم ترون أنّه يعرف ماذا فعل، فيأشر بالانسحاب.

سأل معاون:

- هل نلقي القبض عليه؟

فصاح المفوض:

- كفاكم حماقات.

وعاد المعاون إلى القول:

- يبدو واضحاً أنه ينسحب. لا بل أخذ حقيبة وأمر ابنه بحملها.

قال المفوض:

- إن رجالاً بحوزته أملاك تحت الشمس، لا يتخلى عن كل شيء من أجل محفظة ليست له.

وهنا صاح المعاون:

- ذلك بالضبط لأن المحفظة ليست له. وقد قتلها بنفسك يا معلمي.

ثم أغرق في ضحك طويل متواصل.

تنهّد جوستو فقال:

- سوف تنهال البلايا كلها فوق رأسي، إذا ما عرف يوماً بأنني وشيتُ به...

قال المفوض:

- كفى. كن مطمئناً. خذ مني عهداً. وسوف أتولى بنفسك سؤال بريغانتني، لدى عودته.

وانتقل الرجلان إلى القاعة المجاورة.

قال المعاون:

- الأمر واضح. فإذا ما تعرض بريغانتني للمتاعب، لا يعود بوسع معلّمنا العثور على مكان لاستقبال دجاجاته.

وتأوّه جوستو قائلاً:

- ستحلّ المصيبة كلها بي.

- إن بريغانتي يعرف بالتأكد أشياء كثيرة حول المعلم.
وتأوه جوستو:

- سوف يسمّني. لقد كان موسوماً، ويجب أن يثأر.
فقال المعاون:
- دع الأمر لي.

كان ماتيو بريغانتي وفرانشيسكو آخر الصاعدين إلى الباص.
أفسح السائق مكاناً للحقيبة. فيما نهض اثنان من المعترفين بفضائل
ماتيو بريغانتي فتخلّيا عن مكانيهما للأب وابنه، اللذين احتلاههما. وانطلق
الباص فعاد العاطلون لأخذ أماكنهم بمحاذاة الجدران حول الساحة الكبرى.
وارتفع صوت السجناء بالغناء «عن الحب، حدثني...»
صعد معاون المفوض إلى عند القاضي أليساندرو.
في حدود الساعة الحادية عشرة صعد المفوض أتيليو بدوره إلى المحكمة
ليتحدث إلى القاضي أليساندرو بشأن القضايا التي يجري التحقيق بها.
فسأله القاضي:

- والسائح السويسري؟...
- ما من جديد.

كان القاضي في يومه الثالث من وافدة الملايا. فعيناه صفراوان
لامعتان من تأثير الحمى، وجبينه يتصبّب عرقاً وقميصه مفكوك الأزرار،
وهو يرتعش داخل سترته.

- قيل لي إن أحدهم شاهد المحفظة.
- إنها ترهات، يا صديقي العزيز...
فقاطعه القاضي قائلاً:

- قيل لي بوضوح تام إن خادم منهل نادي الرياضة رأى بأمّ عينه
مساء أمس محفظة السويسري بين يدي ماتيو بريغانتي.

فأجاب المفوض:

- معاوئي يهذي. دع الكلاب تدبح. فليس لهذه الحكاية من أساس.

هب القاضي واقفاً، متكئاً بيديه إلى الطاولة وذراعه ترتجفان.

- أنت تزدري العدالة، يا مفوض..

كان المفوض جالساً على كنبه في الجانب الآخر من الطاولة، يلف ساقاً على ساق. فرفع ذراعيه إلى السماء.

- على رسلك، يا أليساندرو، رويدك..

- في الأول من أمس مارست ضغطاً سياسياً على عاملٍ شريف جاء يطالب بجواز سفر، له فيه كل الحق. وأنت اليوم تنسّتر على جريمة محكوم سابق، على رجل مبتز على صديقك، على...

- حذار، يا أليساندرو...

«أيها الزوج المخدوع، اللفظ مثل كل الأزواج المخدوعين»، قالها المفوض في سره، فقد أصبح يعرف أن دونا لوكريزيا أمضت أربع ساعات من يوم أمس في غابة الصنوبر. إنه لا يعرف بعد بصحبة من كانت. لكنه لن يتأخر كثيراً في معرفة ذلك. فامرأة شابة لا تبقى وحدها أربع ساعات في غابة الصنوبر.

وقال القاضي في سره عن المفوض «يا زير النساء. وتخدعك رغم ذلك أصغر قحبة، فتخضعك لإرادتها».

فقد وصلت إلى مسامع القاضي حكاية المصارعة التي دارت في عرض البحر بين المفوض أتيليو وجوزينا. وكيف صرعه تحت قدميها على مرأى من المدينة الممتعة كلها على الشاطئ.

«أيها الفاسد المتهتك المبتز مثل كل الذين لا همّ لهم غير ملاحقة الساقطات».

وجلس القاضي مجدداً.

- أصغ إلي يا مفوض.. بصفتي قاضياً مكلفاً من قبل النيابة العامة بالتحقيق في شكوى السرقة ضد مجهول...

لقد أعدّ أمراً بتفتيش منزل ماتيوي بريغانتي للبحث عن المحفظة التي شوهدت في حوزته في اليوم السابق.

اعترض المفوض قائلاً إنهم سوف يصابون بالخزي. لكن القاضي أذره بأنه سيرفع القضية إلى النيابة العامة في لوتشيرا، ما لم ينفذ الأمر بالتفتيش على الفور.

جرت عملية التفتيش بعد الظهر مباشرة. وقد قام بها المفوض ومعاونه واثنان من رجال الشرطة. اعتذروا مطوّلاً من السيدة بريغانتي، راجين منها أن تقول لزوجها إنهم كانوا فقط ينفذون الأمر القاطع الذي أصدره القاضي أليساندرو. وقاموا بزيارة سطيحة المنزل حريصين على عدم بعثرة أي شيء، وعلى إظهار ذلك الحرص بوضوح. لأنهم كانوا في حقيقة الأمر متأكدين من أن ماتيوي بريغانتي إذا كان قد قام بالسرقة، وهذا ما لا يصدقون، فلن يخفي المحفظة في منزله.

قال المفوض للسيدة بريغانتي:

- لم يبق عليّ غير أن أعتذر.

فدخل المعاون ليقول:

- المَعذرة يا معلّمي، إذ ينبغي علينا، حسبما هو مذكور في الأمر بوضوح، تفتيش البرج الذي يستأجره السيد بريغانتي.

هزّ المفوض كتفيه بلا مبالاة. فيما كان رجال الشرطة يتغامزون فيما بينهم. فهم الذين أوحوا للقاضي بذكر البرج، لأنهم كانوا يتحرّقون شوقاً لزيارة شقة المَعلم، التي كانت مكان شكوك المدينة كلّها، والتي يعرفون عنها نفقاً من المعلومات انتزعت بشكل أو بآخر من بعض النساء، إلا أن أوداً لم تقع عيناه عليها من قبل.

قال المعاون:

- أعتقد أن بالإمكان الصعود إليه من هنا.

وأشار إلى الباب ذي المصراع الواحد المصنوع من خشب السنديان،
وقفه من الحديد المزخرف.

لم يكن المفتاح بحوزة السيدة بريغانتى فأرسلوا في طلب حرفي
مختص. وجلس المفوض فوق كنبه الخيزران ووضع على الحاكي افتتاحية
للموسيقار ثوبان كطريقة لتبيان الفارق بينه وبين مرؤوسيه الذين لا يحبون
إلا الأوبرا والأغاني.

أخيراً سلك الرجال الأربعة الممرّ الواقع في حجرة الدرج يتقدمهم المعاون.
وسار المفوض وراءهم جميعاً، تتبعه السيدة بريغانتى واثنتان من الشهود.

دخلوا على ذلك النحو القاعة ثمانية الجدران في الطابق الثالث من برج
فريدريك الثاني دوسواب، ووقفوا وراء ستائر السجاجيد المشتراة من عند أحد
الباعة في فوجيا، وصاروا داخل الغرفة التي يقوم فيها بريغانتى باغتصاب
الأبكار، ويقوم فيها المفوض أتيلىو بإفساد نساء الأعيان حسبما يعتقد.

وقعوا فور وصولهم على غليون سجائر منسي من قبل المفوض، كانوا
يعرفون جميعاً أنه له.

فهتف المعاون قائلاً:

- واضح أن بريغانتى قد سرقك أنت أيضاً يا معلمي.

كانت تلك تورية. فما من أحد يعتقد أن غليون السجائر قد سرق، بل إن
وجوده دليلٌ إثبات على حياة الفجور التي يعيشها أتيلىو سراً.

لم يستطع المعاون والشرطيان إخفاء غبطتهم بعد وضع أيديهم على هذا
الدليل. حتى لأنهم قد أقوا القبض على معلمهم نفسه متلبساً. وبات عليه هو
أن يخضع للسيطرة التي ما انفك يخضعهم لها منذ أعوام. وتأسوا وجود
السيدة بريغانتى وعمليات الانتقام من ماتييو مستقبلاً.

فصار بوسعهم، تحت غطاء التستر بالسخرية من بريغانتي، أن يتهموا على معلمهم في حضرته. فلمسوا السرير الحديدي المدهون بزخارف فينيسية قائلين:

- أف له من لص ! كم من الأعراض هتك فوقه !

وبدؤوا بتعداد أسماء العشيقات اللواتي كانوا يشتبهون بعلاقتهم مع المفوض، ناسبين العلاقة لبريغانتي:

- لقد نزع.. لقد راح.. لقد جعلته...

وما عاد بوسعهم احتواء بهجتهم الغامرة.

ثم شرعوا بحجة البحث عن المحفظة يعبثون بكل كبيرة وصغيرة، ويقفلون بين أيديهم أدوات الزينة بشكل خاص، متخيلين بصوت عال كافة الاستعمالات الداعرة التي يمكن أن تؤدي إليها.

وقام معاون، في غمرة من الحماس الفاحش، فتسلق المنضدة الخشبية المرصعة، وشرع في تحريك المرأة «الرؤية ما يمكن رؤيته من السرير»، لكنه تعثر فانقلبت المنضدة.

فانكشفت بهذه الطريقة، أمام أعين الجميع، محفظة السويسري المخبأة تحت سطح المنضدة.

كان من المستحيل ألا يراها أحد. فهي مثبتة بشريطين من القماش اللاصق (مثل الضماد على خد بريغانتي الموسوم) في وسط الوجه المقلوب. وهي من الجلد الأصهب مع أحرف ام. ب. الذهبية المرصعة في الجلد، مثلما هو مذكور بالضبط في نص أمر الدفتيش.

ساد صمت مهيب. وبدأ رجال الشرطة يفكرون في كافة أشكال الثأر التي لن يتوانى ماتيو بريغانتي عن القيام بها. وليس من أحد بينهم إلا وحياته الملكية معرضة للعطب بمجرد وشاية من ذلك المبتزر.

كف المفوض أتيليو عن التزام الصمت فقال:

«حين يُعْتَصَرُ الخمر...»^(١)

ما إن أمسك القاضي أليساندرو بالمحفظة بين يديه حتى أصدر أمر توقيف. واذنر شرطة فوجيا هاتقياً. لأن بريغانتي هنالك على الأرجح. كما أخطر النيابة العامة في لوتشيرا.

تعدى ماتيو بريغانتي وابنه وجهاً لوجه على مائدة صغيرة في قاعة الطعام المكيّة بفندق سارتي في فوجيا.

كانت الموادد الأخرى مشغولة بأجانب بينهم رجال يلبسون البنطال القصير وقميصاً مفتوح الصدر بلا أكمام، فيما أكثرية النساء يلبسن البنطال. وتكثر فرانشيسكو من الظهور بمظهر ريفي، بطوق قميصه الأبيض وربطة عنقه الغامقة. وهو في صحبة أبيه بسترته المزرّرة وعقدة القراشة المشدودة المربوطة. ثم فكّر في أنّه بعد بضع سنين، إذا ما خطر بباله القدوم إلى الجنوب سائحاً بصحبة لوكريزيا، فسوف يروقه مظهره. سيكونان كلاهما من تورينو، وسوف يتصرفان كما يروقهما، وبصنّف لا يقلّ عن صنّف الأجانب.

طلب بريغانتي أوفر وجبة غداء وأصنافاً من النبيذ الفرنسي. ولم يكن فرانشيسكو يحب النبيذ إلا أنّه شرب شيئاً منه، كي لا يبدو غير حسّاس تجاه كرم والده، وغير أهل لتقدير أساليبه الرقيقة. وأحسّ بزيادة الانقباض في صدره. إنّ مشاعر الراحة الكبرى التي غمرته بالأمس وهو بقرب دونا لوكريزيا، وكلمات الحب التي أخذت تجري تلقائياً على لسانه بعد أن اعتملت طويلاً في صدره، لم تتجاوز اللحظة التي وجد نفسه فيها بمواجهة والده. فقد عاد معذبه خلال الليل ليظهر في كابوسه المعهود، بوجهه الملتبس مثل حاله في الأسابيع السابقة، فعينا أبيه تختلطان بعيني دونا لوكريزيا في النظرة الملحة المسيطرة إياها. وحين استيقظ أحسّ بالغم يملأ صدره، وما يزال على حاله حتى الآن.

(١) «حين يُعْتَصَرُ الخمر، لا بد من شربه» مثل شعبي معناه: حين يلتزم المرء شيئاً، ينبغي ألا يتراجع عنه. (م)

بعد انتهاء الغداء جرّ بريغانتي ابنه إلى داخل سيارة أجرة.

فقال فرانثيسكو وهو لا يفقه شيئاً من العنوان:

- إلى أين نمضي الآن ؟

فقال بريغانتي:

- لا بدّ من أن تعرف ذلك أيضاً.

فرفع فرانثيسكو نحو أبيه عينيه الكبيرتين الكئيمتين.

فقال بريغانتي:

- هذه ليست داراً عمومية تماماً. لأنها ليست مفتوحة لأيّ كان...

والسيدة هي من معارفي القدامى.

وصوّب بريغانتي عينيه القاسيتين إلى عينيّ ابنه القنيتين.

قال:

- أعرف أنك لا تملك المال الكافي. فأنا الذي أدعوك. ودار المعلمة

ليست مبعي تماماً. فالفتاة التي ستأخذها لن تطلب منك مالاً. ولك الخيار في

أن تقدّم لها هدية صغيرة. فالمرء في بيوتات الدرجة الأولى مثل هذه، يباشر

الحديث مع المعلمة ويمضي بصحبة الفتاة ويدفع الحساب لوكيلة المديرية (أو

وكيلة المعلمة)، أي كما هي الحال في فندق سارتي. ولا بدّ من أن تكون

لاحظت أنّي لم أدفع الحساب للنادل الذي قدم لنا الطعام، وإنّما لرئيس المائدة.

وأنيّ قبل الطعام مضيت لأتحدث بشأن الوجبة مع مدير الفندق. وتركت لدى

الانصراف إكرامية صغيرة للنادل. وعلى هذا النحو يكون حسن التصرف...

ثم أضاف:

- لا تحمل أيّ هم. فأنا سأدفع للآنسة تشينيتا، وكيلة المعلمة، قيمة

الوقت الذي ستمضيه بصحبة الفتاة التي سيقع عليها اختيارك.

فقال فرانثيسكو:

- شكراً، يا أبي.

أنزلتهما السيارة أمام فيلا معزولة في إحدى ضواحي فوجيا.
واستقبلتهما المعلمة في صالة صغيرة فيها كنبات من الجدد الفاتح ومنضدة من
خشب الليمون.

قال بريغانتي:

- أعرفك على ابني.

فظهرت المعلمة إلى فرانثيسكو نظرة شاملة ومقتضبة ثم التفتت نحو
الأب قائلة بابتسامة خفيفة:

- ألا قل لي كيف تأتى لك أن تصنع مثل هذا الولد الوسيم؟

قالت ذلك باستخفاف مستلح فيه كياسة طبيعية. إنها امرأة في
الأربعين، طويلة مشوقة القوام، ترددي ثوباً محتشماً من الجرسى الصوفي.
ورأى فيها فرانثيسكو ملامح رئيسة الممرضات في أحد مشافي الدرجة
الممتازة في نابولي، حيث ذهب مرة لزيارة رفيق له كان مريضاً.

قال بريغانتي:

- خطرت ببالي فونفيا من أجله.

فأجابت السيدة:

- فونفيا الآن ليست مشغولة.

فأضاف بريغانتي:

- لكن يُحتمل أن يفضل واحدة غيرها.

فقالت السيدة:

- لذي في هذه اللحظة سبع أو ثمان في الصالة الكبرى.

ثم استدارت نحو فرانثيسكو وقالت:

- لا شك في أنك تفضل أن أعرفك عليهن الواحدة تلو الأخرى. وبعدها
تقول لي على تلك التي وقع عليها اختيارك.

فقال بريغانتي لابنه:

- أرايت كيف يكون أسلوب التعامل في هذه الدار؟

ثم قال للمعلمة:

- أود أن أتحدث إليك.

فقالت:

- هيا إلى مكتبي.

وسبقته إلى الباب.

فقال فرانثيسكو:

- انتظرنّا.

حين بلغت العتبة قالت:

- بالمناسبة، ما هو اسمه؟

أجاب بريغانتي:

- فرانثيسكو.

فاستدارت وقالت:

- سوف نلتقي بعد قليل، يا فرانثيسكو.

وظلّ وحيداً. طرق سمعه من حجرة مجاورة لغط خافت لحديث
تشارك فيه أصوات عديدة، وكلّها أصوات نسائية، ثم سمع ضحكة عالية تلاها
صخب يعبر عن دهشة، كأنّها تحية لقادم. وقال فرانثيسكو في نفسه:

- لعنّه أبي.

ذكرته الصالة الصغيرة وكنباتها الجلدية بمشفى نابولي أيضاً. فالرسوم
المعلقة على الجدران، للفنان فراغونار، لا يمكن اعتبارها فاضحة. حتى أن

الصيدلي في بورتو مناكوري قد علق مثيلاتها على جدران غرفة نومه. إلا أن الأُطر هنا أكثر جمالاً، فهي من خشب الليمون كالممنضدة.

ظل صدره رازحاً تحت عبء الغم، لكن أثر النبيذ الذي شربه في فندق سارتي حول الغم إلى إحساس بالخدر فبدأ فرانثيسكو يغرق ببطء في نعاس لا يزيد عن الغم ألماً ولا يقل عنه استقراراً.

وانفتح الباب.

ظهرت لدى العتبة فتاة طويلة سمراء، في ثوب حريري أسود عالي الياقة، ضيق، ينم على تقاطيع جسد نحيل، في أعلاه ذيل مهتب يسقط من وراء إحدى الكتفين دون تناظر.

قالت:

- إسمي فولفيا.

ونظرت إليه، حسبما لاحظ، دون أدنى استفزاز. لم يكن يتوقع هذا النوع من النأي، حتى لقد تزايد إحساسه بالغم. وتفحصته. فميز رأسه ليتخلص من إحساسه بالخدر. وابتسمت قليلاً. فقد بدت أمامه في هيئة الوانقة من نفسها كل النقة. ودهش داخل نفسه «فتاة شديدة التحول». ظلت واقفة في فتحة الباب، مسبلة الذراعين، دون أية حركة استفزازية من العينين أو الوركين أو الجذع أو الشفتين، وهي تتفحصه بكل هدوء، وفي عينيها بصيص تهكم خافت. ولمس ذلك البصيص بوضوح فنهض.

قالت:

- اتبعني.

تقدمته في الممر فسار وراءها. وحين دخلا الغرفة (كانت أرضها مفروشة بسجادة من المخمل رمادية اللون، والستائر رمادية، والسرير كبير مغطى بشراشف بيضاء نظيفة بُسِطت لتوها) قالت له:

- خذ راحتك.

ساعنته على خلع سترته وعلقتها فوق علاقة خشبية وهو واقف ساكن يتابعها بنظره. وعانت نحوه فحلت ربطة العنق ومضت فبسطتها فوق كتف السترة. ودنت منه مجدداً فمدَّ يده - اعتقد أنَّ عليه أن يفعل ذلك - إلى الصدر النحيل الذي لا يزال مغطى بالثوب. فأبعدت يده بهدوء قائلة:

- دعني أتمَّ عملي.

ازداد التهمك في نظرتها حدة.

قالت:

- القيادة الآن بيدي.

فكت أزرار القميص وأعانتَه على خلع الأكمام. ثم مضت لتضع القميص على العلاقة فوق السترة. وبقي واقفاً بالبنتال عاري الصدر.

قالت:

- تمذد.

فرقد فوق السرير.

وقامت بعد أن انحنت فوقه بحلَّ شيء ما تحت الذيل الذي ينتهي به الثوب عند العنق كالوشاح، وإذ بالثوب الضيق ينفتح بطولُه دفعة واحدة لتظهر تحته عارية.

بنت أكثر هزلاً مما كان يعتقد. وتراخى النهدان قليلاً، لكن كانا صغيرين جداً فلا يبرز منهما إلا الرأسان الشبيهان، حسبما تذكر، بالمسمارين المغروسين في يدي تمثال المسيح الخشبي الكبير على الصليب، فوق مدخل دير القديسة أرسولا بنت حاضرة أوريا. ورغب مع ذلك في أن يلمسها فمنعته. ثم أمسكت بذراعيه فبسطتهما على السرير بشكل صليب ثم وضعت يدها عند المفصل.

بدأت تجرّ أظفارها فوق ذراعه صعداً بحركة بطيئة ومنظمة دون أن تخذش جلده. واستسلم.

ونزلت ثانية إلى راحة كفه ثم صعدت إلى كتفيه فقوس ظهره متقدماً
بصدره السمين، بارز النهدين، لشاب أصهب طويل القامة، نحو صدر الفتاة
المهزىل ذي الرأسين الصغيرين.

كان من شأن المداعبة الحامضة الحذوة، والرقيقة القاطعة، أن فعلت
فعلها، فشرع يتأوه متعة وغمًا.

تابع ماتيو بريغانتي نقاشه مع المعلمة حول شؤون العمل. وشاركت في
الحديث الأنسة تشينيتيا، وهي مقدمة قديمة في الدار، أصبحت الآن شريكة في
إدارة المؤسسة. وقد تحلق الثلاثة حول طاولة كبيرة في المكتب، مغطاة بـلوح
زجاجي سميك، وإلى القرب منها صندوق للمصنفات، وضعت منسقة فيه،
كافة العقود والوثائق وجداول الرواتب والنفقات.

يسير العمل سيراً حسناً في هذا الفصل من السنة، كما أن تدفق السواح
على الساحل الادرياتيكي، ينعكس غنى وثراء على أصحاب المطاعم والفنادق
وبحبوحة على الباعة والتجار الآخرين. والمعلمة مهتمة حالياً بإقامة مؤسسة
ثانية، على أن تكون على الساحل هذه المرة، وفي بلدة سيديونتي تحديداً. وهي
منتجع بحري تؤمه الطبقة البرجوازية في فوجيا والسواح الأجانب. وسوف
يلزم ترغيب بوابي الفنادق ليقوموا بتوجيه السواح إليها. صحيح أن تكاليف
الانطلاق باهظة، لكن الأرباح عالية ومضمونة، بحيث يكون التعويض
سريعاً. وفيما كانت المعلمة تقوم بعرض مشروعاتها وتطلعاتها المقبلة، كان
بريغانتي يحسب من ناحيته، أن بنتاً مثل فولفيا تغلّ يوماً خمسين ألف لير
على الأقل. أي أكثر مما يغلّ فندق صغير أو ورشة تصليح سيارات متوسطة
الحجم أو بستان زيتون كبير أو ثلاث سيارات شاحنة لنقل البوكسيت. تبقى
الصعوبة الوحيدة أمامه حساب النسبة المئوية للنفقات العامة. فكيف يمكن على
سبيل المثال حساب كلفة تسامح الشرطة؟

حاولت المعلمة التقليل من شأن ذلك النوع من النفقات، سعياً منها وراء
إغراء شريكها المحتمل، بالكشف عن منظورات أرباح فاحشة. فقرر بريغانتي
القيام شخصياً باستفسارات من أصدقاء له في صفوف شرطة المقاطعة.

قالت المعلمة إن تشينتيا ستتولى إدارة المؤسسة الجديدة. وهي رصينة وكفؤة. لكن المرأة هي المرأة. ولا بد من أن يكون وراءها رجل محنك ذو أهمية، لا من أجل تغطية نفقات الانطلاق في المشروع فحسب، وإنما أيضاً من أجل المفاوضات مع رجال الشرطة ومع البلدية والمبتزين.

سمع طرق خفيف على الباب. دخلت فونفيا بثوبها الحريري الأسود وفي يدها ورقة نقدية من فئة العشرة آلاف لير. فأعطتها لبريغانتني قائلة:

- من أول الطريق.

وابتسمت المعلمة فيما قطبت تشينتيا حاجبيها.

قالت فونفيا:

- البقية تأتي بعد قليل.

وتوجّهت نحو الباب.

فسألها بريغانتني:

- كيف فعلت ؟

فالتفتت فونفيا وقالت:

- إنك فتاة قاصر.

قال بريغانتني:

- أغلقي فمك.

- اسمعوا، ويغضب أيضاً!

- أغلقي فمك.

- تركته لتؤي. لقد توسّل إليّ بأن أعود. لو شئت لأخذت الأوراق الثلاثة دفعة واحدة.

زمت تشينتيا شفّتيها دليلاً على عدم الرضى.

قال بريغانتني:

- سأقوم فأكيل لك صفتين على قفاك.

ف نظرت فونفيا نحوه بتهكم وقالت:

- لا تدب حظك. إن ثمانية من كل عشرة رجال هم مثل غلامك هذا.

ثم خرجت وأغلقت الباب وراءها بكل هدوء.

أمسك بريغانتي بورقة العشرة آلاف لير وطواها نصفين طويلاً.

قالت تشينتيا بلهجة جافة:

- ليست سرقة البغي للزبون من شيمتتا ولا من أساليب دارنا.

قالت المعلمة:

- ما جرى كان بالاتفاق بين ماتيو بريغانتي وفونفيا بعد أخذ موافقتي.

فقالت تشينتيا:

- ينبغي ألا تكون قدوة سيئة لعناصر الدار.

قالت المعلمة لبريغانتي:

- أنت تلاحظ دون شك أنها ذات مبادئ.

- اشرحي لها المسألة.

- هل تسمح بذلك؟

- بل أنا أطلبه منك.

قالت المعلمة:

- حسناً، إليك الحكاية. لقد اتفق ابن ماتيو سراً على الهرب من بيت

أبيه بصحبة سيده. فأوكلنا أمر الصبي إلى فونفيا كي تتولى علاجه وشفاءه.

قالت تشينتيا:

- لكن هذا لا يقدم تفسيراً لأخذ المال.

- لقد أعطت السيدة الصبي ثلاثين ألف لير، لتغطية نفقات السفر واستئجار عش صغير ونثریات أخرى. فكلفنا فوفيا بأن تنتزع منه الأوراق النقدية الثلاث، حتى لا يعود قادراً على السفر. وحين تطالبه السيدة بتقديم كشف حساب، سيعود إلى بيت أبيه وذيله بين رجليه.

وسألت تشيننيا:

- وما هوية هذه السيدة المحترمة؟

أجاب بريغانتى:

- إنها زوجة قاض.

قالت تشيننيا:

- لا نريد الدخول في مشاكل مع القضاة .

فقال بريغانتى:

- بل نحن نعيد للأقاضي زوجته.

وابتسم نصف ابتسامة وتعضنت أجفانه قبل أن يضيف:

- والقاضي سوف يشكرنا.

قالت المعلمة:

- كل شيء بنظام، وفوفيا تعيد للأب المال الذي أخذته من الابن.

قال بريغانتى:

- الذي أعطاه إياه.

إلا أن تشيننيا ظلت تزم شفتيها.

قالت المعلمة:

- إنها عنيدة.

فرد بريغانتى قائلاً:

- إنما تريد أن تثبت لي أنها ستكون مديرة نزيهة. على كل حال، كم يلزمكم للبدء بمشروعكم في سيديونتي؟

أجابت المعلمة:

- سوف نقوم بدراسة ذلك: وأنت على ما أرى لست في عجلة من أمرك...
مدّ بريغانتي يده بالورقة النقدية قائلاً لتشينتيا:

- ها هي شمبانيا. ودوري بالكؤوس على الجميع.

خرجت تشينتيا مروراً بالصالة الكبرى. كان الجو معتماً وندياً. ونفذت
خيوط ضئيلة من أشعة الشمس عبر النوافذ فتألفت عند مساقطها الكتابات بلون
الذهب. كانت إحدى الفتيات تحيك الصوف والأخريات يقرأن المجلات المصورة.

قالت تشينتيا:

- السيد بريغانتي يسقي الجميع شمبانيا.

فارتفع صوت يسأل:

- وما المناسبة؟

فقالت تشينتيا:

- بمناسبة عقد قران ابنته.

وسأل صوت آخر:

- على من؟

- على أحد القضاة.

وعادت إلى المكتب تحمل زجاجة شمبانيا في سطل للنلج.

وتبعنها خادمة تحمل الكؤوس.

قالت المعلمة لبريغانتي:

- وهل زوجة القاضي هذه متقدمة في السن؟

- عمرها ثمانية وعشرون عاماً، وجميلة الشكل. بل أفضل من فولفيا بكثير.

- إنَّ ما تُغلِّ فولفيا يظلُّ رقماً قياسيًّا بالنسبة لبنات الدار كافة.

- سبق أن قلتَ لي ذلك. لكن أين يكمن سر نجاحها؟ إنَّ الذي يلقاها في الشارع مصادفة لا يستدير بعد مرورها.

قالت المعلمة:

- إنها ذكية.

فأضافت تشينيتيا معقبة:

- إنها تعرف من النظرة الأولى موضع الخلل في الرجل.

فقال بريغانتي:

- وأنا أجيد رؤية ذلك. لا ريب في أنني لم أنظر إلى ولدي كما ينبغي.

قالت المعلمة:

- لنبدأ أولاً، بشأن مشروعنا، بإلقاء نظرة على الأرقام...

تناولت أحد المصنفات. فسمع طرق خفيف على الباب. وظهرت فولفيا ثانية، ومدت يدها إلى بريغانتي بورفتي العشرة آلاف لير فأخذهما.

- كيف فعلت هذه المرة؟

- إسأل الصغير غداً.

فنهض وأعاد إليها الورتين بعد أن طواهما ووضعهما في يدها وقال:

- إنهما لك. وأنت تستحقين هذا بجدارة.

- شكراً.

- قدمتُ شمبانياً بهذه المناسبة. هيا اشربي مع رفيقاتك.

- سأشرب فيما بعد. أمّا الآن فينبغي أن أعود للانتهاء من طفلك، فأنا

فتاة مستقيمة.

- وكيف جعلك تخرجين؟

فقطرت في عينيه بسخرية وقالت:

- إنه لين العريكة سهل الانقياد مطواع جداً. لا بد أنك كنت شديد القسوة في معاملته. فتعود عادات سيئة. فصارت تروقه السيطرة عليه.

أقرب منها حتى كاد يلامسها وقال:

- الأمر إذن على هذا النحو، وأنت تعرفين كل شيء عن الجميع؟
فقالت:

- وعنك أيضاً.

- لكن ما من أحد فرض سيطرته عليّ مطلقاً.

والثفت ناحية المعلمة ونشيتنيا وقال:

- انتظرائي، فأنا لبعض الوقت بصحبة فونفيا.

فضحكت فونفيا وقالت:

- كلا، يا ماتيو، ليس اليوم.

- لماذا؟

فاقتربت من أذنه وقالت هامسة:

- كي أجعلك تنتظر. فأنت أيضاً سوف تزحف.

قالت ذلك بحيث لا يسمعها أحد غيره. فأجاب:

- لكن أنا رجل.

واقترب ليلتصق بها أكثر. فقالت:

- ما حيلتي. فأدعياء الفدولة ورجال الشرطة، أجعلهم يزحفون
باستكانة. وهذا ما يريدون مني.

وابتعدت ثم قالت بصوت عال وهي لدى الباب:

- انتظرنى قليلاً يا ماتيؤ. ليست إلا دقائق خمس وأبعث إليك بولذك.

رجع ماتيؤ ليجلس إلى الطاولة المغطاة بلوح زجاجي. وقال:

- لنرّ الأرقام...

قالت تشينثيا:

- ما رأيك بفولفيا لدارنا في سيبونتي؟ لو قبلت المعلمة وتخلّت لنا عنها، فإن انطلاقتنا هناك ستكون انطلاقةً صاعدة.

قالت المعلمة:

- لا ينبغي أن نتوقف الآن عند التفاصيل.

وأمضوا ساعة بطولها في مناقشة الأرقام...

ثم قالت المعلمة:

- وابنك، ماذا حل به؟

فقال بريغانتي:

- لا بد أن يكون نائماً. فقد أنهكت فولفيا قواه.

بعثت تشينثيا في طلب فولفيا. فقالت إنها تركت فرانثيسكو في الغرفة وهو يرتدي ملابسه، بعد أن دلته على باب الصالة الصغيرة لانتظار والده، ثم مضت للقاء زبون جاء يطلبها. وسألت تشينثيا الخادمة فقالت إن الصبي خرج من الغرفة بعد فولفيا بلحظات ثم غادر الفيلا على الفور. وأرسلوا في طلب البستاني فذكر أنه رأى قبل ثلاثة أرباع الساعة، الشاب الطويل الذي وصفوه له، خارجاً من الفيلا. ثم سلك الطريق نحو فوجيا سيراً على الأقدام. وسألته المعلمة:

- هل كان يبدو في عجلة من أمره؟ أم كان حائراً مضطرباً؟ هل بدا

يعرف الوجهة التي يقصدها؟

فقال البستاني:

- لا أدري.

لقد كان أمام فرانثيسكو، من حين مغادرته الفيلا قبل ثلاثة أرباع الساعة، متسعٌ كافٍ من الوقت للوصول إلى مركز المدينة. وهناك باصٌ سيتوجّه بعد قليل إلى بينيفان. لا شك في أنّ الصبي سيأخذه متوجّهاً إلى عند خاله مثلما كان مقرراً أن يفعل من قبل. ولم يجد بريغانتي في نفسه القدرة على الصبر حتى المساء، ليتصل هاتفياً بجار الخال، للتأكد من وصول ابنه.

فقال للمعلمة:

- استدعي لي سيارة أجرة.

اتصلت هاتفياً فأقبلت السيارة على الفور. فتوجّه بريغانتي إلى محطة الباصات. كان الباص الأخير على وشك التحرك لكن فرانثيسكو لم يكن راكباً فيه. وقام بجولة على كل الحانات والمنازل التي يعرفه أصحابها. وفي كل مرة كان يعطي أوصاف ابنه. فيأتيه الجواب بالنفي. كلا.

ما من زيون انطبقت عليه تلك الأوصاف.

كان موعد الباص العائد إلى بورتو مناكوري في السادسة والنصف فتوجّه بريغانتي من جديد إلى محطة الانطلاق في السادسة والرّبع، عسى أن يكون فرانثيسكو قد هام على وجهه في المدينة، ثم قرر أخيراً وبكل بساطة أن يعود إلى البيت.

لكن ما في المحطة لفرانثيسكو من أثر.

في الساعة السادسة وخمس وعشرون دقيقة شاهد بريغانتي اثنين من رجال الشرطة من معارفه يتوجّهان نحوه بلباس مدني. فأسرع لملاقتهما وسألهما باهتمام بالغ:

- ابني؟

فلقد تخيل أنّهما أهّبا يخبرانه بوقوع حادث مؤلم.

قال أحد الشرطين:

- لَكُنْ المسألة لا تتعلق بابنك.

فأضاف الآخر:

- لدينا أمر بإلقاء القبض عليك.

وعاد الأول يقول:

- نرجو أن تعذرنا. لكن معنا أمر بالتوقيف.

فقال بريغانتي:

- أروني إياه.

قرأ الورقة بكل تمعن. لم يكن اكتشاف المحفظة مذكوراً فيها. فظن أن القاضي أيساندرو أصدر الأمر، وهو في حالة هذيان من أحد أدوار الملاريا الشديدة. أو أن يكون أحد قد كشف له عن دسيسة دونا لوكريزيا وفرانشيسكو ومغامراتهما الغرامية، فأراد أن يثأر، وهذا هذيان آخر. لقد ارتكب القاضي حماقة. وينبغي التفكير في وسيلة للإفادة منها.

قال أحد الشرطيين:

- علينا أن نأخذك إلى بورغو مناكوري.

وقال الثاني:

- علينا أن نضع القيد في يديك.

فأضاف الأول:

- اصعد معنا في الباص. ولن نضع لك القيد إلا ساعة الوصول.

فقال بريغانتي:

- لكنني أستأجر سيارة.

- لا بأس.

- بقي أنني على موعد مع ابني لأخذ الباص. فهلا انتظرنا قليلاً.

لم يكن الشرطيان في عجلة من أمرهما.
وانطلق الباص دون أن يظهر فرانثيسكو. مضى الرجال الثلاثة معاً
للبحث عن سيارة أجرة.

قبل بورتو مناكوري بقليل تجاوزتهم سيارة حمراء من نوع جوليتا كانت
متوجهة إلى السبخة، تحمل طبيباً اسفدعي على عجل لمعاينة دون سيزار.
دخل بريغانتي السراي والقيد في يديه. فاقادوه حالاً إلى مكتب
القاضي. أجاب على الأسئلة المطروحة باقتضاب شديد. فهو لم يرَ محفظة
السويسري قطعاً. ولا يفهم بالتالي ضمن أية ظروف أمكن اكتشافها في
الملحق التابع لمنزله.

لم تكن المحفظة يوماً في جيبه البتة، فخادم المنهل كان يكذب.
قال له القاضي إنه سيقابله صباح اليوم التالي بجوستو. ثم أوعز باقتياده
إلى السجن ليوضع في الزنزانة الانفرادية الوحيدة.
بعد ربع ساعة دعا به المفوض أنيليو إلى مكتبه وأغلقا على نفسيهما الباب.
- هات ما عندك...

فأجاب بريغانتي:

- سنتولى معاً إيضاح المشكلة بعد قليل... إنَّ ولدي فرانثيسكو قد
اختفى وأنا خائف من أن يرتكب حماقة...

وسرد الوقائع من بدايتها: اكتشاف الرسالة، غراميات دونا لوكريزيا
وفرانثيسكو ومشروع الهروب، الثلاثون ألف لير. كيف اصطحب ابنه إلى
دار المعلمة، حيث تمكنت فونفيا من انتزاع المبلغ منه. أمّا وقد تاب الصبي
إلى رشده، فيمكن أن يكون الخجل من سلوكه الشائن قد دفع به للوقوع في
برائن اليأس.

أذّر المفوض على الفور المنطقة هاتفياً. ثم قال:

- كان الدرس مفيداً. لكنك لقنته إياه بطريقة قاسية بعض الشيء.

وسكت قليلاً ثم أضاف يقول:

- علمت قبل قليل أن دونا لوكريزيا قابلت ابنك يوم أمس في مغارة التوسكانيين قرب الترابوكو. لقد شاهدهما أحد الصيادين معاً فوق الشاطئ الصغير عذد أسفل غابة الصنوبر. لم أشأ في البداية أن أصدق ذلك عن لوكريزيا... لقد أخطأت كثيراً لأنني لم أوليها اهتماماً من قبل. لاشك في أنها تجيد فنوناً عدة. ولو فعلت ذلك لوفرت عليك وعلى ابنك متاعب كثيرة... أمّا الآن فهاث نتحدث عن المحفظة.

- أقول لك كلمتي، أنا بريغانتي، كلمة رجل وقول شرف، ليست لي بالسرقة من علاقة البنة. لا بصورة مباشرة ولا غير مباشرة...

- كان رأيي فيك أنك أكثر ذكاء من أن تلوّث سمعتك في قضية على هذه الشاكلة. لكنك أنت الوحيد الذي خبأت المحفظة في... شفتك الصغيرة في البرج.

- أنا خبأتها.

- ألا تعرف أين المال؟

- لا أعرف بعد.

- لماذا عرضت المحفظة أمس أمام عيني جوستو؟

- لم أكن أعرف أنها في جيبتي.

- من الذي وضعها في جيبك؟

- لا أعرف من هو.

- هل أنت تتستر على أحد؟

فكر بريغانتي هنيهة.

- إن كنت تعرف السارق، ستجد مشقة كبرى في الإثبات أنك غير متواطئ معه.

- لا أعتقد أن السارق هو الذي دسَّ المحفظة في جيبِي.
- عرفتكَ على الدوام فطناً محترزاً. أمّا الآن فأشعر بأذكَ تنقّاد لتأثير خارجي.
- وإني لأتساءل من قبل من...
- أجاب بريغانتي:
- إني لا أرى الأمور بوضوح حتّى الآن.
- ألا تستطيع أن تشرح لي المسألة فيما بيننا.
- ليس بعد.
- من الذي خدش خدك؟
- لا علاقة لهذا بذلك.
- هل دخلت في عراك مع أحد ما؟
- فقال بريغانتي:
- كلا. لكنّها عذراء كنت أغتصبها.
- فقال المفوض:
- لم نحالفنا الحظ في علاقتنا مع العذارى.
- خذ جوزينا إلى مكان ما. أوسعها ضرباً ثم اغتصبها. وبعدها لن نفكر فيها أبداً...
- لم أتعوّد ذلك.
- تحوّل إذن للاهتمام بامرأة أخرى.
- إني أحاول. وستكون لوكريزيا مهزومة حين تعلم كيف أن ابنك...
- تغصّن جبين بريغانتي.

«ألا كم يحب ابنه». قالها المفوض في نفسه مسروراً لأنه اكتشف صدعاً في قوة بريغانتلي. وتساءل ما إذا كان لفرانشيسكو علاقة ما بسرقة النصف مليون لير، وهذا يفسر ذلك التكتّم كله من جانب الأب.

واستأنف يقول:

- إن لوكريزيا...

مدّ بريغانتلي يده بسرعة إلى عانته، فعلى هذا النحو يتم طرد العين الشريرة وتفادي خطرهما. وهو يتخيل الآن أنّ زوجة القاضي كتبت سحراً وألقته على فرانشيسكو. شعر المفوض بالأسف لأنه استخف كثيراً بالعذاب، الذي أوصل أعقل رجل النقي به على الإطلاق، إلى عالم الخرافة وفساد العقل.

وسأله:

- هل بقي في حوزة ابنك من مال؟

- في حدود الخمسة آلاف لير أعطيته إياها مصروف جيب...

- سوف يعود بعد أن ينفقها كلها. فذبح معتادون على هذا النوع من الهروب.

تغضن جبين بريغانتلي ثانية. قال:

- ليس فرانشيسكو على شيء من الصلابة التي كنت اتسبها إليه.

فسأله المفوض بسرعة:

- ما الذي يجعلك تقول ذلك؟

- لقد سيطرت عليه فوئياً بمنتهى السهولة.

وخاب ظنّ المفوض. ذلك أنه كان يأمل بأن قضية السويسري هي التي ستطرح على بساط البحث من جديد.

قال:

هذا طبيعي في مثل سنه.

فقال بريغانتلي:

- سوف أحطمه تحطيماً. فالدراسة انتهت. سأحاوله للعمل على واحدة من سياراتي الشاحنة في منجم البوكسيت. ولسوف يعمل اثنتي عشرة ساعة يومياً. فياكل في منتدى العمال. وينام فوق حشية من القش في المستودع ليخف وزنه ويصبح نحيفاً. فهو فائق السمعة بالنسبة لسنة. كان عليّ أن ألاحظ ذلك من قبل.

- من قبل ماذا؟

- من قبل فولفيا.

نظر إليه المفوض مستفسراً. فرأى فجأة، ولأول مرة منذ عشر سنين، التقياً في بحرهما يومياً، عيني بريغانتي والوهن فيهما.

قال بريغانتي:

- أرجوك، إبحث عنه واعثر عليه.

- طلبت ذلك هاتفياً.

- إذا ما علم أنني موقوف.. فقد ينتابه مزيد من الإحساس بالعار. إنني خائف...

فقال المفوض:

- لا بالتأكد. ولا بدّ من أن يكون في هذه الساعة مرمياً في إحدى الحانات وقد تعتبه السكر. فالهاربون من أمثاله ليسوا شيئاً جديداً علينا. وكلهم يتصرف بالطريقة نفسها.

ونهض المفوض وقال:

- سأهتف بعد قليل إلى فوجيا ثانية لكي يضاعفوا عمليات البحث. أنا مثلاً الآن بإعادتك إلى زنايتك. لقد تحدثنا أطول مما ينبغي. ولسوف يقول معاوني:

إننا اتفقنا معاً على خطة واحدة.

قال بريغانتي:

- كلا. لقد قمتَ باستجوابي. وهذا مشروع.
- ثم نهض. وعادت نظراته صرامتها المعهودة.
- وبماذا أجبتني أنت؟
- بمثل ما أجبت القاضي تماماً. فأنا لم أرَ المحفظة. ولم تكن في جيبى مساء أمس وجوستو قد كذب.
- هل رأها وحده فقط؟
- أجل. فوقفتي آنذاك لم تتح للزيائن رؤية شيء مطلقاً. على أية حال لن يجرؤ أحد على أن يشهد ضدي.
- ابتسم المفوض وقال:
- فهمت. فقد لفق جوستو الحكاية كلها وافترى عليك.
- لو أنني مكان الشرطة لكان هذا اعتقادي.
- ولكن كيف استطاع دخول البرج لكي يخبئ المحفظة؟
- وفكر بريغانتي برهة من الزمن. ثم قال:
- إليك كيف.. لقد سرق جوستو مني المفتاح.. ذات مساء من الأسبوع الفائت.. كان في جيب سترتي الزرقاء البتروولية... بعد أن بسطتها على مسند الكرسي... وقد ابتعدت قليلاً للتحديث مع بيزاشيو.. ثم أعثر على المفتاح من بعد.. فظننتها إحدى عمليات «الواليوني»... لم أخبر بالمسألة غير بيزاشيو... ثم نسيتهما تماماً... وسوف أتذكر كل هذا بعد عثور الشرطة على المفتاح واستجوابي بهذا الشأن... وأيضاً بيزاشيو سوف يذكر.
- وأين ستعثر الشرطة على المفتاح؟
- فأجاب بريغانتي:
- فوق أرض المنهل، غداً، في حدود الساعة الحادية عشرة... سوف يسقط المفتاح من جيب جوستو وهو يقدم كأساً إلى بيزاشيو.

فقال المفوض:

- كلا. فالتقاضي نفسه يعلم أن بيزاشيو ساعدك الأيمن.
- أثناء تقديم جوستو الكأس للأسترالي. رجال الشرطة الجالسون إلى مائدة مجاورة سوف يلتقطون المفتاح. فتجذب انتباههم بطاقة صغيرة معلقة به ومكتوب عليها «بوابة مستودع البرج الصغيرة».

قال المفوض:

- سيرفعون إليّ تقريراً بالواقعة ويسلمون المفتاح للتقاضي.
- قال بريغانتي:
- وأنا أمامي الليل بطوله للتفكير. فبودي أن أساعدك في العثور على سارق النصف مليون لير. سيكون بمكانة درجة تقدير تسجل في إضبارتك. وربما ينتهي بك المطاف إلى الحصول على الأمر بالنقل...
- إن ما تعرف عن القضية يزيد عما قلت لي.

فقال بريغانتي:

- إني على الطريق، على الطريق ليس إلا...
 - لو كنت في سلك الشرطة لتفوقت عليّ.
 - أجل. وذلك لأنني أشدّ أمانة منك. فأنا أعمل لحسابي.
- فقال المفوض:
- سوف أوعز بحمل طعام العشاء إلى زفرانتك. هل تريد نبيذاً؟

أجاب بريغانتي:

- كلا. إذ ينبغي عليّ في هذه الليلة أن أفكر.
- وابتسم ابتسامته المبتورة وتغنضت أجهانه. ثم أضاف:
- سوف أعمل في هذه الليلة لحسابك.
- واستدعى المفوض معاونه وقال:

- اصطحب المتهم.

فقال معاون لبريغانتني:

- اتبعني.

قال بريغانتني:

- سيدي المفوض، أطلب منك ألا تنسى...

والدقت نظرات الرجلين.

- الولد...

وشد قامته بصلاية وسار وراء المعاون.

حين أصبح بريغانتني وحيداً في زنزانته مع رئيس الحرس، وهو أحد
المدينين له، سأله قائلاً:

- في أية ساعة تنتهي فترة مناوبتك؟

أجاب السجان:

- لقد انتهت. وأنا هنا الآن من أجلك فقط.

- عليّ أن أتحدث إلى بيزاشيو.

- سأذهب كي أحيطه علماً. لكنه لن يتمكن من الحضور قبل منتصف
الليل. فهنا حارس لا أثق به كل الثقة. لذا سأدفع له ثمن مشروب، ويلزمني
وقت لا بأس به حتى أجعله ينام.

فقال بريغانتني:

- منتصف الليل، لا بأس.

رأى المفوض أنيليو من نافذة مكتبه، القاضي أيساندرو خارجاً من
السراي للقيام بجولته المعتادة بعد العشاء. فكتب إلى دونا لوكريزيا كلمة
موجزة طالباً إليها الحضور إلى مكتبه رغم الساعة المتأخرة. ولما كانت قد
علمت بتوقيف ماتيو بريغانتني فقد نزلت حالاً.

قال المفوض:

- يا صديقتي العزيزة، إنَّ العاملين في أجهزة الأمن يطَّلعون بحكم طبيعة عملهم، على كثير من أسرار الحياة الخاصة. لكنَّهم ملزمون بدافع من شرف المهنة، ومن الصداقة أحياناً، على التظاهر بجهل تلك الأسرار. أمَّا اليوم فإنَّ الشرف والصداقة يدفعان بي إلى التحدث إليك بصراحة... فأنت استودعت غلاماً ثقةً ومالاً، لكنَّه لم يكن أهلاً لتثقتك...

ولخصَّ لها تفاصيل القضية على طريقته، دون أن يخبرها باعتراف ماتيو بريغانتني. وكأنَّه قدَّم تقرير شرطة، دون أن يضيف عليه أي تعليق. فالشباب فرانثيسكو أمضى فترة بعد الظهر في إحدى دور المتعة في فوجيا، حيث أنفق كميات من المال لا تتناسب مع إمكانياته. وقد عثر معه على رسالة من دونا لوكريزيا، يُفهم من فحواها أنَّها عشيقته، وأنَّهما وضعا خطة للرحيل معاً نحو مدينة في الشمال. وأنَّه أخذ منها مبلغاً يصل إلى ثلاثين ألف لير وما لبث أن وهبه لإحدى بنات الهوى.

كانت دونا لوكريزيا جالسة قبالة المفوض أتيليو، تصغي بصمت متماسكة الأعصاب، مستقيمة الجذع.

وقد اختفى فرانثيسكو على أثر ذلك، والرسالة، للأسف، في حوزته. والشرطة تبحث عنه الآن، واتخذ المفوض من جانبه كافة الاحتياطات من أجل إتلاف الرسالة إذا ما عثر عليها مع الصبي أو أن يتم تسليمها إلى دونا لوكريزيا شخصياً.

وسألته قائلة:

- ولماذا تقوم الشرطة بالبحث عنه؟

ورد المفوض باللهجة المفصلة «الموضوعية» نفسها، التي سرد بها تقريره (المزور).

- إنَّ الضيق الذي سينتابه من الظهور ثانية أمامك، مضافاً إليه الانفعال والتأثر لعلمه بأن أباه موقوف بتهمة السرقة...

وهبت واقفة وصاحت:

- هل انتحرت؟

- كلا.

- أنت لا تجرؤ على أن تقول لي ذلك.

فرد المفوض قائلاً بحزم:

- كلا. لقد اختفي. ونحن نبحث عنه. هذا كل ما في الأمر.

- ألسنت تخفي عني شيئاً؟

- أقول لك كلمتي قطعاً.

- أتليدو، لا بد من العثور عليه. لا بد. إنه ولد.

- لم أكف عن الاتصال هاتفياً بكافة جهات المقاطعة.

- قد تعرف تلك الفتاة مكانه.

- لا نعتقد ذلك.

- لا بد أن لديكم فكرة عما يمكن أن يفعل.

- إننا نبحث.

فقالت بإلحاح:

- أخبروني لمجرد علمكم بمكانه. ومهما كان الوقت متأخراً. أيقظوا المنزل كله.

فقال محتجاً:

ولكن...

فصاحت قائلة:

- سأصرخ بملء صوتي، وأعلن عن حبي أمام المدينة كلها، وعلى رؤوس الملأ والأشهاد.

- يا صديقتي العزيزة...

فقلت:

- اعثروا عليه.

ثم خرجت. وسمعتها تصعد الدرج بسرعة. وسمع الباب يغلق في الطابق الرابع.

بدأ يوبخ نفسه لأنه أمضى هذه السنين كلها، قريباً كل القرب من دونا لوكريزيا، فيلذقي بها يوماً تقريباً، دون أن يضمن مدى الاندفاع الكامن فيها. فكل العنف العاطفي الذي أبدته، وكل ما ظهر عليها من عفوية الحب، يضعانها في مرتبة أعلى بكثير من كافة العشيقات اللواتي عرفهن. فقام على الفور بوضع خطة عمل. سوف يحافظ يوم غد، وفي الأيام التالية، على اللهجة نفسها التي اصطنعها هذا المساء، بوصفه موظفاً كدوماً ذا منصب مرموق. مع إفساح المجال أمامها لاكتشاف عمق مشاعره نحوها، عن طريق بعض التفاصيل الصغيرة، كالتعجيل في اطلاعها على آخر المستجدات، والحرص على إبعاد المصطادين في الماء العكر، وحرارة المصافحة والتكتم النزيه. لا بد من كسب ثقتها بشكل منظم، والفوز بحق الإصغاء لمكنونات صدرها. وينبغي بعد العثور على فرانثيسكو وعونته صاغراً إلى مناكوري، عدم الإشارة إليه بأصابع الاتهام، بل الوقوف موقف المدافع عنه. والانتظار حتى تفتح دونا لوكريزيا عن طريق تجربتها الخاصة، بذوعية عشيقها المهلهلة وسلوكه الجبان. إلى أين ستتوجه بعد كل ذلك، بحثاً عن سند وملجأ، إن لم يكن إلى عند صديقها المخلص، والرجل الحقيقي الوحيد الذي تعرف، إلى عنده هو؟ وبعدها لا يبقى له غير الانتقال إلى مرحلة الهجوم، فالغزو.

نهض من على مقعده، ومشى إلى وسط المكتب، وبدأ في تأدية بعض الحركات الرياضية: اليد اليمنى تلمس رأس القدم اليسرى دون طي الركبة وبالعكس. هبوط وصعود بثني الركبتين، والجذع منتصب. «أنا في أحسن حال. الجنوب فيه كنز، وأنا سأحصل عليه. إنني أحسن بالجوع».

ترك مكتبه وصعد إلى بيته الأعلى بطابقين. كانت أنا جالسة تشتغل
بحياكة الصوف وجوزينا بصحبتهما.

قالت جوزينا:

- طاب مساؤك سيدي المفوض.

فأجاب دون أن ينظر إليها:

- طاب مساؤك.

وفكر في أنه سوف ينال هذه أيضاً بعد ثلاثة أشهر من التظاهر بالبرود
وسوف تسمح له تلك بالانتظار.

وسأل قائلاً:

- ألا نجلس إلى المائدة؟

فقالت جوزينا:

- إذن، أنا ذاهبة.

فقال المفوض:

- تحية للأهل.

ثم قال لزوجته:

- أنا جائع يا عزيزتي. بل أموت من الجوع.

قاربت الساعة الحادية عشرة صباحاً، حين استيقظت مارييت وبيبو من
رقادهما فوق الأكياس، في مستودع بستان البرتقال والليمون، والساق تلتف
بالساق، وأيديهما متشابكة، على مثل حالهما حين استسلما للنوم عند الفجر.

فأرسل بيبو الاثنين من الواليوني المكلفين بصيانة الأقنية الترابية،
لشراء خبز ولحم مجرد من مناكوري. ثم تسلق شجرة تين وأخذ يقطع أولى
ثمار الموسم. وذهبت مارييت إلى حوض النبع فملأت الإبريق ماء.

كانت الغلبة ليلاً للسيروكو على الليبيشيرو فترجع رتل الغيوم بعيداً جداً في البحر وأصبح فيما وراء الجزر. واختلط عند الأفق مع البحر ليصير خيطاً ضئيلاً يشير فقط إلى الفاصل بين السماء والبحر. أما تحت أشجار البرتقال والليمون والتين فالجو أميل للبرودة.

أكلت ماربيت وبيبو بشهية عجيبة. ثم دخلا المستودع وأغلقا الباب واستأنفا ما انقطع من ملامسات الحب وحركات الوصال، وهما ينتشيان عجباً لتلك الحركات البسيطة كيف دفعهما وجداً.

لم ينزل بيبو إلى بورتو مناكوري ثانية إلا حين أقبل الليل. وعلم على الفور من الواليوني المقيمين في السبخة أن دون سيزار أصيب بشلل في الذراع والساق منذ مساء الأمس، وإن طبيباً وصل تدوّه من فوجيا لمعاينته وهو طبيب شهير لا يندقل إلا مقابل آلاف الليرات، وقد جاء في سيارة ألفا - روميو من صنف جوليتا، حمراء اللون، يقودها شاب فتي جداً. ألا كم هو محظوظ ذلك الشاب!

وقال الواليوني القادمون من السبخة إن دون سيزار لم يكف عن طلب ماربيت، وإنه يريد أن يكون علاجه على يدها.

وعلم بيبو أخيراً بأن ماتيو بريغانتني شوهد نازلاً من سيارة أجرة، مقيد اليدين، يرافقه شرطيان بلباس مدني، بعد أن وشى به جوستو، خادم منهل نادي الرياضة. وإنه أثناء تفتيش منزله بعد الظهر عثر على المحفظة المسروقة من السائح السويسري، لكن لم يعثر على الخمسمئة ألف لير.

صعد بيبو إلى البستان ثانية حاملاً هذه الأحداث كلها لماربيت وانتهى إلى الاستنتاج التالي:

- لقد قام أحدهم بتفريق تهمة ضد بريغانتني. وإلا فكيف يقال إن المحفظة وجدت عنده؟

فكانت ماربيت:

- ذلك إذّها عنده حقاً.

فأسرع بيبو نحو كومة الأكياس ورفعها وبحث فلم يجد المحفظة.
قال:

- كيف تفسرين ذلك؟

فروت له ماربيت كيف قامت بتبديل المحفظتين قبل أن تعيد لبريغانتني
الموسوم سترته المخملية الزرقاء البترولية.

- لمّ لم تخبريني بذلك من قبل؟

- كانت في ذهني خطة.

فقال بيبو باحتجاج:

- لديك دائماً خطة. أمّا أنا فلا أرى إلا شيئاً واحداً، ذلك أنّ بريغانتني
بات يعرف الآن أننا نحن الذين قمنا بعملية السويسري.

فقالت ماربيت:

- يا قليل العقل، من هو الموقوف من قبل الشرطة ؟ نحن أم بريغانتني؟

- سوف يشي بك.

- لكن ليست محفظة السويسري في حوزتي أنا.

- سوف يجدون المال.

- فليقوموا بالبحث.

- ألن تقولي أين خبأته؟

- لا يزال عقلك صغيراً جداً.

- وماذا فعلت بمحفظة بريغانتني؟

- طمرتها في الأرض.

فردد بيبو قوله:

- إنني لا أفهم، إنني لا أفهمك...

ولكن كيف تمكنت مارييت من غير أن تغادر المستودع - فهو يعرف حق المعرفة أنها لم تغادره - من حبك المكيدة التي أدت إلى تفتيش منزل بريغانتي في مناكوري ثم إلقاء القبض عليه في فوجيا ؟ وبقي مع ذلك غير مرتاح أبداً لتدخل الشرطة في القضية. فلم فعلت مارييت ذلك ؟ وكيف؟

وألح في الاستفسار:

- أوضحي لي.

أدخلت مارييت أصابعها في صفائر الغلام السوداء وقالت:

- لذي خطة في رأسي.

ثم أضافت:

- ينبغي أن أرجع الآن إلى البيت. وأنت سترافقني. سذقوم بالدوران حول بساتين الزيتون، كي نتحاشى المرور في مناكوري، حيث لا ينبغي لأحد أن يرانا لبضعة أيام. أنت ستمضي لتختبئ في برج شارل كان. وأنا سأحمل الطعام بنفسي إلى هناك.

كان الطبيب القادم من فوجيا إنساني الفزعة والتفكير، وليس أمثاله بقلائل في جنوب إيطاليا، فالاختصاصات العالية هناك، لا تبلغ حد الوقوف حائلاً بين الطبيب وبين أن يكون له مفهومه الخاص عن العالم. ولقد ربطته بدون سيزار أواصر معرفة قوية منذ أكثر من عشرين سنة، وهو يكنّ له كل التقدير لأنه رجل ذو ثقافة عالية، فقد رأى فيه صورته. ولم يجد من ضرورة لإخفاء الحقيقة عنه. فهو مقتنع بأن من يبلغ حداً معيناً من الثقافة لابد من أن يتجاوز الخوف من معرفة الحقيقة والجزع من الموت. كان الاثنان ماسونيين حسب الطقس الاسكتلندي لكنهما ملحدان.

امتدّ الشلل من الأطراف ليصيب النصف الأيمن كله باستثناء الوجه. وكان هنالك خدر خفيف يعيق حركة الفك من غير أن يمنع دون سيزار من الكلام حسب عاقته.

فحص الطبيب القلب فلم يسجل أي تضيق تاجي أو أية آفة أخرى يمكن أن تولّد جلطة دماغية.

سلّط على العين نوراً قوياً، فرأى أن البؤبؤ لم يعد يتضيق أو يتقلّص بالذور. ثم جعل دون سيزار يقرأ، مبعداً الكتاب عن عينيه تدريجياً. فوجد أن البؤبؤ يتكيف مع المسافة.

وقاس حرارته فكانت ثمانياً وثلاثين درجة وعشرين.

سأل الطبيب المريض إن كان قد أصيب بمرض زهري في حياته. فأجابه إن ذلك قد حصل قبل خمسة وعشرين عاماً، وإنه تلقى العلاج وفقاً لطريقة المعالجة آنذاك. وهل أصيب بعدها بنكسات؟ يفترض أن لا، وإن يكن غير متأكد تماماً. فهو على أي حال لم يلحظ شيئاً ولم يستشر طبيباً قط. وكلما أحسن بدوئك تناول شيئاً من الكينين، على نحو ما كان يطلب إلى فلاحيه وصياديه أن يفعلوا في الحالات المماثلة. لأن كل ما يصيب الجسم من آلام، يُنسب في السبحة إلى البرداء.

أجل، سبق أن انتابته حالات من الوهن والإحساس بالخدر. وكانت ساقه اليمنى أو ذراعه اليمنى لا تطاوعانه أحياناً، لكن بشكل نادر. إلا أنه لم يصب بالرجفة قط بل ظلّ حتى يوم أمس أمهر صياد في المقاطعة. يبقى أنه كان يشعر أحياناً بتنميل في قدمه أو يده.

قام الطبيب بعملية بزل قطنية وأخذ عينة من الدم. ولن يقول رأيّه إلا بعد إجراء التحاليل.

وسأله دون سيزار:

— أنت الآن تضع فرضية؟

قال الطبيب:

— أجل، شلل نصفي على مراحل، ذو مصدر زهري قديم.

— وما تشخيصك؟

- احتمال الشفاء ضئيل.

وأوضح الأسباب بلغة طبية تعود إلى مطلع هذا القرن، وتقع مصطلحاتها ومذلولاتها في متناول كل رجل ثقافة.

ولدت فكرة الموت المرتقب نوعاً من الإثارة في نفس دون سيزار. فلأول مرة منذ سنين، ومذ أن فقد الاهتمام، أخذ يتأمل بصوت عال. فالممتعة التي تولدها عشرة النساء لم تخبّ ظنّه البتّة، وميله إليهنّ لم يُصَبّ بوهنٍ قطّ. وفي اللحظة نفسها التي أصيب فيها بالشلل، كان قد عقد العزم على أن يستضيف في سريره، أكثر فتاة في داره حسناً وفتنة. وكما يسقط الجندي على أرض المعركة، وجد نفسه يهوي صريع جراحه بعد أن استبسل وجهاً لوجه في معركته المفضلة، معركة الحب. رأى أنّها ميتة مشرّفة. إنّ حاضرة أوريا القديمة كانت مكرّسة لآلهة الحب فينوس (الزهرة). وها هو آخر سيد من أوريا، بعد أن أمضى السنين الطوال ينبش من تحت الرمل وينتزع من قلب السبخة آثار تلك الحاضرة النبيلة ورسومها، يموت بداء فينوس «الزهري»، فتنتهي حياته من غير ما تافّر.

قدّر الطبيب بينه وبين نفسه أنّ داء الزهري لا يستحقّ تلك الذفحات الشعاعية كلّها. لكنّه سعد برؤية صديقه متماسكاً أمام الموت. فاللحظة الأخيرة وحدها هي التي ترسّخ لدينا بشكل نهائي فكرة نحملها عن مزايا الرجل. وها هو دون سيزار يقدّم البرهان الآن على أنّه رجل المناقب والمزايا.

سأل كم تبقى من الوقت لتصرف شؤون بيته. فالمرض يتقدّم مسرعاً والحرارة بدأت ارتفاعها. لم يكن بوسع الطبيب أن يعده بأكثر من أربع وعشرين ساعة من صفاء الذهن والقدرة على التعبير. والواقع أنّه لا يستطيع تأكيد أيّ شيء. فالعبيّ يمكن أن يطرأ بين لحظة وأخرى. وسوف يعود صباح غدٍ حاملاً نتائج التحاليل.

في هذه الأثناء كان يتجمّع في القاعة الكبرى، تحت غرفة دون سيزار، كل من جونيا وإلفيرا وماريا وطونيو وعدد من أولادهما، وهم يتنون التسابيح

من أجل شفاء سيدهم. كانوا واقفين حول الطاولة الكبرى من خشب الزيتون،
فيهم طونيو مكتوف اليدين فيما أطبقت كل من النساء كفاً على كف.

كانت جوليا تبدأ التلاوة قائلة:

«السلام عليك يا مريم، يا ممثلة نعمة، الرب معك، مباركة أنت في
النساء ومباركة ثمرة بطنك يسوع».

ثم تصمت لتتابع في سرها مع الآخرين:

«يا قديسة مريم، يا والدة الابن الحبيب، صلي لأجلنا نحن الخطاة،
الآن وفي ساعة موتنا».

ثم يعلو صوت الجميع وجوليا معهم قائلين:

«كوزي سيّا» (أمين).

وتستأنف جوليا التلاوة قائلة وحدها: «السلام عليك يا مريم...»

أمّا الكنيسة النابوليتانية الكبرى من القرن الثامن عشر ذات المساند من
الخشب المحفور المذهب، فقد أبعدت عن الطاولة. ووُضعت وحدها فارغة،
في منتصف القاعة.

تجمع الرجال القادمون من أكواخ القصب ومعهم الأولاد في السهلة
الترابية أمام الدرج الخارجي للدار ذات الأعمدة، متحّقين حول سيارة
الطبيب، الجولييتا، سائلين السائق الشاب، مستفسرين عن مزاياها الفنية
وخصائصها. أمّا نساء الصيادين فكنّ متجمّعات ينتظرن عذد أسفل الدرج.
وبرزت مارييت من وراء سياج الخيزران فدارت حول جمع الرجال وشقت
طريقاً لنفسها بين النساء، وصعدت الدرجات بسرعة، ثم انسَلَّت لتقف بين
طونيو وأحد الأولاد أمام الطاولة الكبرى. وضمت يديها واحدة لأخرى.

وأكملت العجوز جوليا قولها:

«ثمره بطنك يسوع».

فتمتت مارييت مع الآخرين همساً:

«يا قديسة مريم، يا والدة الابن الحبيب...»

وسمعوا وقع خطى الطبيب نازلاً على الدرج. فسكتوا.

واستداروا نحو باب الممر.

حدّق الطبيب فيهم، باحثاً عن تلك الفتاة التي عقد دون سيزار العزم على استضافتها في سريره، قبيل أن قيّد مرضاً فينوس حركة ذراعه وساقه، فتوقفت عيناه عند مارييت، فتوجّه بكلامه إليها قائلاً:

- سأعود غداً صباحاً. أمّا الآن فلا أستطيع أن أبدي رأيي.

ولاذ بالصدمت لحظة ثم أضاف:

- الأمل ضعيف جداً.

ثم خرج. ونذّت عن إلفيرا صيحة توجع طويلة.

فقالَت العجوز جوليا:

- اخرسي.

ورفعت يدها لتلمس قرناً صغيراً من المرجان، تعلقه تعويذة في عنقها مع أيقونة العذراء.

«اخرسي. إياك والبكاء. لا سيّما أن الموت لمّا يدخل البيت.»

وصعدوا إلى غرفة دون سيزار فتجمّعوا حول السرير ذي القبة.

أجال عينيه فيهم بصمت، حتى استقرّت على مارييت.

قال:

- ها أنتِ قد عدتِ أخيراً.

كان جالساً فوق السرير مستنداً إلى عدد من المخذات. أمّا ذراعه اليمنى التي باتت عاجزة عن الحركة، فقد أراحها فوق ثكأة من الحرير الأبيض والذهبي.

كان طونيو قد خلق له ذقنه مثلما يفعل كل صباح. أمّا شعره الأشيب الذي قامت إلفيرا بتمشيطة فيتوّج جبينه بانتظام كالعادة. وبرز طرف منديل حريري أبيض من جيب سترة النوم الزرقاء الغامقة، وهي من الحرير أيضاً. أسرعت مارييت لتجتو على ركبتيها قرب السرير وأخذت تقبل يده اليمنى.

- سامحني، يا دون سيزار، سامحني.

وأغرقت يديه بدموعها.

تبسم وهو ينظر إليها ثم قال:

- هذه هي أوامري: إنّ مارييت هي التي ستقوى العناية بي. هي وحدها. أمّا أنتم فعليكم الانتظار تحت. على طونيو أن يهيء اللامبريتا، ويبقى طول الليل مستعداً للذهاب إلى حيث تقتضيه الضرورة. وسوف نقول لكم مارييت ما ينبغي عليكم أن تفعلوا وما إن كنت بحاجة إليكم.

وخرجوا في سكون. إلا أنّ العجوز جوليا توقفت عند العتبة لتقول:

- يا دون سيزار. ينبغي أن ترسل في طلب كاهن.

- أصغي إليّ جيداً، يا جوليا...

لقد تكلم دون غضب، لكنّه شدّد على الكلمات حتى لا يعودوا إلى إثارة غيظه ثانية.

- ... ما تزال لديّ ذراع أحركها ولم يُضرمني يوماً إطلاق النار بيدي اليسرى. إنّ يدخل كاهن بيتي، وأنا على قيد الحياة، أوجّه رشقة من الخردق إلى قفاه.

فرسمت جوليا إشارة الصليب وخرجت. وبقي وحده مع مارييت الجائشة بقرب السرير، وشفتاها على يده اليمنى تقبلها باكية وتقول:

- سامحني، يا دون سيزار.

كم ودّ لو يسحب يده ليضعها على رأس الفتاة ويمسح على جبينها لكن يده ما عانت تطاوعه.

قال لها:

- هيا انهضي وتحولّي إلى الناحية الأخرى من السرير.
- فهمضت وتحولت إلى الناحية الأخرى من السرير، على يسار دون سيزار.
- خذي كنبه واجلسي.
- فأخذت كنبه وجلست عذد رأس السرير.
- أعطني يدك.
- مدّت له يدها الندية ليضعها في يده الملتهبة.
- أمّا الآن فهاتِ حدثيني عما فعلت طول هذين اليومين.
- فوضعت عينيها في عينيّه. ثم أجابت:
- لقد مارستُ الحب.
- نظر إليها متبسّماً.

- وهل بوسع فتاة أن تفعل ما هو أفضل من ذلك؟
- وشدّ على يدها. ثم قال:
- تبسّمي لي.

تبسّمت له من خلال دموعها. وأصنّ بيدها الندية ترتاح داخل يده الملتهبة.

قال:

- كنتُ أملُ أن أتولّى بنفسى تعلّمك فنون الحب. لكنني لم أقرّر إلا بعد فوات الأوان. لكن قولّي لي على من وقع اختيارك صديقاً.
- على بيبو، زعيم الوالديوني .
- الصبي ذي الصفائر السوداء النازلة على جبهته؟
- أجل.
- إنّه وسيم وممّلى حيوية بكل تأكيد. لقد فزتِ لأنني قرّرتُ بعد فوات الأوان.

فهتفت مارييت بحماس:

- لكنني أحبك، يا دون سيزار.

ومالت بجذعها نحوه، وعيناها متوهجتان، دون أي تحفظ ونظر إليها دون سيزار في سكون.

رأى أنها صادقة وغير صادقة. وأن هنالك أشكالاً عديدة للحب. وأنه لم يعد يعطي هذه الكلمة، منذ سنين عديدة، معناها المطلق والتقديسي إلى حد ما، حسبما يسبغه عليها صغار العشاق. وأنه منذ عشرات السنين لم يقل في نفسه «أنا أحب» بمعنى الفعل اللازم والقائم بذاته، على نحو ما فعل بحماس غامر حين عرف عاطفة الحب لأول مرة. وأنه لصحيح ما قالت مارييت، فهي قد أحبه حقاً وبطريقة ما، وأن الفتاة قد تمثلت فيه، صورة كافة القيم التي علّموها أن تحترمها وأن ترهبها وأن تحبها، منذ نعومة أظفارها. ففيه تتجلى صورة الله الأب، حين يكون على كنبته النابوليتانية الكبرى ساكناً، مغرقاً في التفكير، مصدراً لأوامره لرجال داره وأهل بيته. كما يمثل صورة الإله الابن وهو يلاطف فتيات بيته مداعباً ويدللهن ويغجنهن. وصورة الروح القدس وهو يعلم ويحسب ويرعى. وتمنى لو كان في فكرها شبيهاً بآلهة اليونان زيوس وفيبوس وهيرميس، لكنهم لقدوا الفتاة مبادئ الميثولوجيا الأخرى. وأنه ما يزال اليوم أيضاً، وهو جالس فوق السرير الكبير، نصف مشلول بتأثير مرض فينوس، يفرض الرهبة ويوحى بالتبجيل ويحظى بالحب. وهي الوجوه الثلاثة لشعور واحد ليس له اسم. لكنه يشكل رابطاً أقوى من المشاعر الأخرى كلها وهو الأكثر قرباً من الحب المطلق الذي يطمح إليه جميع العشاق دون جدوى. إن الحب الذي صرحت له مارييت به الآن، أقرب بكثير إلى الحب المطلق، البعيد المنال، الذي يطمح إليه العشاق، منه إلى الحب الظرفي الطارئ الذي يربطها بصديقها الفتى، إلا أنها ما كانت لتعرف ذلك.

على ذلك النحو كان يفكر دون سيزار وهو ينظر إلى مارييت باكية بصمت عذد رأس سريره، وينظر أيضاً إلى ذاته من خارج ذاته بعيون الفكر مثملاً اعتاد أن يفعل، فيما ذراعه اليمنى موضوعة فوق تكأة من الحرير، ويده اليسرى تمسك بيد الفتاة. ونظره يستقر عليها.

أمّا عن مباحج الحب، فكان سيعرف الفتاة على عالمها، بشكل ممتع ورائع يفوق قدرات عشيقها الشاب، ذلك أنه هو، دون سيزار، الجبار واللطيف مثل زيوس، الذي حين يُرعد تهتز الأرض لحركته. لكن فينوس القاسية ضربته بالثقل فيما كان يقرر أن يستضيف العذراء في سريره. لم تكف مارييت عن البكاء.

قال:

- إنك تخفين شيئاً عني.

فأجابت مارييت بأدفاع:

- أنا خائفة من ماتيو بريغانتني.

- لكنك لم تعديه بنفسك؟

فقالت مارييت:

- كلا، كلا.

أرعى دون سيزار اليد الندية التي كان يمسك بها في يده الملتصبة ثم قال:

- امسحي دموعك، واروي لي قصتك.

جفت دموعها وبدأت ببرد ما قرّرت أن تقول، وعانت النظرة حازمة من جديد والصوت مطمئناً وانقأ.

إنها هي التي سرقت المحفظة من السويسري بمساعدة بيبو. إذ قادته إلى زورق صغير تستخدمه عادة، من وراء سياج الخيزران حتى حافة الطريق قريباً من مكان التخيم. هناك تقدّم بيبو متنعلاً من وراء إحدى شجيرات ندى البحر إلى أخرى حتى صار بجانب الخيمتين. ووضع خطى

صار عند السيارة التي كانت تحجبه عن أعين السابحين، والخيمتان تحجبانه عن عيني المرأة. ورجع بالخفة نفسها، فنقلته مجدداً على ظهر القارب لنقله على مقربة من برج شارل كان، ولديهما هنالك مخابئ لا تعد ولا تحصى.

وهي التي أيضاً بتجوالها قبل الواقعة بيوم واحد قريباً من المخيم، وبحديث عابر مع السويسرية، لاحظت السترة مطوية فوق المقعد الخلفي، ولمحت المحفظة من فتحة الجيب، والواقع أنها لم تأمل أن تعثر فيها على ذلك المبلغ كله من المال.

خبأت المال كله دون أن تسمح لنفسها أو لبيبو بسحب ورقة نقدية واحدة. ذلك أنها لاحظت في أغلب الأحيان أن السارقين يعرضون أنفسهم للاعتيال دائماً، عن طريق اجتذاب أنظار الشرطة إليهم بسبب الإنفاق الطائش والتبذير المتطرف. وعاهدت نفسها على ألا تمدّ إليه يدها، إلا بعد مرور الوقت الكافي الذي يتيح لها وبيبو مغادرة مناكوري إلى مدينة في الشمال دون أن تثار حولهما الشبهات.

كان دون سيزار يصغي إليها وقد أفعمته النشوة. فإيطاليا هذه ما يزال فيها أولاد على هذا القدر من الجراءة، وهو الذي بات يعتقد أنها لم تعد معمورة إلا بأجهزة التلفزيون والدراجات النارية. وأسعده أن تظهر فتاة من داره هو، لتعمل على إحياء تقاليد اللصوص. ألا يحتمل أن تكون ابنته ؟ إذ كان ما يزال يعاشر جوليا حين حملت بمارييت.

وابتسم لها.

ثم قال:

- ها أنت قد أصبحت غنية إذن.

فقالت:

- كلا، لأنّ ماتييو بريغانتي سوف يشي بي.

أنت لم تقصّي، حسبما أعتقد، تفاصيل العملية على بريغانتي.

- كلا، إلا أنه...

وروت له تفاصيل المعركة في المستودع وكيف وسمت بريغانتني.
ازدادت غبطة دون سيزار بها أكثر فأكثر. وبدأ يعتقد أنها ابنته حقاً.
فأخذ يفكر في التواريخ ثم قرّر أن يسأل جوليا.
وبعدها وصلت مارييت إلى عملية مبادلة المدفعتين.

- لكن لماذا فعلت ذلك؟

- لست أدري، ثم يكن أمامي متسع للتفكير. كنت مغتربة بما فعلت.
فبريغانتني شديد الحذر على الدوام. إلا أنه كان يحمل محفظة
السويسري في جيبه، وذلك كفيلاً بإدخاله السجن. فكنت في داخلي أضحك.
وروت له أخيراً أنّ الشرطة اكتشفت المحفظة في بيت بريغانتني وأنه
اعتقل. ولكن ماذا سيقول؟ وماذا قال حتى الآن؟ لاريب في أنّ أذاه سيكون
أكبر لا سيما وأنه موسوم.

لماذا وضعت محفظة السويسري في جيب بريغانتني؟ هذا السؤال
طرحه دون سيزار على نفسه. ألم تشأ، دون أن تقول ذلك (حسبما أظهره
تفسيرها المرتبك) التخلص من اختلاس أشدّ عبثاً مما كانت تعتقد، بوضعه
على كاهل بريغانتني ولو بشكل رمزي؟ لكنه استبعد هذا التفسير الذي يقلل من
جراحة مارييت. فهذه اللصّة، لا يعرف قلبها الخوف أبداً!

وهي لم تطلب، حتى بالتلميح، نواطؤ المبتزّ. فهي قوية. إلا أنه رأى
بعين خياله وجه ماتييو بريغانتني المثلث الشكل وكذفيه العريضتين ووركيه
الضيقين وهيئته الواثقة المطمئنة، فانتابه شعور بالغيرة (وهو شعور منسي،
انتهى منذ وقت طويل). قال:

أمّا الآن فلا أرى أمامك غير حل واحد: عليك أن تردّي المال.

فكانت مارييت:

- كلا.

- أنا لا أطلب إليك أخذ المال والذهاب به إلى عند المفوض. فسوف نبحث عن طريقة نتيج لك عدم الظهور.

فقلت مارييت:

- هذا الحل لا يروقني.

فتابع دون سيزار قائلاً:

- سوف أرسل في طلب القاضي. وأسلمه رزمة الأوراق بذنبي، قائلاً له إن واحداً من رجالي عثر عليها في مخبأ أثناء عمله في السبحة. ولن يطلب مني تفسيراً آخر.

- لا أريد.

- فكري قليلاً. إن ماتيو بريغانتني قد وشى بك. وسوف يأتون لأخذك. سيقومون باستجوابك، وبإزعاجك وتضييق الخناق عليك حتى يُسردَ المال. أمّا إذا قمتُ أنا برده ووضعتك بصورة قطعية خارج حدود الاتهام فإن المشكلة ستسقط. ولا يبقى عليك إلا القول إن بريغانتني يكذب وإنه يريد الانتقام بسبب الوسم.

فقلت مارييت:

- لا أريد ردّ المال.

كان عناد مارييت يزيد دون سيزار تهلاً. فهي متصبّبة عنيدة مثل أيّ لص شريف. بعيدة عن منال الخوف. وأصبح ميالاً إلى تفسير تبديل المحفظة بالعزم على وسم بريغانتني مرة ثانية: لقد حفرْتُ صليباً على خدك. وها أنا أحملك فوقه جرماً لم تقترفه.

الواقع أنه منذ عشرات السنين لم يتمكن شخص واحد بمفرده من أن يؤثّر في نفس دون سيزار أو أن يملأ كيانه، وفي وقت قصير على ذلك النحو، بمثل تلك الأحاسيس المتأجّجة والمشاعر المتناقضة.

قال:

- لو كان في بيتي خمس مئة ألف لير من العملة الورقية، لدفعتمها بدلاً
عندك بحيث تبقيين مطمئنة. وبوسعي أن أرسل طونيو غداً صباحاً إلى
المصرف. لكنني أخشى أن يجدوا في طلبك قبل صباح الغد.

- بوسعي أن أختبئ لحين ذهاب طونيو إلى المصرف.
فقال دون سيزار:

- كلا. فأنا أريد الإبقاء عليك بجانبني.
وشغفه أكثر أن تكون عنيدة بهذا الشكل غير المعقول.
قال:

- هيا أحضري قلماً وورقة.
وأملئ عليها ملحقاً بوصيته. وكتبت بكل عناية، كتابة متعثرة لكنها واضحة،
بأحرف كبيرة وخط فيه تمييق. كان يهجي لها كل كلمة لمعرفة بضعفها في
الإملاء. لقد أوصى لها بستان زيتون كبير وبعده بساتين برتقال وليمون.
ثم أوضح لها قائلاً:

- إن الأراضي التي وهبتك إياها، تدرّ عليّ وسطياً ما يقرب من ست
مئة ألف لير. أي كأنني أعطيتك اثني عشر مليون لير.

كانت ترفع القلم ناظرة إليه ساكنة.

ويده اليسرى دون التاريخ ثم وقع.

وتابع يقول:

- أمّا عليك، فسوف تدرّ أكثر بكثير، لأنك ستكونين أكثر تشدداً مني
في تعاملك مع الوكلاء والمرابحين.

فقالت:

- لن أدهم يسرقوني.

وظهرت في عينيها النظرة القاسية نفسها التي ترى في عيني ماتيو بريغانتي. إلا أنه كان شديد الانجذاب إليها ميالاً إلى جانبها فازداد بها إعجاباً. لقد كانت على الدوام أكثر فقراً من أن تقوى على الطيبة.

هذا هو القانون. وفكر قائلاً في نفسه: «الواقع أنني لم أكن طيباً بل كنت مهملاً وغير مبالٍ».

- قلبي لي الآن، أين خبأت النصف مليون لير؟

التمع في عيني مارييت بريق ذكاء ماهر.

نهضت فأدخلت ذراعها في قلب إناء إغريقي قائم فوق المنضدة. كان الإناء الوحيد من حاضرة أوربا القديمة الذي عُثِرَ عليه أثناء الحفريات سليماً لم يصب بخدش واحد. وأخرجت من داخله صحيفة قديمة نُفِثَ بها خمسون ورقة لم تنقص، من فئة العشرة آلاف لير. ووضعتها فوق السرير. قالت:

- ما كان سيخطر في بالهم قط القدوم لتفتيش غرفة نومك.

وفكر دون سيزار في نفسه: «ألا كم تروقيني!»

أرسلها لاستدعاء طونيو، فأمره بالذهاب إلى عند القاضي أليساندرو والعثور عليه أينما كان، حتى إيقاظه من نومه إذا لزم الأمر، ليحيطه علماً بأنه على فراش الموت وأن يأتي به حالاً.

جلسا ينتظران قدوم القاضي. مارييت تفكر في الثروة التي سوف ترثها، ودون سيزار يفكر في النظرة القاسية للفتيات الفقيرات.

على إثر المعارك الطاحنة التي جرت على ضفاف نهر اليبافي، انتهى من الحرب العالمية الأولى برتبة نقيب في سلاح الفرسان. وانتدب بعد الهدنة إلى باريس، ملحقاً باللجنة التي أعدت معاهدة السلام. ونظمت من بعد كيفية وضعها موضع التطبيق.

كان الضابط الفرنسي المكلف بالعمل معه عادة، برتبة مقدم ركن، قصير القامة لا يصل طوله إلى متر وستين، يعاني من قصر النظر فيضع

نظارتين سميكتين. ولما كان دون ثروة فقد تزوج من ابنة كاتب في قلم شرطة السين، بلا بائنة، لكنها حسناء. وكلما عاد إلى بيته عن طريق الميترو وجد لوسيين منهمكة في إعادة خياطة أثواب العام القانت لتسليط الطراز الدارج.

أوصل دون سيزار زميله إلى البيت عدة مرات في سيارة الفيات الضخمة، العائدة للجنة الهدنة الإيطالية. فاستبقوه مرة على العشاء. وكان أن أرسل إليهم أكثر الأزهار ندرة، ثم جعل العشاء الذي دعاهم إليه في مقهى باريس غارقاً في البهجة والشمبانيا.

ما كان ليعاني من أية هموم مالية، فلديه النفقة الشهرية من والده ومرتيه ضابطاً، بالإضافة إلى تعويضات السفر والإقامة. ولم تصمد لوسيين طويلاً أمام هجماته. ولما كان مأخوذاً بها فإنه لم يشأ أن يترك للزوج شيئاً، فنقلها إلى شقة من حجرتين بشارع سبونتين.

أمضيا الليالي يتنقلان من منهل إلى منهل، ومن مرقص إلى مرقص، في صحبة ضباط البعثات الانكليزية والطيارين الفرنسيين، وأفراد البعثات الدبلوماسية لكل الأمم الظافرة. وما لبثا أن اجتذبا إليهما الأنظار كأجمل ثنائي شكلاً وظرفاً. فهي طويلة كمثل طولته تقريباً، وشقراء بمقدار ما كان أسمر البشرة، تتفجر بتلك الحيوية التي تتناسب وروح العصر. فهي من أوائل الفرنسيات اللواتي قصصن آنذاك شعورهن الطويلة.

لكن لوسيين كانت ظمأى لا تردوي. فبدأت تختفي أياماً بحالها لتعود بعدها بقبة جديدة أو فراء ثمين أو حلة أو زهرة. كانت تمضي بصحبة الطيارين إلى غابة بولونيا بجانب باريس في سيارات فوازان المخصصة للرياضة. وأصبح دون سيزار غيوراً لأول مرة في حياته. فكان أمام الآخرين يحافظ على قناع من الهدوء، رابط الجأش مبتسماً، وهذا حصيلة التربية الحسنة التي نشأ عليها. لكن ما إن يصيرا وحدهما في مسكن شارع سبونتين، عند طلوع الشمس، حتى يبدأ بلومها وتقرعها طول ساعات وساعات. ويتحوّل إلى الأثواب التي لا يستطيع تبرير شرائها، فيحذلها مزقاً

ونقلاً. فترمقه بنظرة قاسية: «بعد أن تعودَ إلى إيطاليا، لن يهملَكَ في شيءٍ أمرٌ الذي يشتري لي ملابسِي - سوف أصطحبكِ - هذا مستحيل. فأنا لن أنهِي أعوامَ شبابي في أكل المعكرونة بمقاطعة البولي». وحين ينهكه التعب من شتمها وتكريعها، كانت تستسلم له ببرود، دون أن يطرف لها جفن. ذلك البرود تحديداً هو الذي يمنعه من تركها، على قدر ما كان شرفه يدفع به نحو التخلي عنها. فتقته برجولته تجعله على قناعة بأنه سيتوصل أخيراً إلى تعريفها بالمذعة التي تصرّ بعناد على التظاهر بعدم معرفتها. عندها فقط، وطبقاً لمفهومه المناكوري عن الحب سوف يمتلكها، ليأتي دورها من بعد لإحساس بالغيرة. وبات، وهو ينتظر ذلك، كمثّل مقامر خاسر يُصرّ بعناد على تضعيف^(١) مستحيل، ويتعرض كل ليلة لامتهانات متعاضمة.

قال دون سيزار لمارييت:

- لقد حصل ذلك، حصل مرة أن فرضت امرأة عليّ سيطرتها.... كان ذلك من زمن طويل، لم تكن أمك قد بلغت الرابعة عشرة. وكنت أعيش آنذاك في عاصمة أجنبية، في باريس..

نظرت إليه بدهشة. فليس من عادة دون سيزار البوح بأسراره لإحدى فتيات داره. ورأت أنه ضَعَف. وأنَّ ضعفه نتيجة مدمرة سببها المرض الذي شل حركة أطرافه. فاغرورقت عيناها من جديد بالدموع.

حاول دون سيزار أن يقصَّ على الفتاة حكاية الحب التعيس الوحيدة في حياته. لكنَّ ذلك ليس بالأمر السهل. فالفتاة لم تغادر مناكوري البتة ولم تقع على من ينازع سيدها سلطته المطلقة.

لذلك ربت بعنف حين ذكر لها خيانات لوسيين، قائلة:

- كان ينبغي أن تطردها.

أخيراً قام بطرد لوسيين. لم تكن في ذلك اليوم، أقلَّ إغاظه له من الأيام السابقة. فحين ركت على هاتف من شخص لا يعرفه، أخذت على مرأى منه

(١) التضعيف: نظام في القمار يضاعف فيه مبلغ الرهان بعد كل جولة. (م)

ومسمع تجيب بكلام هزل وعبث وإثارة، وكانت تلك من أصغر الإهانات التي ألحقتها به. أمّا هو فقد تبين له في اللحظة ذاتها أنّه لم يعد خاضعاً لسيطرتها. رآها فجأة ورأى نفسه إلى جانبها في شدّتهما الصغيرة بشارع سبونتيني، كان جالساً فوق السرير وهي تتحدث على الهاتف، تماماً كما كانا في الواقع، لكنّ كأنّه ينظر إلى اثنين من العشاق لا يمتّان إليه وإليها بصلة، فوق خشبة المسرح مثلاً أو على طريقة الشيطان الأعرج الذي يرفع السقف وينظر لما يجري داخل المنزل. يوم كانت المعارك محدّمة على نهر البيافي أصيب برصاصة في فخذه من الجبهة النمساوية. انقضى يومان حتى أمكن نقله في سيارة إسعاف. وطول هذين اليومين والرصاصة، رغم كل ما سببته من ألم، شكّل الجزء الأليق من ذاته، وفي بعض الأوقات كان يتمثل تماماً، في وحدة متجانسة، ذلك الجسد البرونزي الحارق المتداخل مع جسده الإنساني. ثم خذّروه. وحين استيقظ وجد الرصاصة موضوعة على الطاولة بجانب سريره، جسماً غريباً مسالماً محايداً. وعلى مثل هذا النحو صارت حال عاطفته فجأة. مذ أن كفّ عن الخضوع للسيطرة. نظر بدهشة إلى لوسيين وإلى ذلك الرجل الذي أحب لوسيين حتى الهيام، ورأى أنّه وإياها قد باتا جسمين غريبين. فقام من فوره بطرد العشيقة الجاحدة.

نظر إليها وهي تنزل الدرج تجرّ حوائجها وراءها. واستدارت فإذا بوجهها غارق في الدموع، ذلك الوجه الذي كانت كل خلجاته حتى يوم أمس تنغوص لتنفجر في حنايا ضلوعه، لتملأها سعادة أو غماً. كانت هي المرة الأولى التي يراها تبكي. إلا أنّه كان قد فقد الاهتمام بها.

عادت تزوره أحياناً في أحلامه، وتعاقبه غيرّة مثمّا كانت تفعل أيام هيامه بها، فيراها نازلة على الدرج مثل يوم رحيلها، لكنّ الوجه الذي تديره إليه يتألّق فرحاً، وهي تقول: «أنا ذاهبة للقاء عشيقتي».

ثم ما لبثت أن أمحت من أحلامه أيضاً.

قالت مارييت:

- يعلم الله إن كانت على قيد الحياة.

فقال دون سيزار:

- لم أعد أفكر بها مطلقاً.

لكنه فكّر بها في ساعة موته فقط لأنّ نظرة مارييت ذكرته بنظرة
لوسيين القاسية.

لم دسّت مارييت محفظة السويسري في جيب ماتيو بريغانتي؟ إنّ نظرة
يبدو كلّها لهيب وحنان. فهو زعيم اللصوص الرومانسي. قال دون سيزار في
نفسه، إنّه سيأتي يوم، وهو يوم قريب دون شك، تطلب فيه مارييت الى ماتيو
بريغانتي الدخول معها في شراكة، لكي تفرض سيطرتها أكثر فأكثر، وبلا
رحمة، على عمالها في بستان الزيتون وفي البساتين الأخرى.

كانا ينتظران القاضي. مارييت تفكّر بكل الأموال التي أنفقها دون
سيزار على لوسيين، ودون سيزار يفكّر بوقائع الرفض المتواليّة التي شيد
فوقها حياته كلّها.

كان مقامراً وسكيراً مثل غالبية الضباط في فيلقه. وما الذي يحول بينه
وبين أن يقامر ويسكر؟ فقانون الشرف العسكري الحازم نفسه لم يكن يحرم
لعب الورق ولا شرب العرق. إلا أنّه ذات يوم رأى نفسه في قسّمات مقامر،
أي قسّمات رجل سلوكه كلّ مشروط بعادة القمار، والقمار قانونه وشريعته.
وما إنّ رأى نفسه على تلك النحو، حتى شعر بأنّه قد رأى رجلاً غريباً. وفي
اليوم ذاته كفّ عن القمار.

إنّ القاعدة الأخلاقيّة الوحيدة التي تبنّاها، وكانت طول حياته مبدأ غير
قابل للخرق، تمثّلت في أن يصدون نفسه من أجل مهمة، لم يوكلّ إليه أمر
إنجازها البتّة. وكلّما رأى نفسه مرة على وشك الانخراط في مسيرة يشعر
بأنّها ليست هي تلك المهمة الأساسيّة (التي لم يوكلّ إليه في النهاية أمر

إنجازها البتة)، كان يحيد عنها فجأة وبكل سهولة ويسر، مثلما يحيد مبارز ماهر بالسيف تَعَدُّم وتدرَّب منذ نعومة أظفاره.

بنت مهمة تحريره من الإدمان أقل يسراً نسبياً.

فالرجال ذوو المحتد، يكون ارتماؤهم في أحضان الكحول أكثر سهولة من انصرافهم إلى علاقات غرامية مُذَلَّة، أو إلى آليّة القمار الذي يفرض مخالطة نوعيات عديدة من رفاق السوء أو الوقوع تحت سيطرة المثل. فالكحول يلتهب (تعبير مقامر) بالمقدار نفسه، مخلفاً الوهم بالاقْتِصَار على إشراك الذات فقط أو الجزء الأقل من الذات. ثم أتى عليه حين من الدهر صار يحتاج فيه إلى كأس عرق من لحظة يقظته. ولم تتوفر لديه القدرة على تحطيم هذا الواقع بنفسه. فلجأ إلى مساعدة طبيب.

حصل تلك في مدينة فلورنسا. كانت الغرفة أشبه ما تكون بزنزانة فيها سرير وكرسي حديديان وطاولة من الخشب الأبيض. بل كانوا يحبسون فيها المجانين أحياناً. والتمشفي قائم فوق ثلة تشرف على الارنو وتتوالى بينهما بساتين متدرجة. إلا أنه لم يكن يرى وهو على سريره إلا السماء. حين كانت تهدأ تشجّات الأفطام الشبيهة باختلاجات الوليد، يجد نفسه مثل ثمرة نُزعت عنها القشرة لتؤثها، عارياً لأول مرة في النور والبرد والضجيج والملامسات. وفور إفراغ أخلاط النُسُول، يصير مثل الميت.

كانت أرتال صغيرة من الغيوم الركامية، وقد صبغها نور الأصيل بظن وردي، تنزلق ببطء شديد فوق سماء نافذته. كان أشبه بالميت. وأحسّ بأنّه يتفكك مثلما فعلت تلك الغمامات الهشة، حين جعلتها ريح خفيفة جداً تدخل الأفق الجنوبي لتافنته وتزيد ببطء من انحناء القوس التي ترسمها في السماء، وتميل كلما ازدادت اهتزازاً من الأفق الشمالي نحو التلاشي، لتصير ضباباً ذهبياً. فكّر في نفسه قائلاً إنه على هذا النحو، دون غم ولا بهجة، وكشيء قائم في ذاته لذاته، يكون الموت، يكون موتي، لكنك إن كنت مدركاً لموتك أيها الإنسان، فهذا يعني أنك تحيا. وشرع فجأة يتوّه حياً بسماء شهر أيار

الرؤوم تلك، وبحياتها فوق نهر الارنو الذي يتبينه نهراً هائلاً لأنه ينعكس في نظرة السماء.

إلا أن الهوى، الذي واجه أفسى المصاعب في التخلص منه، يدق أولاً وأخيراً هوى السياسة وشغفه بها. فقد انجذب منذ طفولته إلى بيت آل سافوا وإلى فكرة الملكة أي إلى الملوك الأبطال. أمّا وقد صار بالغاً، فقد قتل كما تعرض للقتل مئات المرات، طول الحرب العالمية الأولى، في سبيل أن يرد إلى تاج فيكتور عمانوئيل الثالث مقاطعتي ترانتي وتريستي. حتى أنه تأثر ببعض عادات الرجل الصغير، ملكه، وبحركاته اللاشعورية. لكن فيكتور عمانوئيل أفسح المجال أمام موسوليني ليستولي على واقعية السلطة. قام ذلك الطاغية، عاهلاً لأشريعاً، يملأ الدنيا بصراخه مهرجاً وبهلواناً مشعوذاً، نافخاً أوداجه ليحظى بأصوات الرعاع والغوغاء. وهكذا تنطح «البوفوني»^(١) للجلوس على عرش «البافوني»^(٢) وانقضى عهد الملوك الأبطال.

اعتكف دون سيزار في الدار ذات الأعمدة. ثم فكر من جديد قائلاً:
«إن كنت مدركاً لموتك، فمعناه أنك تحيا، أيها الإنسان».

لكن لزمه عام كامل، في هذه المرة، ليعود حياً بين الأحياء.

باشر عمليات الحفر والتنقيب ليعيد بناء تاريخ مدينة أوربا الذبيلة. لكنه لم ير البتة في ذلك المهمة التي تصدى لإنجازها تحقيقاً لذاته أو مبرراً لوجوده.

يجلس دون سيزار الآن فوق السرير مستنداً إلى عدة مخدات وذراعه المعقودة فوق تكأة من الحرير. ومارييت الجالسة بجواره تسهر عليه، ترتدي قميصها الرقيق المشدود على نهديها، وأنها تترقب صوت هدير

(١-٢) جناس خاص بالإيطالية. فالأمراء من سلالة آل سافوا كانت لهم جميعاً شوارب. فأصبح لقب «بافوني» (ذو الشاربين) يُطلق عليهم تحبباً. و «البوفون» هو المهرج. فيغدو المعنى:

إن المهرج (موسوليني) احتل عرش (ذي الشاربين)، الملك فيكتور عمانوئيل. (م)

محرك لا يأتي. أظهرت مارييت قلبها من تأخر القاضي لهذا الحد، وخشيتها من استباق الشرطة قدومه واعتقالها. وأخذ دون سيزار يفكر في موته.

لم يكن ليتساءل إن كان هنالك عالم آخر، وإن كان سيجد الله فيه، وإن كان الله سيدينه، وإن كان سيعث في جسده يوم الدينونة من أجل ثواب دائم أو عقوبة أبدية. فهو يعرف أن لا.

ولا يتساءل إن كان الموت عذاباً أو هو العذاب بعينه من بين كافة أشكال العذاب. فهو يعرف أن العذاب مظهر من المظاهر المتعددة للحياة وأن الموت تعريفاً ليس شيئاً أبداً.

أخذ يفكر في أن يعيش وفقاً للنوعية التي يمكن أن تتجلى لدى رجل من منزلته وثقافته وتربيته في ذلك المكان وضمن تلك الظروف. فتألف بصوت عال:

- كوزي سيّا، «آمين».

لم يقصد بذلك الكلمة الإعلان عن خضوعه للشرعية الإلهية، مثلما يفعل المسيحيون، ولا لشرعية حياتية أو اجتماعية أو شخصية، مثلما يفعل المؤمنون بكافة أشكال العقائد والمذاهب. إنما هو يؤمن على ذاته لذاته، ويشهد على نفسه لنفسه.

لقد كان على ذلك النحو. فلا هو نادم على شيء، ولا هو خجل من شيء، ولم يعد راعباً في شيء. إنه يتعرف على نفسه ويعترف بها لنفسه، إنه يتجلى بذاته (لذاته) على نحو ما كان وعلى نحو ما هو عليه الآن وفي ساعة موته. فهذا هو الذي يقصد بقوله «آمين».

وتجيب مارييت:

- كوزي سيّا.

تجيب وهي تعتقد أنها ترد، مسيحية، على صلاة مسيحي في ساعة موته.

لكن مارييت وثنية بشكل أساسي وعميق، حتى إن المعنى الذي تسبغه على قولها «آمين» لا يختلف جوهرياً (دون أن توضح ذلك لنفسها) عن المعنى الذي أسبغه عليه دون سيزار.

يمكن لرجل رفيع الشأن أن ينساق لخوض الحرب عدة مرات في حياته. وهذا المبدأ ينطبق على كل حقبة التاريخ. أمّا فيما يتبقى من الوقت فيظلّ محافظاً على ترفعه ونأيه.

لقد أجاد دون سيزار خوض الحرب وأجاد المحافظة على ترفعه ونأيه. فكّر في أنّه لو كان أثينا قبل عهد بيريكليس، أو مواطناً رومانياً أيام الحروب القرطاجية، أو برلمانياً فرنسياً عام ١٧٩٣ بعيد الثورة، فإنّ رفضه الخضوع للسيطرة كان سيؤدي به إلى الاندماج بتلك الأقلية الصغيرة من الذين سيتولون تحطيم النظم البالية وفتح طرق جديدة أمام حياة المجتمعات الإنسانية. ففي بعض البلدان وفي بعض العهود، ينقّي الرجل الرفيع المتميز الدعم في حركة التاريخ نفسها ويزداد رسوخاً في رفعة وتميزه بقيامه بتطوير العالم.

إنّه لو ولد في ظل حكم أغسطس قيصر أو تيبيريوس، أو لوران آل مديشي أو إيفان الرهيب، فإنّ رفضه الخضوع للسيطرة كان سيرغمه على الانتحار، مثلما يفعل الرجال ذوو الرفعة حين يستحيل عليهم التخلص شخصياً من نير الاستبداد. فالحق في الانتحار، الذي لا يتوصّل أكثر السجّانين نقطة وأكثر الجلادين مهارة إلى تعليقه إلا بشكل مؤقت، بدا له على الدوام البرهان الوحيد الذي لا يُدحض على حرية الإنسان.

وهكذا رأى أن الرجل ذا الشأن والرفعة ينساق، تبعاً للظروف، إلى العمل تارة وإلى الانتحار تارة أخرى، لكن في أغلب الأحيان فقط إلى سلسلة من حالات الالتزام وعدم الالتزام، تتولّد الواحدة منها من الأخرى. فتكمن رفعة كلّها، في تلك الحركة نفسها، التي ترغمه على الالتزام تارة وعلى عدمه تارة أخرى.

لقد ولد عام ١٨٨٤ في أوروبا الغربية، في إيطاليا الجنوبية على وجه التحديد، وأخذ ينتحر ببطء وعلى مراحل متتالية، تتناسب وقياس عصره. فدام ذلك اثنتين وسبعين سنة، ولم يكن الحال باعثاً على الضيق دوماً. آمين.

إنّ مباحج الدراسة والحب والصيد، ملأت بشكل ممتع، أوقات الفراغ التي أوجنتها الظروف لديه. فقد ولد غنياً مفعماً بالهبات التي أتاحته له أن يصبح رجل ثقافة عالية (كما يقول إيطاليو الجنوب) ورجل مباحج وملذات (كما يقول الفرنسيون في عهود الازدهار)، وذلك في بلد وفي عصر أرغماه على الانتحار البطيء (لكن ليس دون مباحج) كي لا يحطم رفعة مرة واحدة. آمين.

أمن على نفسه وصديق على ذاته مثلاً كان وعلى نحو ما هو عليه، الآن وفي ساعة موته. وليس لهذا التصديق من قيمة إلا لذاته ونحو ذاته، لكن في ساعة موته، في ساعة موته ملحدًا، يتقبل الموت بفكرٍ مُشرقٍ صافٍ، يتخذ تصديقه هذا صفة مطلقة. آمين.

فيَنلَفُظ بصوت عالٍ:

- كوزي سيّا.

فترد مارييت:

- كوزي سيّا.

طرق مسمعها صوت سيارة القاضي التوبولينو تعبر الجسر فوق مصرف البحيرة. فنزلت مارييت إلى القاعة الكبرى واختلطت بالنساء اللواتي تجتمعن يصلين حول الطاولة الكبرى من خشب الزيتون. وقاد طونيو القاضي إلى غرفة دون سيزار.

قال دون سيزار:

- يا عزيزي أليساندرو، لي عندك التماس...

وتوجّه مؤرّخ مدينة أوربا بالحديث إلى مؤرخ فريدريك الثاني دو سواب. فهو الآن مشرف على الموت وباندفاع أسرع مما تخيّل. لذا فهو يطلب إليه أن يشرف على العاديات التي جمعها كي لا تتبعثر. وعلى مخطوطه الكبير عن المستعمرات الإغريقية في مراكوري إبان العهد الهيلينستي، ليوضع تحت تصرف العلماء. وهو يود أن يتمّ تحويل الدار ذات

الأعمدة إلى متحف، وقد خصّص في وصيته مبلغاً من المال لهذا الغرض. ولئن لم يكن ذلك ممكناً، فلتحوّل إلى متحف فوجيا، كل من المجموعة والمخطوطات والإشارات والملخصات والمبلغ المخصص. وإنّ هذا الاحتمال مدوّن في الوصية. وإنه شديد الامتنان للقاضي، ويرجوه الحرص بوصفه رجل ثقافة ورجل علم، على تنفيذ هذه البنود بكل حذافيرها.

كان في الواقع يتساءل لم يعلّق تلك الأهمية كلّها على هذه الترهات. فهو حين يموت سيكون العالم بالنسبة له لاغياً. وهو على أي حال يعتبر نفسه ميتاً منذ سنين عديدة. لكن في ساعة موته المطلق، لم يُضِرّه في شيء تأمين شكل من أشكال الخلود لآثار حاضرة أوربا القديمة، التي انتزعها من بين الرمال ومن السبخة ومن النسيان. وليسامحه صديقه أليساندرو على هذا الدنل الأخير.

شكره القاضي بتأثر بالغ وهو مفعم بالدقة التي أولاه إياها دون سيزار. كذلك فقد استودع دون سيزار صديقه القاضي، خوفاً، كما قال، من أهل بيته ومن أقربائه الذين سيأتون مسرعين من كاللونغا بشكل خاص، وصيته والملحقات التي كتبت لتوها، كي يقوم بتسليمها إلى موثق العقود. وبعد ذلك أعطاه الخمسين ورقة من فئة العشرة آلاف لير، المغلفة بصحيفة قديمة.

- عثر واحد من رجالي الصيادين على هذا المال داخل مخبأ في السبخة.

وهذا دون شك هو المبلغ المسروق من السويسري...

فقال القاضي:

- ينبغي لي أن أرى صيادك هذا.

فأجاب دون سيزار:

- أنت تعرف دون شك نوعيتهم. إنهم يفضلون البقاء بعيداً عن رجال

القانون، وقد طلب مني عدم الكشف عن هويته، فهنأته على أمانته وقطعت له عهداً بذلك، فهتف القاضي قائلاً:

- ولكن هنالك رجل جرى توقيفه. ولديّ ضده أدلة دامغة...

- وهذا سبب إضافي لعدم إزعاج الصياد.

- لا بدّ من إجراء لقاء بينهما.

فصاح دون سيزار باحتجاج قائلاً:

- أليس اندرو، هنالك هموم أخرى..

فقال القاضي باندفاع:

- أرجوك المعذرة.

ومضى حاملاً الوصية والخمس مئة ألف لير. أمّا دونا لوكريزيا، فقد حمل لها، هدية أخيرة من رجل يودّع الحياة، إلى امرأة حسناء، فانوس زيت من الفخار يعود للقرن الثالث قبل الميلاد، تزيّنه رسوماتٌ عارية. وعانت مارييت لتحتلّ مكانها قرب سرير المريض.

أقبل الصيادون للانضمام إلى النساء حول طاولة خشب الزيتون، تحت غرفة المريض. وشيئاً فشيئاً غصّت القاعة كلّها بحشد من المصلّين يرددون التسابيح للشفاء من الأمراض.

أغفت مارييت بسرعة. كانت تبدر عنها بين وقت وآخر تهيدة عميقة مصحوبة بحركة من شفّتيها، كأنها تتذكر تلك الحركات المألّى بالعدوبة التي تعلّمتها من بيبو ليلة الأمس، وبعد ظهر اليوم، فوق الأكياس في مستودع البستان ذي الينابيع الثلاثة.

أمضى دون سيزار تلك الليلة، كعادته في الليالي التي سبقتها، متنقلاً بين الإغفاء واليقظة. وحين يفتح عينيه يقع نظره على مارييت، تحت ضوء السراج، ورأسها مرتد فوق مسند الكنبه التي قرّبتها من السرير والشفقتان والعينان مرهقتان حباً.

حين طلع النهار أيقظها لكي تفتح النوافذ.

بدا المنظر مألوفاً أمام ناظريه، فمصرف البحيرة يشق لنفسه طريقاً بين
عيدان القصب والخيزران حتى مصبه القريب، وعلى يساره كثبان البرزخ.
أما على يمينه فيرتفع التل الصخري، كأنه مغروس في البحر. كان قد نهض
فوقه معبد فينوس أوربا، حيث لا تنبت الآن إلا شجيرات ندى البحر. وفي
البعيد خليج مناكوري بأكمله ولسان الجبل الذي يغلقه والمستطيل بصواري
الترابوكو، وهي إنشاءات عملاقة، إلا أن الترابوكو لا يبدو من فوق سرير
دون سيزار أكبر من مركب صيد، يتجاوز رأس اللسان. وبدأت الشمس ترتفع
فوق غابة الصنوبر وتلَوّن رمال المضيق بلون ذهبي. وبقيت الغلبة طول
الليل للسيروكو على الليبيشيرو فوئي رتل الغيوم بعيداً فوق البحر.

رجا دون سيزار مارييت أن تبدّل وجوه المخدات والشراشف. لأنه
يرتاح لملمس القماش النظيف الندي، ذي الطيات الظاهرة. ثم قال:

- سنطلب بعد قليل إلى طونيو أن يحلق لي ذقني.

شاهد أحد صيانيه صاعداً مصرف البحيرة محرّكاً المجانيب القصيرة
بصمت، وهو جالس عند مؤخرة الزورق الضيق. حلق رف من طيور الحديد
من ورائه وتوجّه صوب البحيرة.

أخذ دون سيزار يفكر في أنه لن يذهب إلى الصيد من بعد أبداً في
برودة الفجر المنعشة. فانتابه إحساس بأنهم يحرمونه من شيء، فشعر
بالحزن. لكنه ما لبث أن سخر من إحساسه. فلم يعد «لهم» من وجود، أولئك
الذين حرموه من الصيد، ذلك أنه ظلّ يذهب إلى الصيد حتى أسكره المثل.

لكنّ الشيء الذي استهواه حقاً، كان السير فوق دروب الأرض
المرصوفة في السبخة وفوق شاطئ المضيق، في نداوة الفجر. وهو لن
يُحسّ أبداً من بعد بدانة الأرض المرصوفة، الصلبة وغير الصلبة في آن
معاً، بسبب رطوبة السبخة. هذه حال الدنيا. كوزي سيّا. إنّ الأشجار في
النهاية تموت بعد أن تكون قد أثبتت كل أغصانها، وحتى أشجار الزيتون التي
تعمّر أطول بكثير من كل الأشجار الأخرى. إنّ أربعة رجال مجتمعين،

باسطي الأذرع، لا يستطيعون الإحاطة بجذوع بعض أشجاره في بساتين الزيتون. أما العقد التي فيها، فشاهد دائم يحمل ذكرى العواصف التي لوتها في القرون المتأخرة من الإمبراطورية الرومانية. وأحياناً، كانت إحداها تموت. فتنبّل أوراقها بسرعة مفاجئة دون أي سبب ظاهري. وحين يُنشر الجذع لم يكن يُعثر في اللّب إلا على خشب يابس ميت.

فكّر دون سيزار أيضاً في أنّ ما من أحد غيره مطلقاً سيكون قادراً على أن يرى، وبالنظرة نفسها، ما يرى في هذه اللحظة: السبخة والمضيق وتل معبد فينوس والخليج ولسان الجبل. ولا أن يشمل مثله بنظرة واحدة الماضي والحاضر، فهنا مدينة أوربا النبيلة التي أعاد بناء مخطّطها وأحيا بقاياها، ثم المدينة الرومانية الكثيفة في القرن الثاني وحاميتها الجرمانية، ثم الرمال والودول التي غمرت كل شيء، ثم التهاون المسيحي، حين جاء كهنة الإله الأجنبي فانتزعوا فينوس أوربا، وجروها جراً حتى قمة مناكوري، وسرقوا منها حتى اسمها، وسجنوها في دير قسيسهم أورسولا، تلك العذراء الحمقاء الغبية والشهيدة، قديسة الظلمات. ثم الموائى والملاجئ الهشة المرتجلة التي بناها المغاربة في السبخة، والأرصفة الحجرية التي شيدت لتعمر بضع عشرات من السنين فقط على يد فريدريك الثاني دو سواب، ولتأتي الرمال والودول من جديد في ظل حكم ملوك نابولي، آل بوربون الأغبياء، وأخيراً أراضي الصيد ومباهج دون سيزار وأكوخ القش لصيانيه الذين عرف كافة نسايمهم. كلا، ما من أحد سيكون قادراً من بعد على أن يشمل بنظرة واحدة ذلك الماضي كلّّه وهذا الحاضر. ذلك الماضي من تاريخ الرجال، وهذا الحاضر من تاريخ رجل واحد، مترابطان ترابطاً موحّداً في الحاضر الراهن، وبكل أجهّة، لرجل يموت الآن بكل صفاء وإشراق فكر. وما كان لهذا كلّّه أن يكون على نحو ما هو عليه إلا بالنسبة له، مختصراً أخيراً في هذه اللحظة.

كوزي سيّا، «آمين».

دخل في تلك اللحظة ضمن حقل نظره، مركب للصيد قادم من عرض البحر، متوجّها نحو بورتو مأكوري. ووصل صدى دويّ محركه إلى الغرفة عبر النافذة المفتوحة. المحرك من النوع الذي يعمل على الزيوت الثقيلة، فأيقاعه بطيء ودويّه الخافت يتجاوب حتى أعماق البحر وينفذ إلى صدور الذين يصغون إليه.

تابعت مارييت ودون سيزار بأنظارهما، عبر النافذة المفتوحة، حركة مركب الصيد المتوجّه من الغرب إلى الشرق.

وطراً خلل على المحرك، فصدرت عنه عدة شهقات ثم سكت.

واصل طريقه متثاقلاً ببطء أكثر فأكثر. فاصطنعت مارييت بسرعة قرنين فوق رأسها بالخنصر والسبابة. وفهم دون سيزار على الفور، أنها تصطنع رقبة لإبعاد الشرّ عنه. فمحرك يتوقف عن الدوران، وقلب يكفّ عن الخفقان. إنها إذن تحميه.

بدأ قوله:

- مارييت

فالتفتت مارييت إليه.

فتابع يقول:

- مارييت، أريد لك الخير، كلّ الخير..

وأراد أن يتلفظ مجدداً باسم الفتاة، لكنّه أحسّ في اللحظة نفسها بانعقاد حنجرتّه وفمه معاً. حاول جاهداً أن يحطّم تلك العقدة التي قيّنت حنجرتّه وفمه، لكنّ عضلات الفك لم تعد تستجيب له. واعتقد أنّ الجهد قد غصّن تقاطيعه. لأنّ مارييت أخذت تنظر إليه بهلع. ثم نهضت وارتمت فوقه صارخة:

- دون سيزار! دون سيزار!

فكفّ عن بذل كل مجهود واضطّرّ لأن يبتسم لها بعينيه. وتولّد لديه إحساس بالنجاح، لأنّ عضلات الأجفان العلوية والسفلية ظنّت تستجيب له. فهذأت نظرة مارييت، لكنها ظنّت تصبح:

- دون سيزار! دون سيزار!

واصلت الذراع اليسرى واليد اليسرى استجابتهما. فرفع إصبعه إلى شفتيه مشيراً للفتاة بالسكوت. فسكتت.

أوماً إليهما بأن تتمدد فوق السرير الى جانبه. فتمدت بجواره فوق الشراشف البيضاء الذبية.

نظرت إليه نظرة متوهجة. وفكر في أنها تحبه في هذه اللحظة حباً يفوق أشكال الحب الأخرى كلها.

وضع يده على نهد الفتاة من فوق القميص الرقيق. فرفعت مارييت يد دون سيزار، وفكت أزرار القميص بسرعة (فهو يزرر من أمام)، ثم وضعت اليد فوق نهدها العاري.

كان النهد صغيراً متكوراً صلباً، وكف السيد عريضة تحيط به إحاطة تامة وتحتويه.

كانت نساء الأدار في الممر. لكن لم يجرؤن على الدخول، لأن دون سيزار أمرهنّ مساء أمس بعدم الحضور إلا بإيعاز من مارييت. ولقد سمعن نداء الفتاة:

«دون سيزار! دون سيزار!»

ثم دُهِشْنَ لعدم سماع شيء من بعد. وانقضى وقت طويل على هذا النحو. كانت مارييت تنظر إلى دون سيزار نظرة متوهجة وهو يبادلها النظر مبتسماً بمقلتيه. ثم لاحظت أن النظرة فقدت كل تعبير وأحسّت معها بالكف المطبقة على النهد تتراخي، وبالأراحة الدافئة تتبرّد.

مدّت مارييت الذراع على طول الجسم.

وأطبقت الأجفان. وطبعت قبلة خفيفة على الشفتين البارتين.

وقالت:

- كوزي سيّا.

ثم زررت قميصها وتوجهت إلى الباب ففتحته. قالت:

- إن دون سيزار قد مات.

شرعت النساء بالصراخ والعيول. وملاً النواح كافة أرجاء الدار ثم انتشر إلى السبخة، وامتدَّ إلى عرض البحر ليطلق مسامع الصيادين الذين تعطلَّ مركبهم عند مصب مصرف البحيرة، أي عند مدخل ما كان في الزمن الغابر ميناءً لحاضرة أوريا الذكية النبيلة.

* * *

جرى استرداد مبلغ النصف مليون لير المسروقة من السائح السويسري دون أن ينقص منها قرش واحد. والمحفظة عُثِرَ عليها دون أن تضيع منها ورقة واحدة. لكنَّ القاضي أليساندرو ظلَّ يعاند طول فترة الضحى رافضاً إطلاق سراح ماتيو بريغانتني.

فالعثور على المبلغ لا ينفي وقوع السرقة، والجرم لا يزال قائماً، والتحقيق مستمر، والقانون لابد من احترامه.

عند الظهر، حضر اثنان من عناصر شرطة البلدية حاملين للقاضي مفتاح شقة بريغانتني الصغيرة، وقد التقطاه، فور سقوطه أمام أعينهما من جيب مريلة جوستو، خادم منهل الرياضة. كان جوستو الشاهد الوحيد الذي أكدَّ أنه رأى بأمِّ عينه محفظة السويسري في يد بريغانتني. أمّا وقد وجدوا بحوزته مفتاح المكان الذي عُثِرَ فيه على المحفظة، فإنَّ التهمة سوف تلتصق به.

لم يكن القاضي مغفلاً، فهو رجل من الجنوب قلباً وقالباً، حتى ليعرف حقَّ المعرفة أنَّ رجال شرطة البلدية يرون مصلحتهم في خدمة مصالح المبتزِّ، أكثر منها في خدمة العدالة. لكنَّ رجال الشرطة أقسموا اليمين وجاؤوا بشاهد، هو الاسترلي، ليؤكد أنَّ المفتاح سقط من جيب الخادم. فكان لابدَّ من إطلاق سراح بريغانتني وتوقيف جوستو.

لم يبدِ هذا الأخير أيَّ احتجاج لبراءته، مقتنعاً، بأنَّ السجن الآن هو المكان الوحيد الآمن بالنسبة له. ودام الاستجواب عدة أسابيع ثم أُغلق التحقيق لعدم وجود وجه لإقامة الدعوى.

أمضتْ دونا لوكريزيا القسم الأكبر من النهار في مكتب المفوض أنيليو. إذ لم يتم العثور بعد على فرانثيسكو. ولم تكفَّ عن الإلحاح على المفوض ليهدف فيكرّر الذداء بالهاتف إلى جميع زملائه في المقاطعة. ولم تكلف نفسها عناء تمويه أسباب قلقها، حتى بات المفوض المساعد وعناصر شرطة البلدية، ورجال الدرك وبعدهم المدينة كلها، يعرفون أسباب هلعها.

لقد أمضى فرانثيسكو الليل في إحدى حانات فوجيا، يشرب ويدعو الآخرين إلى الشراب، حتى أنفق الخمسة آلاف لير المتبقية لديه كلها. وعند الفجر، بلغ درجة من السكر دفعت بصاحب الحانة إلى إعداد سرير كيفما اتفق، في حجرة خلفية تابعة للحانة. وبعد العصر، بعد أن اتَّخَمَ نوماً، دفعوا له ثمن مقعد في الباص المتوجّه إلى بورتو مناكوري.

ولمحتة دونا لوكريزيا نازلاً من الباص فاندفعت مسرعة إلى الشارع. كانت عينا لوكريزيا تلتهبان حباً فظنَّ أنه ازدراء. فاستدار على عقبيه وولى هارباً. وقام بدورة طويلة في الأزقة الضيقة ورجع إلى البيت عن طريق باحة القصر الداخلية. كان ماتيؤ بريغانتي جالساً إلى المائدة في غرفة الطعام يكتب إلى رجال أعماله. فأخذ فرانثيسكو عدة توليفات من فوق أحد رفوف البهو، وجلس إلى جانب والده وشرع يقرأ بصمت، موسيقى إحدى الأغنيات. ولم يستأنف الأب والابن تبادل الكلام إلا في اليوم التالي، بخصوص مسائل لا تمت إلى أحداث الأمس بأية صلة.

ما إن رأت دونا لوكريزيا فرانثيسكو يولي هارباً، حتى قفلت راجعة إلى مكتب المفوض وجلست على الكنبه في مواجهته.

وسألته قائلة:

- كيف أمكن لي الوقوع في حب واحد جبان؟

كان المفوض قد بدأ بكتابة تقرير، فتابع عمله دون أن يجيب.

بعدئذ رفع رأسه، كأنه لم يسمع شيئاً، وكأن أي حديث لم يدر بشأن فرانثيسكو، فتحدثت عن وفاة دون سيزار، فهو في ذلك اليوم الحدث الأهم.

كان السؤال الدائر هو أن العجوز رفض استدعاء كاهن، فهل يقيمون له جنازاً دينياً؟ ولقد وصل أقاربه من كاللونغا وسوف يتم فتح وصيته. وشاع خبر يقول إن ملحقاً بالوصية كتب في ساعاته الأخيرة، وكان لصالح إحدى فتيات الدار ذات الأعمدة، ويحتمل أن تكون ابنة غير شرعية له... واعتبر المفوض نفسه من أكثر الرجال رقة ومهارة. فبات مقتنعاً بأنه سينال لوكريزيا بأسرع مما كان يأمل، وبسهولة أكبر.

والتواق أنها قبلت، بعد ذلك بأسبوعين، بخلوة معه في شقة البرج. فالاندفاع الذي أثاره فرانثيسكو في نفسها يوم شدّ طويلاً على يدها، دون أن يجرؤ على التوجّه إليها بقوله «أحبك»، لمّا يهدأ أو تخفّ دنته. وظلا يتقابلان بابتهاج مرتين أسبوعياً ولأشهر عدة ومن بعده صار لهما عشاق آخرون لرغبتها الدائمة في التغيير. وبقيت على حالها مترفعة متعالية، تزدري الحيلة والحد. لكن لم يعد أحد يقول عنها دونا لوكريزيا، بل لوكريزيا فقط.

أحبط القاضي أليساندرو علماً بانحراف زوجته. فسألها فلم تتكرر. وناقش المشكلة طول شهور على هذا النحو: لا يحقّ لرجل أن يفرض الأمانة على امرأة لم تعد تحبه، لكن ينبغي على الزوجة أن تحترم شرف زوجها بموجب أخلاق البلد الذي يعيشان فيه حتى وإن كانت بالية. فكيف السبيل إلى التوفيق بين هذين الإلزامين؟ وبقيت المسائل التي يدعوها اجتماعية تقضّ مضجعه أيضاً. فوقع في هفوات عديدة وهو يفصل في الدعاوى السياسية الصغيرة الواقعة ضمن صلاحياته. حاكماً بأسباب مخفية، بحيث صار يقف

في وجهه ممثلو الحكومة والمعارضة معاً. وانتهى الأمر بنقله. فانتقل وزوجته إلى مدينة كالابري الصغيرة في الجبل.

وقد استطاع القاضي لشدة الإصرار والعناد، تسهيل الأمر على البناء ماريو للحصول على جواز سفر. لكن ماريو لم يجد في فرنسا عملاً إلا في أحد المناجم. وقضى نحبه بعد عام من ذلك في حادث انفجار وقع داخل المنجم.

كف المهندس الزراعي عن محاولاته الحصول على مارييت بعد أن أضحت غنيّة، وطلب إلى جوزينا أن تتولى تصريف أمور منزله. فقبلت بعد أن يئست من انتزاع المفوض من أيدي زوجته العطوف أنا، ومن المهورسة لوكريزيا ومن أخريات كثيرات. صحيح أن مهندساً زراعياً موظفاً لدى الدولة، ليست له أهمية نفسها التي يتمتع بها المفوض في الشرطة، لكن دخل الاثنين متماثل تقريباً. وهكذا سلّمت عذريتها التي دافعت عنها طويلاً، فصارت من بعد عاشقة ماهرة. وانتهى اللومباردي بعد عيشه في الجنوب إلى اعتناق أفكار الجنوب والتخلق بأخلاقه، فرفض أن يتزوج من فتاة واسعة الخبرة. فتخلت عنه بعد بضع سنين لتعيش مع أحد أصحاب الأملاك الذي اشترى لها منزلاً صغيراً في كاللونغا ودوّن اسمها في وصيته. وتوفي المهندس الزراعي فتياً بعد أن أصيب بالمalaria، وبعد اليأس الذي استولى عليه لأن كافة جهوده المبدولة في سبيل تحسين الماعز على الساحل المناكوري قد فشلت وذهبت أدراج الرياح.

بعد وفاة دون سيزار بأسابيع معدودة عقد ورثته اجتماعاً عاماً. فالمجلس البلدي رفض مشروع إقامة متحف فوق موقع مدينة قديمة، لم يبقَ منها عمود واحد قائماً، لكنه أخذ على عاتقه مهمة المجموعات الأثرية.

وجرت عمليات تبادل بين الورثة. فتخلت مارييت عن بستان كبير من بساتين البرنقال والليمون مقابل بضعة هكتارات من السبخة والدار ذات

الأعمدة. ولهمش كثيرون لموافقتهما على مثل هذه الصفقة الخاسرة. ونسبوا للأمر تفسيرات عاطفية من جانب الفتاة، فازداد الاعتقاد رسوخاً بأنها ابنة دون سيزار (وهذا ما يفسر ضخامة تركاته لها). وقابلت جوليا تلك الأقاويل باحتجاج عنيف، لكن ما من أحد ألقى لدفاعها من بال، لمعرفة الجميع بأنها على علاقة سيئة بابنتها. وبدأت تترسخ القناعة بأن مارييت، وإن تكن ابنة غير شرعية، فهي مدمسكة بدار جدودها. وازداد الإعجاب بها لحرصها على تكريم اسم لا تحمله. حتى أنها ضحّت ببستان كبير للحمضيات، يُدرّ دخلاً كبيراً، مقابل دار قديمة ضائعة وسط منطقة مستقعية تعجّ بالملايا. وندّد بعضهم بتصرفها الأحمق. ولم تُعر مارييت تلك الأقوال كلها أي اهتمام. فقد أصغت قبل أشهر فقط لأحاديث جرت بين دون سيزار وبين مهندسين مساحين قاموا بسبر أغوار المضيق كله.

وقد قالت لبيبو:

- في رأسي خطة.

تلقت كل من جوليا وماريا وإلفيرا مجموعة من السندات تعود عليهن بدخل مقبول. فأوكلن معاً أمر إدارة هذه الشركة إلى رجال أعمال من فوجيا، قدّموا لهنّ وعوداً بتأمين فوائد أكبر بكثير.

هكذا بقين مقيّمات في الدار ذات الأعمدة، لكن في خدمة مارييت. وعلى أثر رفع الأثريات والعاديات كلها طلبت إليهن تنظيف البناء تنظيفاً تاماً، بدءاً من السقيفة حتى الاصطبلات، ومن ثم طلاءها بالكلس، من الداخل والخارج. وأرسلت في طلب أحد تجّار العاديات من نابولي لتبيعه، وبسعر مغر بالنسبة لها، الكنبه النابوليتانية من القرن الثامن عشر، والإناء اليوناني، الذي لم يلقِ إليه محافظ المتحف بالاً، لأنه كان في غرفة دون سيزار، ومعظم

قطع الأثاث القديمة. قامت فاستبدلت بها مفروشات عصرية حديثة لماعة ومبرذقة، واشترت بفارق السعر سيارة فيات طراز أربع مئة (تعلمت قيادتها حالاً) وجهاز تلفزيون أيضاً. ولم تحتفظ من الأثاث القديم إلا بالسرير ذي القبة الذي صارت تنام فيه، وتستقبل بيبو كل ليلة دونما تخفٍّ، ودون أن يتبادر الاحتجاج إلى ذهن أحد. والواقع أن أهمية الممتلكات التي ورثتها، وما قيل بشأن بذوتها، بالإضافة إلى ثقتهما الطبيعية بنفسها، قد منحتهما على الفور، الامتيازات نفسها التي يتمتع بها ملاك الأراضي الكبار. فصاروا ينادونها من بعد بلقب دونا مارييت.

قام ماتيو بريغانتي من جانبه بالمبادرة الأولى لإحلال السلام بينه وبين بيبو. فالغلام بات أكبر سناً من أن يتابع الطريق مع الواليوني ولو بصفته زعيماً للعصابة. كما بدأ يحظى، بسبب حماية مارييت له، باحترام التجار والطبقة الدنيا من الأعيان. فصاروا ينادونه «سينيور» بيبو. ويشيرون إليه بقولهم حضرة السيد بيبو. وتبدت لديه مواهب السباحة والغطس، وحبس النفس طويلاً، وحاسة خاصة بالماء. فأصبح ماتيو بريغانتي صديقاً له، وبدأ يدرّبه بانتظام، ويطلعه على آخر المستجدات في فن السباحة تحت الماء بواسطة قوارير الأكسجين أو بدونها. وكان أن اكتشف أثناء أحد دروس التدريب عند مصب البحيرة، قرب سفح التل الصخري تمثالاً من الرخام تفينوس مدينة أوريا. ونسبة الخبير المرسل من قبل متحف فوجيا إلى نحاس في القرن الثالث قبل الميلاد. أي أنه يحطم بمدى مئة عام قديماً، التمثال الحجري لدير القديسة أورسولا بنت أوريا. وهو تمثال تفينوس أيضاً، عثر عليه بعض الرهبان في السبخة فأطلقوا عليه اسم أورسولا، فألبسوه ملابس أسبانية الطراز وأخذوا يحمونه فوق محفة، يدور بها الرجال في شوارع

المدينة في يوم عيد القديسة. وتروي الأسطورة المنمقة أن فتاة واحدة فقط وُجدت محتفظةً بعذريتها في مدينة أوريا الوثنية، يوم قرر الله إبادة المدينة كلها بسبب الفساد الذي سادها. فأبقى على أورشولا فقط، وحملها إلى أعلى الأكمة التي تشرف على ميناء مناكوري.

كان دون سيزار يستمتع أيام كان دينه التهمك على الدين، (من قبل أن يفقد الاهتمام)، ببث الفرع في قلوب أبناء قرابته عن طريق التلاعب بالكلمات حول فينوس - أورشولا الدير، التي يصفها بأنها شفيعه العجائز اللواتي يقمن باصطناع بكارة جديدة للفتيات بعد أن تكون قد فضت. ففضلت مارييت، على الرغم من السعر المرتفع الذي عرضته الدولة، الاحتفاظ بالتمثال الرخامي الذي وضعته في الدار ذات الأعمدة إلى جانب جهاز التلفزيون. فقد كانت مقتنعة بأن الآلهة التي سمعت سيدها يتحدث كثيراً عنها، لابد أن تكون مصدر سعد بالنسبة لها. وقامت، تثبيتاً لها في هذا الدور، بتعليق قرن من المرجان تدلى على صدر التمثال بين النهدين. وهي مقتنعة بأنها لم تخسر شيئاً، لأن ماتيو بريغانتني أوضح لها أن العاديات (والأشياء الفريدة حقاً بشكل خاص) لم يتوقف سعرها عن الارتفاع منذ مطلع القرن وما يزال. وأن فينوس أوريا على هذا الأساس رأس مال موظف ومصدر سعد دائم.

وانقضى عامان. صار الأجانب يقصدون بأعداد متزايدة، الجزر ذات الشواطئ الصخرية والعقبات والمغاور، الظاهرة على صفحة الماء تقريباً، لأنها الأكثر ملائمة للصيد تحت الماء. وقدّم بريغانتني لبيدو رأسماً صغيراً ليبدأ العمل. فاشترى الشاب منزلاً قديماً وقام بتأثيثه على عجل وبدأ يؤجره للسواح غرفةً غرفة. كما اشترى قارباً يحمل فيه الرياضيين نحو المغاور

حيث ترتع أرتال من أسماك البوري، كما أقام دقة للغطس وصار يُعطي دروساً في هذا الفن. وكان يعود إلى مارييت بعد انقضاء الموسم.

في عصر أحد الأيام من الصيف التالي (وهو ثاني فصل يمضيه بيبو في الجزر) توجه ماتيو بريغانتني لمقابلة مارييت. جلس الاثنان فوق كبتين حديثين من الجلد الفاتح أمام جهاز التلفزيون.

كانت مارييت تقترب من الحادية والعشرين وقد أصبحت أكثر قوة مما كانت عليه أيام دون سيزار، فالردفان أكثر امتلاءً والصدر أكثر ارتفاعاً.

شرح بريغانتني للفتاة كيف أن الأرض هي الرأس مال الأدنى ربحاً. فالزيوت المنتجة خارج البر الإيطالي ذات كلفة أقل. وبدأت تحل شيئاً فشيئاً محل الزيت المحلي. كذلك فإن أشجار البرتقال واللّيمون في مناكوري لا تعطي ثماراً توافق مواصفات تجارة التصدير. وإن مارييت لن تصمد طويلاً أمام منافسة المزارع الكبرى في صقلية وعلى سواحل سردينيا، والتي بدأت بإنتاج ثمار موحدة ومتجانسة على الطريقة الأميركية في كاليفورنيا. لكن ما يزال بوسعها الآن بيع أراضيها بسعر مغر. فقد ساد في إيطاليا الجنوبية اعتقاد قديم ولا يزال، بأن القيمة الكبرى للأرض. فيستحسن إذن أن تسرع للإفادة من ذلك قبل فوات الأوان. فالمال الموظف في أراضي مارييت لا يُدرّ ربحاً سنوياً قدره خمسة بالمئة. أمّا رساميل بريغانتني الموظفة هنا وهناك فتعطيه من ثمانية إلى عشرة بالمئة وأكثر. وهو على أتم استعداد لتقديم النصح إلى الفتاة.

أغرقت مارييت في الضحك، ثم قالت:

- بريغانتني، بريغانتني، ها أنا أراك قد عدت من جديد...

كانت لها أفكارها الخاصة. فأوضحتها له.

لقد بوشر بإنشاء طريق على شاطئ البحر، من شأنها أن تختصر المسافة بين بورتو البانيزي وسان سيفيري على الساحل الادرياتيكي إلى النصف. والمباشرة بالتنفيذ بدأت من الطرفين. سوف تمرّ هذه الطريق عبر المضيق فتقطع مصرف البحيرة فوق الجسر القديم (الذي سيتم تعريضه طبعاً) بمواجهة الدار ذات الأعمدة تماماً، ثم تسير في محاذاة السبخة، ثم تقطع بستان الزيتون الذي تملكه مارييت إلى نصفين.

لقد سبق لها أن سمعت بهذا المشروع من أيام دون سيزار، وقد تكذّر بسببه وانتابه الغمّ، حتى راودته الأفكار مرّة بهجر المنطقة نهائياً، والاعتكاف في قصر كاللونغا فوق الجبل. إنّ الأعمال تتقدّم بسرعة. ولقد تباحثت مارييت أكثر من مرة مع مهندس الجسور والطرق، المشرف على التنفيذ ومع مدير دائرة السياحة في المقاطعة.

فالطريق الجديدة سوف تصبح ممر العبور الرئيس للأجانب القادمين من ألمانيا والنمسا ومقاطعة فينيسيا، والمتوجّهين نحو برينديزي وشبه جزيرة أوتراني. وإنّ الأراضي التي تملكها ألفنائة سترتفع قيمتها ارتفاعاً هائلاً. إلا أنّها لا تنوي بيعها رغم ذلك كلّها. فلم لا تقوم بإنشاء فندق في بستان الزيتون مع مطعم ومحطة خدمة للسيارات وبعض الفيلات. وبكلمة واحدة لم لا تبني مجمّعاً سياحياً، فهذه العبارة سمعتها من التلفزيون؟

أمّا والمكان واقع إلى جانب دير القديسة أورسولا بنت أوربا، ومشرف على البحيرة والمضيق وخليج مناكوري كلّها، وعلى مقربة من مرفأ الإبحار نحو الجزر، فإنّ موقعه ملائم ومتميز.

ضحكت مارييت من جديد.

قالت:

- ماتيؤ، فكّرت بك من أجل أن تدبّر لي رأس المال وأيضاً من أجل أن
توظف رساميك في مشروع. تعال نشارك. وسوف نكسب مالاً كثيراً.

تشبّث بريغانتي بالفرصة المتاحة له فوراً. فقد زار ساحل سردينيا
مراراً وتذكّر أسماء المجمّعات السياحية المزدهرة مثل أمالفي ورافينو
وبوزيتانو وكابري، والتي لم تبدأ إلا على هذه الصورة. فالأجانب، لا سيّما
الألمان، يقبلون سنة بعد أخرى وبأعداد متزايدة على الساحل الادرياتيكي.
والطريق الجديدة سوف توفّر عليهم عبء التوقّف في مدينة داخلية كثيفة
مثل فوجيا.

يمكن الاستفادة حتى من الدار ذات الأعمدة، حسبما دار في خلدّه.
فصديقته المعلمة لم تنفذ مشروعها بإنشاء دار في سيبوتي، لأنّ الشرطة
المحلية في المنتجع البحري الصغير طلبت مبلغاً باهظاً لقاء موافقتها. أمّا
شرطة بورتو مناكوري، التي تدين بالكثير لبريغانتي، فلن تكون على الدرجة
نفسها من التشدد. وتشيننيا ما تزال تحت الطلب وكذلك فولفيا. وإنّ تأسيس
دار للمتعة على مقربة من المنتجع السياحي وبورتو مناكوري، سوف يدر
أرباحاً هائلة.

ولا بد أن تمنح فيندوس الرخامية، إذا ما وُضعت في الصالة الكبرى،
بركتها للمشروع.

قال بريغانتي:

- إنّ فكرتك لجديرة بكل الاهتمام.

لقد أُجريت لزوجته عملية جراحية ثالثة لاستئصال سرطان الثدي. وهي
لن تعمّر طويلاً بعد بلوغ مارييت سن الرشد. وتخيل بريغانتي الفتاة وقد
انتقلت إلى مناكوري لتستقرّ في الشقة المتفرعة عن جناح عصر النهضة من
قصر فريديريك الثاني دو سواب. سوف يقوم بتجديد كامل للأثاث لأنّ مارييت

ذوافة. إنَّ ماتيو بريغانتى وإلى جانبه زوجة مثلها، وشريكة على شاكلتها،
وفوق ذلك كله، ابنة دون سيزار حسبما أُشيع، سوف يتخطى كافة العقبات.
وسوف يرتفع إلى مصاف رؤسائه الضباط السابقين، وسيصير منهم في
موقف الدد للند. ولا بدّ من أن يصل إلى رئاسة البلدية.

قال لمارييت:

- سوف أفكر في الأمر. إنَّ فكرتك تستحق الدراسة بتمعّن. وأنا على
رأىي الدائم بأنّ رأسك عامر بالأفكار.

جعلته المنظورات الجديدة والتطلعات نحو المستقبل يشعر بشيء من
العزاء، بعد تعرّض فرانشيسكو في دراسته ورسوبه للمرة الثالثة على التوالي
في امتحانات السنة النهائية في كلية الحقوق.

كان رجال الأعمال في فوجيا قد انتهوا آنذاك من تبديد مستندات جوليا
وماريا وإلفيرا. وما كان من مارييت إلا أن قامت، على أثر نزاعات متكرّرة
بينها وبينهن، بطردهنّ من الدار ومعهنّ طونيو. فمضت إلفيرا للعمل خادمة
في كاللونغا عند أحد أقرباء دون سيزار. أمّا العجوز جوليا وابنتها ماريا
فكانتا تعملان، حين يوافق أحد الوقافين على تشغيلهما، في تعيش بساكنين
البرتقال والليمون وفي استخراج الماء لسقاية الأشجار. أمّا طونيو فمضى
ليحتل مكاناً خاصاً به بين صفوف العاطلين عن العمل، وقوفاً بمحاذاة
الجدران حول ساحة بورتو مأكوري الكبرى. فكان يصغي، وهو واقف
هنالك طول النهار، للأغاني التي تنبعث من كوى السجن المفتوحة في طابق
السراي الأرضي. وغالباً ما كان قادراً على تمييز صوت جوستو، خادم منزل
نادي الرياضة القديم، الذي لم يكفّ عن ملاقة المتاعب على أيدي القاضي
الجديد، لا سيّما أنّ الضغينة في قلب بريغانتى ثابتة لا تتزعزع.

وأمّا مارييت فلم تعد تغني، مذ أن اشترت جهاز تلفزيون.

مرّ بمدينة فوجيا أحد المؤرّخين الدانمركيين، فوقع فيها على مجموعة دون سيزار الأثرية وعلى عمله المخطوط من ثلاثة آلاف صفحة. وقد أعجب به أيما إعجاب، وأذهلته الرؤى الذكيّة والعميقة جداً في أغلب الأحيان، لذلك العلامة المحلي، والدقة المتناهية في معلوماته وتوثيقاته. فاستوحى منها جوهر مؤلّف كبير حول حاضرة أوريا القديمة. وهو المؤلّف الذي توقع أن يكون له دويّ عالمي بين صفوف الاختصاصيين في تاريخ المستعمرات الإغريقية إبان العهد الهيلينستي في إيطالية الجنوبية.

* * *

عبود كاسوحة

- من مواليد القصير - حمص، ١٩٣٨.
- مجاز في الأدب الفرنسي، من جامعة دمشق ١٩٦٣.
- يحمل دبلوم في التربية ١٩٦٥.
- عمل في الصحافة لثلاثة أعوام، وتميّز بكتابة المقالة.
- عمل مدرساً للفرنسية حتى التقاعد عام ١٩٩٨.
- عضو في اتحاد الكتاب العرب، ومقرر جمعية الترجمة لعدة أعوام.
- ترجم كافة الأجناس الأدبية والفكرية والفلسفية:
- الرواية، المسرحية، النقد الأدبي، الأعمال الفلسفية...
- لكنه يزهو خصوصاً بأنه كان أول من ترجم أعمال فيلسوف عصر
الأدوار، الموسوعي «ديدرو»:
- ابن شقيق رامو، جاك المؤمن بالقدر، رسالة حول العيان، حلم دالامبير.
- وقريباً مفارقة الممثل...
- ومعظم الترجمات صدر عن وزارة الثقافة.
- قلّدتَه السفارة الفرنسية بدمشق في صيف ٢٠٠٧ وساماً، بعد صدور
مرسوم عن الحكومة الفرنسية ووزير التعليم والبحث بتسميته:
- «فارساً من رتبة السعف الأكاديمية»

تقديرًا لجهوده في نشر الثقافة الفرنسية.

- كرّمته جمعية الترجمة في اتحاد الكتاب العرب في آذار ٢٠٠٨.

- لم يذق المترجم عن صدق لُغته العربية، التي يهواها حتى العشق،
مؤمناً بأنها الكنز الذي لا يفنى، بعد أن تنضب آخر قطرة نَفْط من
الأرض العربية.

* * *

الطبعة الأولى / ٢٠١١

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة



يحلل روجيه فاين، وهو يراقب السكان في منطقة من إيطاليا الجنوبية، الطبقات المختلفة التي يتكوّن منها المجتمع، فيرصد نزاعاتها الداخلية وتواصلاتها وعداواتها. فيخوض شخوصه، من الأغنى إلى الأفقر، ومن الأوسع نفوذاً إلى المسحوق، قتالاً متواصلًا في سبيل ارتقاء مدارج السلطة، ولإرواء انحرافاتهم أو في سبيل تحصيل لقمة العيش.

وإذا فازت هذه الرواية «الاجتماعية»، بجائزة غونكور لعام ١٩٧٥ فقد تحوّلت إلى فيلم سينمائي أخرجه جول داسان، من بطولة لولو بريجيديا وميلينا ميركوري وايف مونتان ومارسيلو ماسترويانى.



www.syrbook.gov.sy

مطابع وزارة الثقافة - الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١١

سعر النسخة • ٢٤ ل.س أو ما يعادلها